# محاضرات في التصوف

الأستاذ الدكتور
**شوقي إبراهيم عبد الله**
أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة
فى كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
**عميـــد الكليـــة**
**أ.د / شوقى إبراهيم على عبد الله**

# التّصوّف نشأته، تاريخه وتطوّراته

إن الاسلام دين البساطة ودين الفطرة التى فطر الناس عليها، أنزله الله على قلب سيد الخلق لهداية البشر.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾[1].

وأمر سبحانه جلّ وعلا أن يتمسك به، ويقدّمه إلى الناس ليعرفوه ويتمسكوا به بدورهم.

وأنه عبارة عن الاقرار بوحدانية الله عز وجل لا شريك له، والشهادة بأن محمدا عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه، وإقامة الصلوات الخمس، وايتاء الزكاة بعد مرور عام على ملاك النصاب وكذلك صوم شهر رمضان من اثنى عشر شهرا، وحج البيت ان استطاع إليه سبيلا، كما ورد في حديث جبريل عليه الصلاة والسلام أنه جاء يوما من الأيام يسأل النبى ﷺ الاسلام، فقال:

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت ان استطعت إليه سبيلا»[2].

أو كما ورد في حديث أعرابى جاءه صلوات الله وسلامه عليه فقال له: «دلّنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة.

قال: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا شيئا ولا أنقص منه. فلما ولّى، قال النبىّ ﷺ: من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[3].

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٣

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

أو بتعبير آخر أن الإسلام يعبّر عن التمسك بأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، وقضاء حياة مثل ما قضاها رسول الله، واختيار الطرق والسنن التى اختارها أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كما أمر به الرب تبارك وتعالى في كلامه المحكم:

**﴿أطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾**[٤].

و**﴿أطيعوا الله ورسوله ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون﴾**[٥].

و**﴿من يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾**[٦].

و**﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم﴾**[٧].

و**﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**[٨].

و**﴿من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيماً﴾**[٩].

و**﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾**[١٠].

و**﴿واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾**[١١].

وأوامر الله ورسوله، وكذلك نواهى الله ونواهى رسوله موجودة محفوظة في الكتاب والسنة، الكتاب المنزّل على سيد البشر وخاتم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليه، المعبرّ عنه بالذكر الحكيم والفرقان الحميد والقرآن المجيد، الذى جعله الله شفاء وهدى ورحمة للمؤمنين، وسنة رسول الله المعبر عنها بالحكمة في قوله جل وعلا: **﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾** وبالحديث النبوى الشريف، ماثبت عنه وصحّ من أقواله وأفعاله وتقريراته، الكتاب والسنة اللذين ذكرهما الرسول ﷺ في قوله حيث حرّض أمته، وحثهم على التمسك والتشبث بهما قائلا: «تركت فيكم أمرين لن

---

(٤) سورة آل عمران الآية ١٣٢ .
(٥) سورة الأنفال الآية ٢٠ .
(٦) سورة الأنفال الآية ١٣ .
(٧) سورة التوبة الآية ٦٣ .
(٨) سورة الحشر الآية ٧ .
(٩) سورة الأحزاب الآية ٧١ .
(١٠) سورة الأحزاب الآية ٢١ .
(١١) سورة لقمان الآية ١٥ .

تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله»[١٢].

ثم ربّى أصحابه وتلامذته في ظلهما وضوئهما تربية نموذجية لكي يكونوا قدوة لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، ومثلا عليا لمن أراد أن يهتدى بهدى الله جل وعلا وهدى رسوله ﷺ. فكانوا صورة حية لتعاليم الرب تبارك وتعالى وارشادات رسوله ﷺ متبعين مقتدين، غير مبتدعين محدثين، متقدمين بين يدى الله ورسوله، مبتغين مرضات الله، ومقتفين آثار رسول الله ﷺ، مهتدين بهديه، سالكين بمسلكه، منتهجين منهجه، غير باغين ولا عادين، ولا مفرطين ومفرّطين في أمور دينهم ودنياهم: **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾**[١٣].

وكان خيار هؤلاء كلهم - وكلّهم خيار الخلق أجمعين - أصحاب بيعة الرضوان الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت وهم في الحديبية، فأنزل الله لهم البشرى برضوانه وجعل يده فوق أيديهم: **﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾**[١٤].

و**﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾**[١٥].

وفاقهم في المنزلة والشأن أهل بدر، الذين اطلع الله عليهم فقال: «اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة»[١٦].

وزاد على هؤلاء فضلا ومنقبة ومكانة من رفعهم الله بتبشيره اياهم بالجنة واحدا واحدا بالاسم والمسمى على لسان نبيهم الناطق بالوحى، الذى لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى، الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، العشرة المبشرة **﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾**.

ولو أنه زادهم رفعة وعظمة من قال في حقهما سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه: «خير الخلائق بعد نبى الله أبو بكر ثم عمر»[١٧].

---

(١٢) رواه مالك في الموطأ.
(١٣) سورة الأنعام الآية ٩٠.
(١٤) سرة الفتح الآية ١٨.
(١٥) سورة الفتح الآية ١٠.
(١٦) متفق عليه.
(١٧) هذا الحديث رواه البخارى عن على، وأطرف من ذلك أن هذا الحديث ورد في الكتب الشيعية أيضا - انظر لذلك كتابنا الشيعة وأهل البيت.

فمن أراد أن يرى الإسلام متجسدا في شخصهم، وذواتهم، وخلقهم، وعاداتهم، وأقوالهم، وأفعالهم، فلينظر إلى هؤلاء، فإنهم كانوا ممثلى الإسلام الصحيح، الكامل، غير المشوب بشوائب البدع والمحدثات، والخرافات والضلالات التى لحقت الاسلام بعد أدوار وأطوار، فإنهم كانوا تلامذة المدرسة الإسلامية الأولى التى كان أستاذها والمعلم فيها سيد ولد آدم، المحفوظ بحفظ الله، والمعصوم بعصمة الله، والمؤيد بوحى الله، والهادى إلى الصراط المستقيم. ﷺ.

ولأجل ذلك حصر الله رضاه والدخول في الجنة لمتبعيهم بإحسان لكل من يأتى بعدهم، ﴿والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾[١٨].

فهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون لأنهم هم الذين حبب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان وأولئك هم الراشدون.

وهم القدوة الحسنة، والمحكّ والمعيار لمعرفة الحق من الباطل، والهدى من الزيغ والضلال.

فكل عمل يخالف عملهم، وكل قول يعارض قولهم، وكل طريق فى الحياة يناهض طريقهم مردود مرفوض مطرود، لأنهم شاهدوا من رسول الله ما لم يشاهده غيرهم، وسمعوا عن نبى الله مالم يسمعه الآخرون، وربّاهم من لم يربّ هؤلاء، وتتلمذوا على من لم يتلمذ عليه أولئك، فهم أشبه الناس في أقوالهم وأفعالهم، وأخلاقهم وعاداتهم، وعباداتهم ومعاملاتهم، ومعاشرتهم ومعاشهم برسول الله صلوات الله وسلامه عليه من غيرهم، فلذلك أمر المؤمنون باتباعهم، وإلى ذلك أشار نبى الرحمة ﷺ فى قوله «ما أنا عليه وأصحابى» حيث جعلهم معه على طريقة واحدة ومنهج واحد، ولم يُدخل في هذا الاختصاص أحدا غيرهم، ولم يخصهم بهذه المزية والفضيلة إلا بأمر من الله وايعازه حيث أنزل عليه في محكم كتابه أن يقول: ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾[١٩].

ولم يرد من قوله (ومن اتبعنى) آنذاك إلا أصحابه ورفاقه، تلامذته الراشدين، وأوفيائه الصادقين، الهادين المهديين رضى الله عنهم أجمعين.

ففى ضوء الكتاب والسنة، وأسوة الرسول وسيرته، وعمل أصحابه وحياتهم

---

(١٨) سورة التوبة الآية ١٠٠.
(١٩) سورة يوسف الآية ١٠٨

توضع وتوزن أعمال المسلمين المتخلّفين وأقوال من جاء بعدهم، فما وجد لها سند ودليل يحكم عليها بالصحة والصواب، قطع النظر عمن صدرت عنه، وممن وردت.

وما لم يعاضدها الكتاب ولم تناصرها السنة، ولم يوجد لها أثر في حياة الصحابة وأفعالهم يحكم عليها بالفساد والبطلان، سواء وردت من صغير أو كبير، تقى أو شقى، لأن «أحسن الكتاب كتاب الله، وخير الأمور أوسطها، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[20].

وقال عليه الصلاة والسلام: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[21].

وإن المسلمين للزمون أن يؤمنوا بأن الله لم يترك خيرا لأمة محمد ﷺ إلا وقد بيّنه لرسوله ﷺ، ولا شراً إلا وقد نبّهه عليه، ثم رسول الله ﷺ لم يكتم بيانه، ولم يقصّر في تبليغه إلى الناس، فأخبر الخلق بكل ما أخبر عن الله عز وجل لصلاحهم وفلاحهم، ولم يخصّ شخصا دون شخص ﴿**وما هو على الغيب بضنين**﴾[22].

وكان مأمورا من الله بأن يبلغ كل ما نزل إليه، قال تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾[23].

كما ان المسلمين مطالبون أيضا أن يؤمنوا بأن الدين قد كمل في حياة رسول الله ﷺ، ولم يتوفه الله إلا بعد اتمام الإسلام ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[24].

ومن يعتقد أن شيئا من الدين ولو صغيرا بقى ولم ينزله الله على نبيه، أو لم يبينه صلوات الله وسلامه عليه فإنه لايؤمن بكمال الدين على رسوله ﷺ، ولاتمام الإسلام في حياته، لأنه بدون هذا ينقص الدين ولا يكمل، وهذا معارض لقول الله عز وجل، ومناف لختم نبوة محمد صلوات الله عليه وسلامه عليه.

ويتضح بذلك جليا أنه لابدّ من الاعتقاد أن كل شىء لايوجد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فليس من الدين ـ وهو محدث وبدعة وضلالة، وهذا هو الصحيح

---

(٢٠) رواه أبو داؤد.
(٢١) متفق عليه.
(٢٢) سورة التكوير الآية ٢٤.
(٢٣) سورة المائدة الآية ٦٧.
(٢٤) سورة المائدة الآية ٣.

الثابت عن الله وعن رسوله ـ أما اعتقاد انه من الدين وأن الدين لم يكمل بعد، فهذا هو عين الكفر والضلالة، وقائله ليس من المؤمنين والمسلمين بالاتفاق، فلابدّ من أحد الأمرين، أما هذا أو ذلك، ولايمكن الجمع بينهما. ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وان الله لسميع عليم**﴾[٢٥].

و﴿**هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير**﴾[٢٦].

ومن هذا المنظور والرؤية نرى التصوف، وننظر في الصوفية، ونبحث في قواعده وأصوله ونحقق أسسه ومبادئه، مناهجه ومشاربه، هل لها أصل في القرآن والسنة، أو سند في خيار خلق الله أصحاب رسول الله الذين هم أولياء الله الحقيقيون الأولون من أمة محمد، الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون.

﴿**والـذين آمنـوا وهـاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم**﴾[٢٧].

و﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عنـد الله وأولئـك هم الفـائـزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر عظيم**﴾[٢٨].

و﴿**فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون**﴾[٢٩].

فإن كان كذلـك فعلى المؤمنـين كافـة الاقرار والتسليم، والتمسك والإلتزام، وليس لهم الخيار في الترك أو القبول، ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**﴾[٣٠].

وأيضـا: ﴿**فـلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾[٣١].

---

(٢٥) سورة الأنفال الاية ٤٢.
(٢٦) سورة التغابن الآية ٢.
(٢٧) سورة الأنفال الآية ٧٤.
(٢٨) سورة التوبة الآية ٢٠، ٢١، ٢٢.
(٢٩) سورة الأعراف الآية ١٥٧.
(٣٠) سورة الأحزاب الآية ٣٦.
(٣١) سورة النساء الآية ٦٥.

وشمل قول الله عز وجل في الآية القرآنية الأخرى أصحاب نبيه ﷺ لكونهم قدوةمتبعوين بعد الله ورسوله حيث قال:

**﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾**[٣٢].

وما لم يكن كذلك فتركه واجب، والالتفات إليه حرام، بقطع النظر عمن قاله وعمل به.

وبمثل ذلك قال الامام أبو إسحاق الشاطبي في اعتصامه:

«(والثاني) إن الشريعة جاءت كاملة لاتحتمل الزيادة ولا النقصان، لأن الله تعالى قال فيها: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾**.

وفي حديث العرباض بن سارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها الأعين ووجلت منها القلوب، فقلنا: يارسول الله، إن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا؟ قال: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى» الحديث.

وثبت أن النبي ﷺلم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة.

فإذا كان كذلك، فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أومقاله: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقى منها أشياء يجب أويستحب استدراكها، لأنه لوكان معتقدا لكمالها وتمامها من كل وجه، لم يبتدع ولا استدرك عليها. وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾** فما لم يكن يومئذ دينا، فلا يكون اليوم دينا.

(والثالث) إن المبتدع معاند للشرع ومشاقٌ له، لأن الشارع قد عين لمطلب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهى والوعد والوعيد

---

(٣٢) سورة النساء الآية ١٥.

وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعدِّيها - إلى غير ذلك، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين. فالمبتدع رادٌ لهذا كله، فإنه يزعم أن ثمَّ طرقا أخر، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ماعينه بمتعين، كأن الشارع يعلم، ونحن أيضا نعلم. بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع، أنه علم مالم يعلمه الشارع.

وهذا إن كان مقصودا للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود، فهو ضلال مبين.

وإلى هذا المعنى أشار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، إذ كتب له عديُّ بن أرطاة يستشيره في بعض القدرية، فكتب إليه:

«أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره واتِّباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون فيما قد جرت سنته وكفوا مؤ نته، فعليك بلزوم السنة، فإن السنة إنما سنَّها من قد عرف مافي خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك بما رضى به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ، قد كفوا وهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل كانوا فيه أحرى. فلئن قلتم: أمر حدث بعدهم، ما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سننهم، ورغب بنفسه عنهم، إنهم لهم السابقون، فقد تكلموا منه ما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محسر، لقد قصر عنهم آخرون فقلوا وأنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم».

ثم ختم الكتاب بحكم مسئلته.

فقوله: «فإن السنة إنما سنها من قد عرف مافي خلافها» فهو مقصود الاستشهاد.

(والرابع) إن المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهى للشارع، لأن الشارع وضع الشرائع وألزم الخلق الجرى على سننها، وصار هو المنفرد بذلك، لأنه حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون. وإلا فلو كان التشريع من مدركات الخلق لم تنزل الشرائع، ولم يبق الخلاف بين الناس. ولا احتيج إلى بعث الرسل عليهم السلام.

هذا الذي ابتدع في دين الله قد صير نفسه نظيراً ومضاهيا، حيث شرع مع

الشارع، وفتح للاختلاف باباً، ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع وكفى بذلك»[٣٣].

وبعد هذه التوطئة المختصرة والمهمة أيضا ننتقل إلى المقصود والمطلوب، وهو معرفة التصوف والصوفية، وجعل الشرع حاكما عليهما، وعرض آرائهما وأفكارهما عليه. وبالله التوفيق.

(٣٣) الاعتصام للشاطبي ص٤٨ إلى ٥١ ط مطبعة السعادة مصر.

# أصل التصوف واشتقاقه

قبل أن نبحث في التصوف ونشأته وتاريخه نريد أن نذكر أصل اشتقاقه، من أين اشتق؟ وكيف كان اشتقاقه؟ واختلاف الباحثين فيه والصوفية أنفسهم أيضا، ولقد سئل الشبلي: لم سميت الصوفية بهذا الاسم؟.

فقال: «هذا الاسم الذى أطلق عليهم اختلف في أصله وفي مصدر اشتقاقه»[٣٤].

ولا زالوا مختلفين فيه حتى اليوم.

فلقد نقل الطوسى أبو نصر السراج[٣٥] في كتابه الذي يعد أقدم مرجع صوفى، عن صوفى أنه قال:

«كان في الأصل صفوى، فاستثقل ذلك، فقيل: صوفى — وبمثل ذلك نقل عن أبى الحسن الكناد: هو مأخوذ من الصفاء»[٣٦].

وينقل الكلاباذى أبو بكر محمد الصوفي المشهور[٣٧] عن الصوفية أقوالا عديدة في أصل هذه الكلمة واشتقاقها، فقال:

قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفى من صفت لله معاملته، فصفت له من الله عز وجل كرامته.

وقال قوم: انما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدى الله جل وعز بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم عليه، ووقوفهم بسائرهم بين يديه.

---

(٣٤) «أبحاث في التصوف» للدكتور عبد الحليم محمود، المدرجة في مجموعة مؤلفاته ص٥٥ ط دار الكتاب اللبنانى الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

(٣٥) هو أبو النصر عبد الله بن على السراج الطوسي الملقب بطاووس الفقراء، توفى في رجب سنة ٣٧٨هـ.

(٣٦) انظر «كتاب اللمع» ص٤٦ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور ط دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٠م.

(٣٧) هو أبو بكر محمد الكلاباذى الملقب بتاج الاسلام، قيل في شأن كتابه (التعرف): لولا التعرف لما عرف التصوف (مقدمة كتابه).

وقال قوم: إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وقال قوم: إنما سموا صوفية للبسهم الصوف.

وأما من نسبهم إلى الصفة والصوف فإنه عبّر عن ظاهر أحوالهم، وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا، فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه، من ستر عورة، وسد جوعة.

فلخروجهم عن الأوطان سموا غرباء.

ولكثرة أسفارهم سموا سياحين.

ومن سياحتهم في البراري وإيوائهم إلى الكهوف عند الضرورات سماهم بعض أهل الديار «شكفتية» والشكفت بلغتهم: الغار والكهف.

وأهل الشام سموهم «جوعية» لأنهم إنما ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة، كما قال النبي ﷺ «بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه».

وقال السري السقطي، ووصفهم فقال: أكلهم أكل المرضى، ونومهم نوم الغرقى، وكلامهم كلام الخرقى.

ومن تخلّيهم عن الأملاك سموا فقراء.

قيل لبعضهم: من الصوفي؟ قال: الذي لا يَملك ولا يُملك. يعني لا يسترقه الطمع.

وقال آخر: هو الذي لا يملك شيئا، وإن ملكه بذله.

ومن لبسهم وزيّهم سموا صوفية، لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان مسّه، وحسن منظره، وإنما لبسوا لستر العورة، فتجزّوا بالخشن من الشعر، والغليظ من الصوف.

ثم هذه كلها أحوال أهل الصفة، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ووصفهم أبوهريرة وفضالة بن عبيد فقالا: يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين. وكان لباسهم الصوف، حتى إن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه المطر.

هذا وصف بعضهم لهم، حتى قال عيينة بن حصن للنبى ﷺ: إنه ليؤذيني هؤلاء أما يؤذيك ريحهم؟.

ثم الصوف لباس الأنبياء، وزيُّ الأولياء.

وقال أبو موسى الأشعرى عن النبي ﷺ «إنه مرَّ بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت العتيق».

وقال الحسن البصرى: كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر، ويأكل من الشجرة، ويبيت حيث أمسى.

وقال أبو موسى: كان النبى ﷺ يلبس الصوف، ويركب الحمار، ويأتى مدعاة الضعيف.

وقال الحسن البصرى: لقد أدركت سبعين بدرياً ما كان لباسهم إلا الصوف.

فلما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصفة فيما ذكرنا، ولبسهم وزيهم زى أهلها، سموا صُفيّة وصوفية.

ومن نسبهم إلى الصفة والصف الأول فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم، وذلك أن من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها، صفَّى الله سره، ونوَّر قلبه.

قال النبى ﷺ: «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح»، قيل: وما علامة ذلك يارسول الله؟ قال «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

فأخبر النبى ﷺ أن من تجافى عن الدنيا نور الله قلبه.

وقال حارثة حين سأله النبى ﷺ: ما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت بنفسى عن الدنيا، فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلى، وكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعادون.

فأخبر أنه لما عزف عن الدنيا نور الله قلبه، فكان ما غاب عنه بمنزلة ما يشاهده. وقال النبى ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى عبد نور الله قلبه فلينظر إلى حارثة، فأخبر أنه منوّر القلب.

وسميت هذه الطائفة نورية لهذه الأوصاف.

وهذا أيضا من أوصاف أهل الصفة، قال الله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾.

والتطهر بالظواهر عن الأنجاس، وبالبواطن عن الأهجاس.

وقال الله تعالى: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾. ثم لصفاء أسرارهم تصدق فراستهم.

قال أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: ألقى في روعى أن ذا بطن بنت خارجة، فكان كما قال.

وقال النبى ﷺ: «إن الحق لينطق على لسان عمر».

وقال أبو أويس القرنى لهرم بن حيان حين سلم عليه: وعليك السلام ياهرم بن حيان، ولم يكن رآه قبل ذلك، ثم قال له: عرف روحى روحك.

وقال أبو عبد الله الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب يدخلون في أسراركم ويخرجون من هممكم.

ثم من كان بهذه الصفة من صفوة سرّه وطهارة قلبه ونور صدره فهو في الصف الأول، لأن هذه أوصاف السابقين.

قال النبى ﷺ: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب» ثم وصفهم وقال: «الذين لا يرقون ولا يسترقون، ولا يكوون ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون».

فلصفاء أسرارهم، وشرح صدورهم، وضياء قلوبهم: صحت معارفهم بالله، فلم يرجعوا إلى الأسباب ثقة بالله عز وجل، وتوكلا عليه، ورضاً بقضائه.

فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها، ومعاني هذه الأسماء كلها في أسامى القوم وألقابهم، وصحت هذه العبارات وقربت هذه المآخذ.

وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة فى الظاهر، فإن المعاني متفقة لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية.

وإن أضيفت إلى الصف أو الصُّفة كانت صَفيّة أو صُفية، ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الصوفية، وزيادتها في لفظ الصفية والصُّفية إنما كانت من تداول الألسن.

وإن جعل مأخذه من الصوف: استقام اللفظ، وصحت العبارة من حيث اللغة.

وجميع المعانى كلها من التخلى عن الدنيا وعزوف النفس عنها وترك الأوطان ولزوم الأسفار، ومنع النفوس حظوظها، وصفاء المعاملات، وصفوة الأسرار، وانشراح الصدور وصفة للسباق.

وقال بندار بن الحسين: الصوفي من اختاره الحق لنفسه فصافاه، وعن نفسه برأه، ولم يرده إلى تعمّل وتكلف بدعوى.

وصوفى على زنة عوفى، أى عافاه الله فعوفى وكوفى، أى كافاه الله فكوفى، وجوزى، أى جازاه الله، ففعل الله به ظاهر في اسمه والله المتفرد به»[٣٨].

هذا ما تخبط به الكلاباذى من الخلط والغلط قطع النظر عن ضعف أكثر الروايات التي ساقها وسردها.

ويكتب من الصوفية المتقدمين أبو العباس أحمد بن زروق[٣٩] في كتابه قواعد التصوف: وقد كثرت الأقوال فى اشتقاق التصوف، وأمسى ذلك بالحقيقة خمسة.

**الأول**: قول من قال: من الصوفة، لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له.

**الثانى**: انه من صوفة القفا، للينها، فالصوفى هينّ لينّ كهى.

**الثالث**: أنه من الصفة، إذ جعلته اتصاف بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة.

**الرابع**: انه من الصفاء، وصحح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستى رحمه الله:

تنازع الناس في الصوفى واختلفوا ... وظنه البعض مشتقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

**الخامس**: انه منقول من الصفة لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال تعالى: ﴿**يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه**﴾. وهذا

---

(٣٨) «التعرف لمذهب أهل التصوف» للكلاباذى ص٢٨ إلى ٣٤ تحقيق محمود أمين النواوى الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة.

(٣٩) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن زرّوق: علم من أعلام الصوفية، وإمام من أئمة أهل الحقيقة (انظر الصفحة الفوقانية لكتاب قواعد التصوف).

هو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه»[٤٠].

وقال أبو نعيم الأصبهاني المتوفى ٤٣٠هـ في حليته:

واشتقاقه من حيث الحقائق التي أوجبت اللغة فانه تفعل من أحد أربعة أشياء، من الصوفانة، وهي بقلة رعناء قصيرة، أو من صوفة وهى قبيلة كانت في الدهر الأول تجيز الحاج وتخدم الكعبة، أو من صوفة القفاء وهى الشعرات النابتة في متأخره، أو من الصوف المعروف على ظهور الضأن»[٤١].

وقال مرجحا كونه مأخوذا من الصفاء:

«اشتقاقه عند أهل الاشارات والمنبئين عنه بالعبارات من الصفاء والوفاء»[٤٢].

وذهب إلى هذا الرأى فريد الدين العطار المتوفى ٥٨٦هـ تقريبا نقلا عن بشر الحافى[٤٣].

وكذلك الصوفي الهندي فريد الدين الملقب بكنج شكر المتوفى ٦٦٩هـ[٤٤].

ولكن السهروردى الذي فصل القول في هذا يرى رأيا آخر، وهو أنه مشتق من الصوف ولبسه، فاليكم ما قاله في كتابه (عوارف المعارف) في الباب السادس تحت عنوان: ذكر تسميتهم بهذا الاسم:

«أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر، وقال أخبرنى والدي، قال أخبرنا أبو على الشافعى بمكة حرسها الله تعالى، قال أخبرنا أحمد بن إبراهيم، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم، قال أخبرنا أبو عبد الله المخزومى، قال: حدثنا سفيان عن مسلم عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف، فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة

---

(٤٠) «قواعد التصوف» لابن زرّوق الطبعة الثانية ص٢٩٣ ط ١٣٩٦هـ مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، أيضا «لطائف المنن» لابن عطاء الله الأسكندرى ط مطبعة حسان مصر، أيضا «الدر =
= الثمين، والمورد المعين» لمحمد بن أحمد المالكى ج٢ ص١٦٩ ط مصطفى البابى الحلبى ١٩٥٤م. أيضا «ايقاظ الهمم في شرح الحكم» لأحمد بن عجيبة الحسنى ط مصطفى البابى الطبعة الثالثة ١٩٨٢م.

(٤١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للأصبهاني جـ١ ص١٧ ط دار الكتاب العربى بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.

(٤٢) نفس المصدر.

(٤٣) «تذكرة الأولياء» للعطار ص ٦٨ ط باكستان.

(٤٤) انظر «أسرار الأولياء» ص١٢٩ ط باكستان الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

لهم إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام».

وقيل: إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر، ويأكل من الشجر، ويبيت حيث أمسى.

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه: لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف، ووصفهم أبوهريرة وفضالة بن عبيد فقالا: كانوا يخرون من الجوع حتى يحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث. وقال بعضهم: إنه ليؤذينى ريح هؤلاء، أما يؤذيك ريحهم! يخاطب رسول الله ﷺ بذلك، فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة وستر العورة، واستغراقهم في أمر الآخرة، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحاتها، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم، وانصراف هممهم إلى أمر الآخرة، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنه يقال «تصوف» إذا لبس الصوف، كما يقال «تقمص» إذا لبس القميص.

ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم في الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه، لا يفيدهم وصف ولا يحسبهم نعت، وأبواب المزيد علماً وحالاً عليهم مفتوحة، وبواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم، فلما تعذر تقيدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم وتجنس مزيدهم، نسبوا إلى ظاهر اللبسة. وكان ذلك أبين في الاشارة إليهم، وأدعى إلى حصر وصفهم، لأن لبس الصوف كان غالباً على المتقدمين من سلفهم، وأيضا لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره. ولما كان الاعتزاء إلى القرب - وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب يعز كشفه والإشارة إليه. . وقعت الإشارة إلى زيهم ستراً لحالهم وغيرة على عزيز مقامهم ان تكثر الاشارة إليه وتتداوله الألسنة، فكان هذا أقرب إلى الأدب، والأدب في الظاهر والباطن والقول والفعل عماد أهل الصوفية.

وفيه معنى آخر: وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبىء عن تقللهم من الدنيا وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم، حتى إن المبتدىء المريد الذي يؤثر طريقهم ويحب الدخول في أمرهم يوطن نفسه على التقشف والتقلل،

ويعلم أن المأكول أيضا من جنس الملبوس فيدخل في طريقهم على بصيرة، وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدىء، والإشارة إلى شيء من حالهم في تسميتهم بهذا أنفع وأولى، وأيضا غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم، وأيضا لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم، ونسبتهم من أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن، والحكم بالظاهر أوفق وأولى، فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع، ويقرب أن يقال: لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكار والتخفي والتواري، كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التي لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها، فيقال «صوفي» نسبة إلى الصوفة، كما يقال «كوفي» نسبة إلى الكوفة، وهذا ما ذكره بعض أهل العلم، والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد.

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه، قال أخبرنا عبد الرزاق بن عبد الكريم، قال أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد، قال حدثنا أبو علي بن إسماعيل بن محمد، قال حدثنا الحسن بن عرفة، قال حدثنا خلف بن خليفة عن حميد بن الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكمه من صوف ونعلاه من جلد حمار غير مذكى.

وقيل: سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه. وقيل: كان هذا الاسم في الأصل صفوي، فاستثقل ذلك وجعل صوفياً. وقيل سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله ﷺ، الذين قال الله تعالى فيهم **﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾** الآية، وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكنه صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متألفين متصاحبين لله وفي الله، كأصحاب الصفة، وكانوا نحواً من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديماً وحديثاً في الزوايا والربط، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن «تلاوته» وكان

رسـول الله ﷺ يواسيهم ويحث النـاس على مواسـاتهم ويجلس معهم ويأكـل معهم، وفيهم نزل قولـه تعـالى ﴿ولا تطـرد الـذين يدعـون ربهم بالغـداة والعشي يريـدون وجهـه﴾ وقـولـه تعـالى: ﴿واصـبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ ونـزل في ابن مكتـوم قولـه تعـالى: ﴿عبس وتـولى أنْ جاءه الأعمى﴾ وكان من أهل الصفة، فعوقب النبي ﷺ لأجله، وكان رسول الله ﷺ إذا صافحهم لا ينزع يده من أيـديهم، وكـان يفـرقهم على أهل الجدة والسعة يبعث مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة، وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم.

وقـال أبـو هريـرة رضي الله عنـه: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحـد، منهم من لايبلغ ركبتيـه، فإذا ركـع أحـدهم قبض بيـديـه مخافة أن تبدو عورتـه. وقـال بعض أهـل الصفـة: جئنـا جماعة إلى رسول الله ﷺ وقلنا يارسول الله أحـرق بطـوننـا التمـر فسمـع بذلك رسول الله ﷺ فصعد المنبر ثم قال: ما بال أقوام يقولون احرق بطوننا التمر، اما علمتم ان هذا التمر هو طعام أهل المدينة وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به، والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ﷺ دخان للخبز، وليس لهم إلا الأسودان الماء والتمر.

أخبرنا الشيخ أبو الفتوح محمد بن عبد الباقي في كتابه، قال: أخبرنا الشيخ أبو بكر بن زكريا الطريثيثي قال أخبرنا الشيخ أبوعبد الرحمن السلمي، قال حدثنا محمد بن محمد ابن سعيد الأنماطي، قال حدثنا الحسن بن يحيى بن سلام، قال حدثنا محمد ابن علي الترمذي، قال حدثني سعيد بن حاتم البلخي، قال حدثنا سهل بن أسلم عن خلاد بن محمـد عن أبي عبـد الـرحمن السكري عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عبـاس رضي الله عنهم قال: وقف رسـول الله ﷺ يومـاً على أهـل الصفـة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال «أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقي منكم على النعت الذي أنتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه فإنه من رفقائي يوم القيامة».

وقيـل: كان منهم طائفـة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن، ويسمونهم في خراسان شكفتية؛ لأن «شكفت» اسم الغار، ينسبونهم إلى المأوى والمستقـر وأهـل الشـام يسمونهم جوعية، والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخـير والصـلاح فسمى قومـا أبـراراً وآخرين مقربين، ومنهم الصابرون والصادقون، والـذاكـرون، والمحبـون، واسم الصـوفي مشتمـل على جميع المتفرق في هذه الأسماء المذكورة، وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، وقيل كان في زمن التابعين.

ونقل عن الحسن البصري رحمة الله عليه أنه قال: رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ وقال معي أربع دوانيق يكفيني ما معي ويشيد هذا ما روى عن سفيان أنه قال لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء. وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديما وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية»(٤٥).

فهل هناك تعارض وتناقض أكثر من ذلك؟.

ورجح الرأى الأخير أبو المفاخر يحيى الباخرزى(٤٦).

ونجم الدين كبرى(٤٧) رجح كون كلمة التصوف مشتقة من الصوف، وأضاف «بأن أول من لبس الصوف آدم وحواء. لأنهما أول ما نزلا في الدنيا كانا عريانين، فنزل جبريل بالخروف فأخذا منه الصوف، فغزلت حواء ونسجه آدم ولبساه، وكذلك موسى عليه السلام لبس الصوف، وأن يحيى وزكريا ونبينا محمدا ﷺ أيضا كانوا يلبسون الصوف.

ونسبة الصوفي إلى الصوف، واذ ألبس الصوف طلب من نفسه حقه، لأن الصوف مركب من الأحرف الثلاثة: الصاد، والواو، والفاء، فيطلب من الصاد الصبر والصلابة والصدق والصلاة، ويطلب من الواو الوفاء والوجد، وبالفاء الفرج والفرح»(٤٨)

ومن الطرائف أن نجم الدين كبرى هذا زاد على الآخرين حيث بيّن ألوان الصوف الذي يلبسه الصوفية على اختلاف أوصافهم وأحوالهم فقال:

«إن الذي قهر نفسه وقتلها بسيف المجاهدة والمكابدة، وجلس في مآتم النفس، عليه أن يلبس الصوف الأسود، وان كان تائبا عن المخالفات وغسل ملبوس عمره بصابون الانابة والرياضة. ونقى صحيفة قلبه عن ذكر الغير فعليه الصوف الأبيض، وإن كان من الذين أجتازوا العالم السفلى، ووصل العالم العلوى بهمته

---

(٤٥) «عوارف المعارف» للسهروردى عبد القاهر بن عبد الله ص٥٩ إلى ٦٣ ط دار الكتاب العربى بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

(٤٦) انظر لذلك كتاب «أوراد الأحباب وفصوص الآداب» لأبي المفاخر يحيى الباخرزى المتوفي ٧٣٦هـ ج٢ ص١٤ باهتمام أفشار ط. طهران ١٩٦٦م.

(٤٧) هو أبو عبد الله أحمد بن عمر بن محمد بن عبد الله خوارزمى المشهور بنجم الدين كبرى الملقب بالطامة الكبرى المتوفى ٦١٨هـ وله مؤلفات كثيرة في اللغة الفارسية واللغة العربية.

(٤٨) «آداب الصوفية» لنجم الدين كبرى (فارسى) ص٢٨ ط كتاب فرشى زوار هجرى قمرى ايران

فعليه أن يلبس الصوف الأزرق، لأنه لون السماء»[٤٩].

ويترشح أيضا من كلام أبي طالب المكي[٥٠] في قوته بأنه أيضا من الذين يرجحون اشتقاقه من الصوف، حيث يورد رواية مكذوبة على رسول الله ﷺ أنه قال:

ألبسوا الصوف، وشمروا، وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء»[٥١].

ولكن القشيري أبا القاسم عبد الكريم[٥٢] ردّ على هذا الرأي وذاك، حيث قال في رسالته:

«فأما قول من قال: إنه من الصوف، ولهذا يقال: تصوّف إذا لبس الصوف كما يقال: تقمّص اذا لبس القميص، فذلك وجه. ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

ومن قال: انهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ، فالنسبة إلى الصفة لاتجيء على نحو الصوفي.

ومن قال: إنه مشتق من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة.

وقول من قال: انه مشتق من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف»[٥٣].

وأما الصوفي الفارسي عبد الرحمن الجامي المتوفي ٨٩٨هـ فلقد ذكر في نفحاته أنه مأخوذ من الاستصفاء، مستدلاً بكلام الصوفي المشهور عبد الله بن خفيف أنه

---

(٤٩) نفس المصدر.

(٥٠) هو أبو طالب محمد بن أبي الحسن علي بن عباس المكي، قيل فيه: هو شيخ الصوفية وأهل السنة، المتبحر في التفسير وغيره من أهل العلم وله تفسير كبير، وكتابه «قوت القلوب» كتاب جليل (الصفحة الأولى من كتابه) توفي سنة ٣٨٦هـ ببغداد.

(٥١) «قوت القلوب» لأبي طالب المكي ج٢ ص١٦٧ ط المطبعة الميمنية مصر ١٣١٠هـ.

(٥٢) هو أبو القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري الشافعي قيل فيه: هو الإمام مطلقا، الفقيه، المتكلم، الأصولي، المفسر، الأديب... لسان عصره، وسر الله في خلقه، مدار الحقيقة، وعين السعادة، وقطب السيادة، من جمع بين الشريعة والحقيقة (مقدمة كتاب الرسالة القشيرية ص١٥)، وقال عنه أبو الحسن الباخرزي: لو ارتبط ابليس في مجلسه لتاب (دمية القصر)، توفي سنة ٤٦٥هـ.

(٥٣) الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري ج٢ ص٥٥٠ ط مطبعة حسان القاهرة ١٩٧٤.

قال: الصوفي من استصفاء الحق لنفسه تودّداً»[٥٤].

وقريباً من ذلك قال قبله صوفي فارسي آخر، وهو عبد العزيز بن محمد النسفي: إن التصوف مأخوذ من الصفوة[٥٥].

ولقد ذكر في أصل التصوف واشتقاقه أقوال أخرى، منها ما ذكرها الامام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى، والامام ابن تيمية، عند ذكرهما التصوف والصوفية، واللفظ للأول:

«قد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة. وإنما ذهبوا إلى هذا لأنهم رأوا أهل الصفة على ما ذكرنا من صفة صوفة في الانقطاع إلى الله عز وجل وملازمة الفقر فإن أهل الصفة كانوا فقراء يقدمون على رسول الله ﷺ وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله ﷺ وقيل أهل الصفة. والحديث بإسناد عن الحسن. قال بنيت صفة لضعفاء المسلمين فجعل المسلمون يوصلون إليها ما استطاعوا من خير. وكان رسول الله ﷺ يأتيهم فيقول: السلام عليكم يا أهل الصفة. فيقولون: وعليك السلام يا رسول الله. فيقول كيف أصبحتم. فيقولون بخير يا رسول الله. وبإسناد عن نعيم بن المجمر عن أبيه عن أبى ذر قال كنت من أهل الصفة وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل فيبقى من بقى من أهل الصفة عشرة أو أقل فيؤتى النبى ﷺ بعشائه فنتعشى فإذا فرغنا قال رسول الله ﷺ. ناموا في المسجد.

قال المصنف: وهؤلاء القوم إنما قعدوا في المسجد ضرورة. وإنما أكلوا الصدقة ضرورة. فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال وخرجوا، ونسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صفي، وقد ذهب إلى أنه من الصوفانة وهي بقلة رعناء قصيرة. فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء وهذا أيضا غلط لأنه لو نسبوا إليها لقيل صوفاني. وقال آخرون هو منسوب إلى صوفة القفا. وهي الشعرات النابتة في مؤخرة كأن الصوفي عطف به إلى الحق وصرفه عن الخلق»[٥٦].

---

(٥٤) نفحات الأنس (الفارسي) للجامي ص١٢ ايران ١٣٣٧ هجرى شمسى.

(٥٥) كشف الحقائق لعبد العزيز النسفي بتحقيق وتعليق الدكتور أحمد مهدوى ص١٢٠ ط طهران ١٣٥٩هجرى قمرى.

(٥٦) تلبيس ابليس لابن الجوزى المتوفى ٥٩٧ ص١٥٧ دار القلم بيروت، أيضا الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ط دار الفتح القاهرة ١٩٨٤م، أيضا تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية صادق نشأت ص٦٠، ٦١ ط مكتبة النهضة المصرية.

وقيل: ان أصل التصوف منسوب إلى صوفة، فيقول ابن الجوزى:

قال أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ: قال: سألت وليد بن القاسم: إلى أى شيىء ينسب الصوفي.

فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة، انقطعوا إلى الله عز وجل، وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية، قال عبد الغني: فهؤلاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر بن أخى تميم بن مر»(٥٧).

وبمثل ذلك ذكره أهل اللغة والمعاجم(٥٨).

وهناك البعض الآخرون من المتقدمين والحديثين أدلوا بدلوهم، وأبدوا رأيهم في هذا، فمن المتقدمين البيروني أبو الريحان المتوفي سنة ٤٤٠هـ، الذي نسب التصوف إلى سوفيا اليونانية، معناها الحكمة، فلقد لخص كلامه صادق نشأت نقلا عن كتابه (ذكر ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة)، وهذا نصه:

«إن قدماء اليونان أى الحكماء السبعة مثل سولن الأثيني وطاليس المالطى كانوا يعتقدون قبل تهذيب الفلسفة بعقيدة الهنود، بأن الأشياء انما هي شيىء واحد وكانوا يقولون ليس للانسان فضل على الجماد والنبات إلا بسبب القرب إلى العلة الأولية في الرتبة، وكان بعضهم يعتقد أن الوجود الحقيقى هو العلة الأولى نفسها لأنها غنية بذاتها وما سواها محتاج في الوجود إلى الغير فوجودها في حكم الخيال والحق هو الواحد الأول فقط، ويقول في أعقاب هذا التفصيل. وهذا رأى السوفية وهم الحكماء، فان «سوف» باليونانية «الحكمة» وبها سمى الفيلسوف «بيلاسوبا» أى محب الحكمة، ولما ذهب في الاسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم، ولم يعرف بعضهم اللقب فنسبهم للتوكل إلى الصفة وأنهم أصحابها في عصر النبي ﷺ، ثم صحف بعد ذلك فصير من صوف التيوس وعدل أبو الفتح البستى عن ذلك أحسن عدول في قوله:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... قدما وظنوه مشتقا من الصوفى
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

وكذلك ذهبوا إلى أن الموجود شيىء واحد وأن العلة الأولى تتراءى فيه بصور

(٥٧) تلبيس ابليس لابن الجوزى الباب العاشر ص ١٥٦.

(٥٨) انظر لسان العرب لابن منظور الأفريقى ج٩ ص٢٠٠ ط دار صادر بيروت، والقاموس المحيط للفيروز أبادى ج٣ ص١٦٩ ط مصطفى البابى الحلبى، أيضا أساس البلاغة للزمخشرى ص٢٦٢ ط احياء المعاجم العربية القاهرة.

مختلفة وتحل قوتها في أبعاضه بأحوال متباينة توجب التغاير مع الاتحاد، فكان فيهم من يقول أن المنصرف بكليته إلى العلة الأولى متشبها بها على غاية امكانه يتحد بها عند ترك الوسائل وخلع العلائق والعوائق وهذه آراء يذهب إليها الصوفية لتشابه الموضوع وكانوا يرون في الأنفس والأرواح أنها قائمة بذواتها قبل التجسد بالأبدان معدودة مجندة تتعارف وتتناكر»[٥٩].

وبهذا القول قال فون هامر المستشرق الألماني، وعبد العزيز اسلامبولى، ومحمد لطفى جمعة من الحديثين[٦٠].

بسبب المشابهة الصوتية بين كلمة (صوفى) والكلمة اليونانية (صوفيا)، وكذلك لوجه الشبه الموجود بين كلمة (تصوف) و(تيوصوفيا)، وأن كلمتى صوفى وتصوف أخذتا من الكلمتين اليونانيتين (سوفيا) و(تيوسوفيا) إلا أن نولدكه أثبت خطأ هذا الزعم كما أيده في ذلك نيكلسون، وماسينيون، وبالاضافة إلى البراهين القوية الأخرى التي أقامها نولدكه، فإنه يدلل على أن (س) اليونانية نقلت إلى العربية كما هى سينا، لا صادا كما أنه لا يوجد في اللغة الآرامية كلمة تعدّ واسطة لانتقال سوفيا إلى صوفى»[٦١].

فهذا هو الاختلاف الواقع فى أصل لفظة التصوف واشتقاقها، ولذلك اضطر الصوفى القديم علىّ الهجويرى المتوفى سنة ٤٦٥هـ إلى أن يقول:

«إن اشتقاق هذا الاسم لايصح من مقتضى اللغة في أىّ معنى، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتق منه»[٦٢].

وبمثل ذلك قال القشيرى في رسالته:

«ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق»[٦٣].

كما أنه مما لاشك فيه أنه لايصح ولا يستقيم اشتقاقه من حيث اللغة إلا من

---

(٥٩) الكتاب المذكور ص١٦ ط ليبزيك نقلا عن تاريخ التصوف في الإسلام ترجمة عربية لصادق نشأت ص٦٧، ٦٨.

(٦٠) انظر التصوف الإسلامى في الأدب والأخلاق لزكى مبارك ج١ ص٥١ ط دار الجيل لبنان، أيضا أبحاث في التصوف للدكتور عبد الحليم محمود ص١٥٣.

(٦١) انظر تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية ص٦٧، ٦٨.

(٦٢) كشف المحجوب للهجويرى ترجمة عربية دكتورة اسعاد عبد الهادى قنديل ص٢٣٠ ط دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠م.

(٦٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيرى ج٢ ص٥٥٠ دار الكتب الحديثة القاهرة.

الصوف، ولو أنه هو اختيار الكثيرين من الصوفية وغيرهم كالطوسى، وأبى طالب المكى، والسهروردى وأبى المفاخر يحيى باخرزى، وابن الجوزى، وابن تيمية، وابن خلدون من المتقدمين.

والاستاذ مصطفى عبد الرزاق، والدكتور زكى مبارك، والدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور قاسم غنى، ومن المستشرقين مرجليوس، ونيكلسون، وماسينيون، ونولدكه وغيرهم من المتأخرين، مع انكار ذلك من أعلام الصوفية وأقطابها كما مرّ سابقا.

ومن الطرائف أن الدكتور زكى مبارك استشهد القشيرية على ردّ من جعل اشتقاق التصوف من الصفاء بالقشيرى، واستند إلى قوله قائلا:

«وقد استبعد ذلك القشيرى وهو من أقطاب الصوفية»(٦٤).

مع أنه هو نفسه يرد بعد أسطر من هذا الاستشهاد والاستناد رأيه في الموضوع بأن التصوف مأخوذ من الصوف، مع أن القشيرى ردّ على هذا كما ردّ على ذلك.

وأطرف من ذلك أن السراج الطوسى من متقدمى الصوفية هو الآخر من يرجح نسبة التصوف إلى الصوف كما مرّ سابقا، ولكنه نفسه يردّ كلامه حيث يذكر عن يحيى بن معاذ الرازى أنه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره، ثم كان في آخر عمره يلبس الخز والالين . . . وأن أبا حفص النيسابورى كان يلبس قميصا خزا وثيابا فاخرة، ثم ذكر: وآداب الفقراء في اللباس أن يكونوا مع الوقت إذا وجدوا الصوف أو اللبدة أو المرقعة لبسوا، وإذا وجدوا غير ذلك لبسوا»(٦٥).

هذا ومثل هذا كثير في كتب الآخرين من الصوفية المتقدمين منهم والمتأخرين. ولا بأس بنقل عبارات مختصرة عن مصطفى عبد الرزاق حيث يقول:

أما أصل هذا التعبير فالأقاويل فيه كثيرة:

فمن مرجح أنه لفظ جامد غير مشتق كالقشيرى.

ومن قائل: أنه مشتق من الصفاء أو الصفو.

ومن قائل: أن اللفظ مأخوذ من الصوف لأن لباس الصوف كان يكثر في الزهاد.

---

(٦٤) التصوف الإسلامى في الأدب والأخلاق للدكتور زكى مبارك ج١ ص٥١.
(٦٥) انظر اللمع للطوسى ص ٢٤٩.

وقـال قائلون: إن الصـوفيـة نسبـة إلى الصفـة التي ينسب إليهـا كثير من الصحابة. . . لكن النسبة إلى الصفة لاتجيء على الصوفي، بل على الصفي.

وثم أقوال ضعيفة أخرى، كالقول بأن الصوفي نسبة إلى الصف الأول، لأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة والمناجاة.

وكالقول بأنهم منسوبون إلى صوفة القفا.

أو منسوبون إلى صوفة بن مروان.

وأرجـح الأقـوال وأقـربهـا إلى العقـل مذهب القـائلين بأن الصـوفي نسبة إلى الصوف، وأن المتصوف مأخوذ منه أيضا، فيقال: تصوّف إذا لبس الصوف»(٦٦).

وأظنّ أن هذا الـذى أوقـع أحـد الكتّـاب في التصـوف في بحار الحيرة، وجعله مضطـرا إلى أن يردد بعـد ملاحظـة هذه الاختلافات الكثيرة في أصل كلمة التصوف واشتقاقها، ونقل أقوالهم فيه.

«هـذا معنـاه أن الصـوفيـة يوصـدون البـاب حتى أمـام من يسألهم عن معنى اسمهم. . وهـذا دليـل على أمـر من أمـور ثلاثـة، أمـا أن التصوف سر، وأما أنه أمر خلافي بحت، وامـا أنـه متعـدد الجوانب كالفن الغنى، وسوف نترك للقارىء أن يجد الجواب بنفسه»(٦٧).

---

(٦٦) التضوف لمصطفى عبد الرزاق ص٥٧ إلى ٦٢ ط دار الكتاب اللبنانى بيروت.

(٦٧) بحار الحب عند الصوفية لأحمد بهجت ص٣٢ ط المختار الإسلامى القاهرة.

# تعريف التصوف

ولا يقل اختلاف الصوفية في اختلاف تعريف التصوف عن اختلافهم في أصله واشتقاقه، بل ازدادوا تعارضا وتناقضا فيه كثيرا، ولقد ذكر صوفى فارسى قطب الدين أبو المظفر منصور بن أردشير السنجى المروزى المتوفى سنة ٤٩١هـ أكثر من عشرين تعريفا[٦٨].

وكذلك السراج الطوسى[٦٩].

والكلاباذى[٧٠].

والسهروردى[٧١].

وابن عجيبة الحسنى[٧٢].

وأما القشيرى فلقد ذكر في رسالته أكثر من خمسين تعريفا من الصوفية المتقدمين[٧٣]. كما ذكر المستشرق نيكلسون ثمانية وسبعين تعريفا[٧٤].

وليس معنى ذلـك أن هذا العـدد هو الأخـير في تعـريف التصـوف، بل ذكـر السراج في لمعه أن تعريفاته تتجاوز مائة تعريف[٧٥].

وقال السهروردى: «وأقوال المشائخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول»[٧٦].

---

(٦٨) انظر مناقب الصوفية فارسى ص٣١ وما بعد باهتمام محمد تقى دانش بيوه وايرج أفشار ط طهران ١٣٦٢ هجرى قمرى.

(٦٩) انظر اللمع للطوسى ص٤٥ وما بعد.

(٧٠) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٨ وما بعد.

(٧١) انظر عوارف المعارف ص٥٣ وما بعد.

(٧٢) انظر ايقاظ الهمم ص٤ وما بعد.

(٧٣) انظر الرسالة القشيرية ج٢ ص٥٥١ وما بعد.

(٧٤) انظر في التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة عربية للدكتور أبي العلاء العفيفى ص٢٨ وما بعد ط القاهرة.

(٧٥) كتاب اللمع للطوسى ص٤٧.

(٧٦) عوارف المعارف للسهروردى ص٥٧، أيضا نشر المحاسن الغالية لليافعى ج٢ ص٣٤٣.

وقال الحامدى: «الأقوال المأثورة في التصوف قيل: انها زهاء ألفين»[٧٧].

ونختـار من هذه التعـريفـات الكثـيرة بعضها نموذجا للقراء والباحثين، فينقل السراج الطوسى أن الجنيد سئل عن التصوف، فقال: «أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة».

وقال سمنون في جواب سائل سأله: أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء.

وقيل لأبي الحسين أحمد بن محمد النورى: من الصوفى؟.

فقال: من سمع السماع وآثر بالأسباب»[٧٨].

وينقل القشيرى عن الجنيد أنه قال: «التصوف عقدة لا صلح فيها».

وأيضا: هم أهل بيت واحد لا يدخل فيه غيرهم.

وعن أبى حمزة البغدادى أنه قال: علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العز، ويخفى بعد الشهرة.

وعن الشبلى أنه قال: التصوف برقة محرقة.

وعنه أنه قال: التصوف هو العصمة عن رؤية الكون»[٧٩].

ونقل منصور بن أردشير عن الحسين بن المنصور أنه قال في جواب من سأله عن الصوفي: هو وحدانى الذات لايقبله أحد، ولايقبل أحدا»[٨٠].

ونقل محمد بن إبراهيم النفزى الرندى عن أحد الصوفية: أن الصوفي من كان دمه هدرا، وملكه مباحا»[٨١].

وذكـر السلمى عن أبى محمـد المـرتعش النيسـابـورى أنه سئل عن التصوف، فقال: الاشكال والتلبيس والكتمان.

وذكر عن أبى الحسين النورى أنه قال: التصوف ترك كل حظ النفس»[٨٢].

---

(٧٧) الإنسان والإسلام لمحمد طاهر الحامدى نقلا عن مقدمة التعرف لمذهب أهل التصوف، لمحمود النواوى ص١١.

(٧٨) اللمع للطوسى ص٤٧ وما بعد.

(٧٩) الرسالة القشيرية ج٢ ص٥٥٠ وما بعد.

(٨٠) مناقب الصوفية لمنصور بن أردشير ص٣٣.

(٨١) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية للنفزى الرندى ج١ ص٢٠٣ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمد بن الشريف ط دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٧٠م.

(٨٢) طبقات السلمى ص٣٨.

ونقل الكلاباذى وعبد السلام الأسمر الفيتورى عن الجنيد أنه سئل عن التصوف، فقال:

تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية.

وذكر عن سهل بن عبد الله التسترى أنه سأله رجل: من أصحب من طوائف الناس؟.

فقال عليك بالصوفية، فإنهم لايستكثرون، ولا يستنكرون شيئا، ولكل فعل عندهم تأويل، فهم يعذرونك على كل حال.

وعن يوسف بن الحسين أنه قال:

سألت ذا النون: من أصحب؟ فقال: من لايملك، ولا ينكر عليك حالا من أحوالك، ولا يتغير بتغيرك وإن كان عظيما، فانك أحوج ما تكون إليه أشد ما كنت تغيرا»[٨٣].

وذكر الهجويرى أن الصوفى هو الفانى عن نفسه، والباقى بالحق قد تحرر من قبضة الطبائع، واتصل بحقيقة الحقائق.

ونقل عن الجنيد أنه قال: التصوف نعت أقيم العبد فيه، قيل: نعت للعبد أو نعت للحق؟.

فقال: نعت الحق حقيقة، ونعت العبد رسما.

وعن الشبلى أنه قال: التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن الغير، ولاغير»[٨٤].

وذكر عبد الرحمن الجامى أن الصوفى هو الخارج عن النعوت والرسوم. ونقل عن أبى العباس النهاوندى أنه قال: التصوف بدايته الفقر»[٨٥].

وذكر العطار عن أبى الحسن الخرقانى أنه قال: «ان التصوف عبارة عن الجسم الميّت والقلب المعدوم والروح المحرقة.

---

(٨٣) التعرف للكلاباذي ص٣٤، ٣٥، أيضا الوصية الكبرى لعبد السلام الأسمر الفيتورى ص٣٧ ط مكتبة النجاح طرابلس ليبيا الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.

(٨٤) انظر كشف المحجوب للهجويرى ص ٢٣١ وما بعد.

(٨٥) نفحات الأنس للجامى (فارسى) ص١٢.

وأنــه قال:

ان الخلق كله مخلوق، والصـوفى غير مخلوق، لأنـه معـدوم، أوأن الصوفى من عالم الأمر، لا من عالم الخلق»(٨٦).

ونقل العطار أيضا عن الجنيد أنه قال:

«الصـوفى هو الـذى سلم قلبـه كقلب إبـراهيم من حبّ الـدنيا، وصار بمنزلة الحـامـل لأوامر الله، وتسليمه تسليم إسماعيل، وحزنه حزن داود، وفقره فقر عيسى، وصبره صبر أيوب، وشوقه شوق موسى وقت المناجاة، واخلاصه اخلاص محمد»(٨٧).

وقال الصوفى الهندى فريد الدين الملقب بكنج شكر: «إن التصوف أن لا يبقى في ملكك شىء، ولا يبقى وجودك في مكان.

وقال: ان أهل التصوف يقيمون صلواتهم على العرش يوميا.

وقال: ان الصوفى من لا يخفى على قلبه شىء»(٨٨).

فهذه هى تعريفات التصوف والصوفية لدى أعلام الصوفية وأقطابهم أنفسهم، نقلناها من كتبهم، تضاربت فيها آراء القوم، وتعارضت فيها أقوالهم، لاجمع بينها ولا وفاق رغم ما ادعاه بعض المتأخرين، وحاولوا التوفيق ولكن دونه خرط القتاد، لأن كل تعـريف مستقـل عن التعـريف الآخـر، وحتى التعـريفات العديدة التي صدرت عن شخص واحـد تبـاعـد بعضها عن بعض كل البعد وهذا التباعد ظاهر جليّ لكل من نظر فيها وقرأها قراءة تأمل وتدبر، وتحقق وتعمق.

ويجدر الاشارة ههنا إلى أن تعريفات التصوف المتعددة التي ذكرناها واخترناها من تعـريفـات كثيرة جدا تنبىء صراحة عن حقيقة ادعاء علاقة التصوف بالاسلام، وكونه روحه وعصارته(٨٩).

الأمر الذي سوف يفصل الكلام فيه، في الأبواب القادمة إن شاء الله تعالى.

---

(٨٦) تذكـرة الأوليـاء للعطـار ص٢٨٨ ومـا بعـد ط باكستـان، أيضـا أحـوال وأقوال شيخ أبي الحسن الخرقانى (فارسى) الطبعة الثالثة ١٣٦٣ هجرى قمرى ايران.

(٨٧) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار (أردو) تحت ذكر الجنيد ص١٩٢ ط باكستان.

(٨٨) أسرار الأولياء ص١٢٨، ١٢٩ ط باكستان.

(٨٩) انظر الإنسان والإسلام لمحمد طاهر الحامدى، ومقدمة التعرف لمحمود أمين النواوى.

# بدء التصوف وظهوره

إن الناس اختلفوا في بدء ظهور هذه الكلمة واستعمالها كاختلافهم في أصله وتعريفه، فذكر ابن تيمية وسبقه ابن الجوزى وابن خلدون في هذا أن لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالامام أحمد بن حنبل، وأبى سليمان الدارانى وغيرهما، وقد روى عن سفيان الثورى أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصرى[٩٠].

وقال السراج الطوسى في الباب الذى خصصه للرد على من قال: لم نسمع بذكر الصوفية في القديم وهو اسم مستحدث: يقول في هذا الباب:

«إن سأل سائل فقال: لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم أجمعين، ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العبَّاد والزُّهاد والسيَّاحين والفقراء، وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ: صوفى، فنقول وبالله التوفيق.

الصحبة مع رسول الله ﷺ لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة، وذلك لشرف رسول الله ﷺ وحرمته، ألا ترى أنهم أئمة الزهاد والعبَّاد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله ﷺ، فلما نسبوا إلى الصحبة والتي هي أجلُّ الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال وبالله التوفيق.

وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال، لأن في وقت الحسن البصرى رحمه الله كان يعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم، وقد رُوى عنه أنه قال: رأيت صوفيًّا في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معى أربعة دوانيق يكفيني ما معي.

---

(٩٠) الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٥ ط القاهرة، أيضا مقدمة ابن خلدون ص٤٦٧، تلبيس ابليس لابن الجوزى ص١٥٧ ط دار القلم بيروت لبنان.

ورُوى عن سفيان الثورى رحمه الله أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء، وقد ذكر في الكتاب الذي جُمع فيه أخبار مكة عن محمد بن اسحاق بن يسار، وعن غيره يذكر فيه حديثاً: أنه قبل الاسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفىّ فيطوف بالبيت وينصرف، فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم»[٩١].

وبمثل ذلك قال السهروردى: «وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، وقيل: كان في زمن التابعين ـ ثم نقل عن الحسن البصرى ما نقلناه عن الطوسى أيضاً ـ ثم قال: وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية»[٩٢].

وصرح عبد الرحمن الجامى:

«ان أبا هاشم الكوفى أول من دعى بالصوفى، ولم يسمّ أحد قبله بهذا الاسم، كما أن أول خانقاه بنى للصوفية هو ذلك الذى في رملة الشام، والسبب فى ذلك أن الأمير النصرانى كان قد ذهب للقنص فشاهد شخصين من هذه الطائفة الصوفية سنح له لقاؤهما وقد احتضن أحدهما الآخر وجلسا هناك، وتناولا معا كل ما كان معهما من طعام، ثم سارا لشأنهما، فسرّ الأمير النصرانى من معاملتهما وأخلاقهما، فاستدعى أحدهما، وقال له: من هو ذاك؟.

قال: لا أعرفه، قال: وما صلتك به؟.

قال: لاشيء. قال: فمن كان؟.

قال لا أدرى، فقال الأمير: فما هذه الألفة التي كانت بينكما؟.

فقال الدرويش: ان هذه طريقتنا، قال: هل لكم من مكان تأوون إليه؟.

قال: لا، قال: فإنى أقيم لكما محلا تأويان إليه، فبنى لهما هذه الخانقاه فى الرملة»[٩٣].

وأما القشيرى فقال:

---

(٩١) اللمع للطوسى ص٤٢، ٤٣، أيضا الفتوحات الإلهية لابن عجيبة الحسنى ص٥٣ ط عالم الفكر القاهرة.

(٩٢) عوارف المعارف للسهروردى ص ٦٣.

(٩٣) نفحات الأنس للجامى الطبعة الفارسية ص٣١، ٣٢ ط ايران.

اشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة»[٩٤].

وأما الهجويري فلقد ذكر أن التصوف كان موجودا في زمن رسول الله ﷺ، وباسمه، واستدل بحديث موضوع مكذوب على رسول الله ﷺ أنه قال: «من سمع صوت أهل التصوف، فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين»[٩٥].

مع أنه نفسه كتب في نفس الباب في آخره شارحا كلام أبي الحسن البوشنجي **«التصوف اليوم اسم بلا حقيقة، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم»، فكتب تحته** موضّحا:

**« يعنى أن هذا الاسم لم يكن موجودا وقت الصحابة والسلف، وكان المعنى موجودا في كل منهم، والآن يوجد الاسم، ولايوجد المعنى»**[٩٦].

وأما المستشرقون الذين كتبوا عن التصوف، ويعدّون من موالى الصوفية وأنصارهم، فمنهم نيكلسون فانه يرى مثل ما يراه الجامى أن لفظة التصوف أطلقت أول ما أطلقت على أبى هاشم الكوفى المتوفي سنة ١٥٠هـ[٩٧].

ولكن المستشرق الفرنسي المشهور ماسينيون يرى غير ذلك، فيقول:

ورد لفظ الصوفى لأول مرة في التاريخ في النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى اذ نعت به جابر بن حيان، وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل الكوفة، له في الزهد مذهب خاص، وأبو هاشم الكوفى الصوفى المشهور.

أما صيغة الجمع (الصوفية) التى ظهرت عام ١٨٩هـ (٨١٤م) في خبر فتنة قامت بالأسكندرية فكانت تدل قرابة ذلك العهد على مذهب من مذاهب التصوف الاسلامي يكاد يكون شيعيا نشأ في الكوفة، وكان عبدك الصوفى آخر أئمته، وهو من القائلين بأن الامامة بالارث والتعيين، وكان لايأكل اللحم، وتوفى ببغداد حوالى عام ٢١٠هـ.

واذن فكلمة صوفى كانت أول أمرها مقصورة على الكوفة»[٩٨].

---

(٩٤) الرسالة القشيرية ج١ ص٥٣ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود الشريف، أيضا جمهرة الأولياء للمنوفى الحسينى ج١ ص١٦٩ ط مؤسسة الحلبى القاهرة.

(٩٥) كشف المحجوب للهجويرى ترجمة عربية ص ٢٢٧.

(٩٦) أيضا ص ٢٣٩.

(٩٧) انظر في التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون ترجمة عربية لأبي العلاء العفيفى ص٣ ط القاهرة.

(٩٨) دائرة المعارف الإسلامية اردو ج٦ ص٤١٩ ط جامعة بنجاب باكستان، أيضا دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية مادة تصوف ج٥ ص٢٦٦.

وقال أيضا :

صاحب عزلة بغدادى، وهو أول من لقب بالصوفى، وكان هذا اللفظ يومئذ يدل على بعض زهاد الشيعة بالكوفة، وعلى رهط من الثائرين بالأسكندرية، وقد يعدّ من الزنادقة بسبب امتناعه عن أكل اللحم، ويريد الأستاذ أول من لقب بالصوفى في بغداد كما يؤخذ مما نقله عن الهمذانى، ونصه :

ولم يكن السالكون لطريق الله في الأعصار السالفة والقرون الأولى يعرفون باسم المتصوفة، وانما الصوفى لفظ اشتهر فى القرن الثالث، وأول من سمى ببغداد بهذا الاسم عبدك الصوفى، وهو من كبار المشائخ وقدمائهم، وكان قبل بشر بن الحارث الحافى والسرى بن المفلس السقطى»[٩٩].

والجدير بالذكر أن هؤلاء الثلاثة الذين يقال عنهم بأنهم أول من سمّوا بهذا الاسم، وتلقبوا بهذا اللقب مطعونون في مذاهبهم وعقائدهم، ورمى كل واحد منهم بالفسق والفجور وحتى الزندقة، وخاصة جابر بن حيان، وعبدك كما سيأتى ذلك مفصلا في محلّه من الكتاب إن شاء الله.

وقد سبق كلام شيخ الاسلام ابن تيمية حيث قال : «إن لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة، وانما اشتهر التكلم به بعد ذلك»[١٠٠].

وبمثل ذلك قال ابن خلدون[١٠١].

فخلاصة الكلام أن الجميع متفقون على حداثة هذا الاسم، وعدم وجوده في عهد رسول الله ﷺ وأصحابه والسلف الصالحين.

نعم، كان رسول الله ﷺ أزهد خلق الله في الدنيا وزخارفها، وأصحابه على سيرته وطريقته، يعدّون الدنيا وما فيها لهوا ولعبا، زائلة فانية، والأموال والأولاد فتنة ابتلى المؤمنون بها، فلم يكونوا يجعلون أكبر همهم إلّا ابتغاء مرضاة الله، يرجون لقاءه وثوابه، ويخافون غضبه وعقابه، آخذين من الدنيا ما أباح الله لهم أخذه، ومجتنبين عنها ما نهى الله عنه، سالكين مسلك الاعتدال، منتهجين منهج المقتصد، غير باغين ولا عادين، مفرطين ولا متطرفين، وعلى رأسهم بعد رسول الله ﷺ الخلفاء الراشدون،

---

(٩٩) التصوف لماسينيون ومصطفى عبد الرزاق ص٥٥، ٥٦ ط دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٤م، أيضا تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية لصادق نشأت ص ٦٤ ط مكتبة النهضة المصرية القاهرة.

(١٠٠) انظر الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٥.

(١٠١) انظر مقدمة ابن خلدون ص٤٧٦.

وبقية العشرة المبشرة، ثم البدريون، ثم أصحاب بيعة الرضوان، ثم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ثم عامة الأصحاب، على ترتيب الأفضلية كما مرّ سابقا في الفصل الأول من هذا الباب.

وتبعهم في ذلك التابعون لهم باحسان، واتباع التابعين، أصحاب خير القرون، المشهود لهم بالخير والفضيلة، ولم يكن لهؤلاء كلهم في غير رسول الله أسوة ولاقدوة، الذى قال فيه جل وعلا:

**﴿ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدّث﴾**(١٠٢).

والذى إذا وجد طعاما فأكل وشكر، وإذا لم يجد فرضى وصبر، وأحبّ لبس الثياب البيض، واكتسب جبّة رومية، ونهى عن التصدق بأكثر من ثلث المال، وأمر بحفظ حقوق النفس والأهل والولد، ونهى عن تعذيب النفس واتعاب الجسد فوق الطاقة، وكما أنه نهى هو نفسه عن قيام الليل كله، لإراحة الجسد والبدن، وحرّض متبعيه على طلب الحلال، وطلب الحسنات في الدنيا والآخرة، ومنع الله تعالى من التعنت والتطرف في ترك الدنيا وطيباتها في آيات كثيرة في القرآن الكريم، سنوردها في موضعها من الكلام إن شاء الله.

ثم خلف من بعدهم خلف فتطرفوا، وذهبوا بعيدا في نعيم الدنيا وزخارفها، وفتحت عليهم أبواب الترف والرخاء، ودرّت عليهم الأرض والسماء، وأقبلت عليهم الدنيا بكنوزها وخزائنها، وفتحت عليهم الآفاق، فانغمسوا في زخارفها وملذاتها، وبخاصة العرب الفاتحون الغزاة، والغالبون الظاهرون، فحصل ردّ الفعل، وفي نفوس المغلوبين المغزوين والمقهورين، من الموالى والفرس والمفلسين وأصحاب النفوس الضعيفة المتوانية خاصة، فهربوا عن الحياة ومناضلتها، وجدّها وكدّها، ولجأوا إلى الخانقاوات والتكايا والزوايا والرباطات، فرارا من المبارزة والمناضلة، وصبغوا هذا الفرار والانهزام وردّ الفعل صبغة دينية، ولون قداسة وطهارة، وتنزه وقرابة، كما كان هنالك أسباب ودوافع ومؤثرات أخرى، وكذلك أيدى خفية دفعتهم إلى تكوين فلسفة جديدة للحياة، وطراز آخر من المشرب والمسلك، وأسلوب جديد للعيش والمعاش، فظهر التصوف بصورة مذهب مخصوص، وبطائفة مخصوصة.

---

(١٠٢) سورة الضحى من الآية ٦ إلى آخر السورة.

اعتنقه قوم، وسلكه أشخاص ساذجون بدون تفكير كثير، وتدبر عميق كمسلك الزهد، ووسيلة التقرب إلى الله، غير عارفين بالأسس التى قام عليها هذا المشرب، والقواعد التى أسس عليها هذا المذهب، بسذاجة فطرية، وطيبة طبيعية، كما تستر بقناعه، وتنقب بنقابه بعض آخرون لهدم الاسلام وكيانه، وإدخال اليهودية والمسيحية في الاسلام، وأفكارهما من جانب، والزرادشتية والمجوسية والشعوبية من جانب آخر، وكذلك الهندوكية والبوذية والفلسفة اليونانية الأفلاطونية من ناحية أخرى، وتقويض أركان الإسلام وإلغاء تعاليم سيد الرسل ﷺ، ونسخ الاسلام وابطال شريعته بنعرة وحدة الوجود، ووحدة الأديان، واجراء النبوة، وترجيح من يسمى بالولى على أنبياء الله ورسله، ومخالفة العلم، والتفريق بين الشريعة والحقيقة، وترويج الحكايات والأباطيل والأساطير، باسم الكرامات والخوارق وغير ذلك من الخرافات والترهات.

فلم يظهر التصوف مذهبا ومشربا، ولم يرج مصطلحاته الخاصة به، وكتبه، ومواجيده وأناشيده، تعاليمه وضوابطه، أصوله وقواعده، وفلسفته، ورجاله وأصحابه إلا في القرن الثالث من الهجرة وما بعده.

وبذلك يقول ابن الجوزى في كتابه تلبيس ابليس:

«كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام. فيقال: مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقا تخلقوا بها - ثم قال: وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع بردّه عن الأخلاق الرذيلة، وجعله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى... وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبّس عليهم ابليس في أشياء، ثم لبس على بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن التالى فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات. فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم. وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع.

وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة. وفيهم من كان لقلّة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي. وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسّماع والوجد والرقص والتصفيق وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة. ثم ما زال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعا ويتكلمون بواقعاتهم. ويتفق بعدهم عن العلماء لابل رؤيتهم ما هم فيه أوفى العلوم حتى سموه العلم الباطن وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر. ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق والهيمان فيه فكأنهم تخايلوا شخصا مستحسن الصورة فهاموا به. وهؤلاء بين الكفر والبدعة ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق. ففسدت عقائدهم. فمن هؤلاء من قال بالحلول ومنهم من قال بالاتحاد. وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سنناً وجاء أبو عبد الرحمن السلمي فصنف لهم كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم. وإنما حملوه على مذاهبهم. والعجب من روعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن. وقد أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن القزاز. قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال لي محمد بن يوسف القطان النيسابوري قال كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة ولم يكن سمع من الأصم إلا شيئاً يسيراً فلما مات الحاكم أبو عبد الله بن البيع حدث عن الأصم بتاريخ يحيى بن معين وبأشياء كثيرة سواه. وكان يضع للصوفية الأحاديث.

وصنف لهم أبو نصر السراج كتاباً سماه لمع الصوفية ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكر منه جملة إن شاء الله تعالى. وصنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الأحاديث الباطلة وما لا يستند فيه من أصل من صلوات الأيام والليالي وغير ذلك من الموضوع وذكر فيه الاعتقاد الفاسد. وردد فيه قول - قال بعض المكاشفين — وهذا كلام فارغ وذكر فيه عن بعض الصوفية إن الله عز وجل يتجلى في الدنيا لأوليائه. أخبرنا أبو منصور القزاز أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال أبو طاهر محمد بن العلاف. قال: دخل أبو طالب المكي إلى البصرة بعد وفاة أبي الحسين بن سالم فانتمى إلى مقالته وقدم بغداد فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ فخلط في كلامه فحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوق أضر من الخالق. فبدعه

الناس وهجروه فامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك قال الخطيب . وصنف أبو طالب المكي كتاباً سماه قوت القلوب على لسان الصوفية وذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة في الصفات .

وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب الحلية . وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسادات الصحابة رضي الله عنهم . فذكر عنهم فيه العجب وذكر منهم شريحاً القاضي والحسن البصري وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وكذلك ذكر السلمي في طبقات الصوفية الفضيل وإبراهيم بن أدهم ومعروفاً الكرخي وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد .

فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما . أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوف على ما سيأتي ذكره وصنف لهم عبد الكريم بن هوزان القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء . والبقاء . والقبض . والبسط . والوقت . والحال . والوجد والوجود . والجمع . والتفرقة . والصحو . والسكر . والذوق . والشرب . والمحو . والإثبات . والتجلي . والمحاضرة والمكاشفة . واللوائح والطوالع . واللوامع . والتكوين . والتمكين والشريعة . والحقيقة . إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه ، وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم صفوة التصوف فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها سنذكر منها ما يصلح ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وكان شيخنا أبو الفضل بن ناصر الحافظ يقول : كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة : قال وصنف كتاباً في جواز النظر إلى المراد أورد فيه حكاية عن يحيى بن معين قال : رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها . فقيل له تصلي عليها فقال صلى الله عليها وعلى كل مليح . قال شيخنا ابن ناصر . وليس ابن طاهر بمن يحتج به ، وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الأحياء على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه . وقال أن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله عز وجل ولم يرد هذه المعروفات . وهذا من جنس كلام الباطنية . وقال في كتابه المفصح بالأحوال . إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء

ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق»(١٠٣).

فهكذا كوّن هذا المذهب، وصار مستقلا بمبادئه وآرائه، له مصادره ومراجعه، تعاليمه، ومناهجه، وسوف نبحث في الباب الذي يليه عن مصادره ومراجعه، تعاليمه ورسومه.

وإلى هنا نأتي إلى آخر هذا الباب.

---

(١٠٣) تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ١٥٦ إلى ١٦٠ ط دار القلم بيروت لبنان.

# مراحل التصوف فى الإسلام

## المرحلة الأولى :

إذا أردنا أن نتحدث عن أولى مراحل التصوف فى الإسلام، نستطيع أن نقول ، إن هذه المرحلة بدأت مع وجود طبقة الصحابة رضوان الله عنهم ، حيث كانوا يرافقون النبى ﷺ ويتعلمون منه، ليقتدوا به فى كل شىء ، وقد تأثروا به فى كثير من الأفعال ، كالزهد والتواضع ، والتخلق بالأخلاق الحسنة ، أمثال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان يرتدى لباس الزهد والورع وترك الدنيا ، وهو فى الوقت ذاته كان يحكم بلادا مترامية الأطراف ، وهناك أمثلة كثيرة لكثير من الصحابة مثل أبى ذر الغفارى ، وحذيفة بن اليمان وصهيب إلى آخره ، ومن بعد الصحابة ، كان التابعون ، ثم من جاء من بعدهم ، وقد أطلق على بعض هؤلاء بالنساك والعباد . وعلى هذا كان التصوف فى أول الأمر طريقة عملية لا مذهبا نظريا ، يقول الجنيد البغدادى : « إننا لم نحصل على هذا التصوف بالقيل والقال ، ولم نحصل عليه بالحرب والقتال ، ولكننا حصلنا عليه بالجوع والسهر والامتناع عن الدنيا ، والانقطاع عما نحبه وعما زين فى أعيننا(١).

وعلى هذا فإن المتصوفين وأئمتهم كانوا مقيدين بأصول الشريعة، وأيضا يرون أن العمل الصادق بأحكام الشرع والإتباع الكامل للشريعة الإسلامية يولدان فى روح الإنسان فوائد خاصة ، وهى الحصول على العقائد المجردة المعقوله .

---

(١) تاريخ التصوف فى الإسلام : قاسم غنى صـ ٣٥ ، نقلا عن تذكرة الأولياء للعطار جـ٢ صـ ٩

ويقول أحد علماء الصوفية وهو أبو الحسين النوري « ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنه أخلاق »(1).

أي أن التصوف إذا كان رسما فإنه يتأتى للإنسان بالمجاهدة، وإذا كان علما فإنه يحصل عليه بالتعلم، ولكنه خلق(2).

ويرى آخر: أن التصوف هو الثبات على الأفعال الحسنة (3).

## متى ظهر اسم التصوف؟

يقول أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي المتوفى عام ٥٩٧ هـ في كتابه « تلبيس إبليس ».

إن هذا الاسم « التصوف » ظهر قبل سنة مائتين، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها:

أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة(4).

وأيضا: يقول ابن الجوزي: كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم

---

(1) انظر طبقات الصوفية « للسلمي ط . مصر ص ١٦٧

(2) تذكرة الأولياء جـ٢ ص ٥٤

(3) تذكرة الأولياء جـ ٢ ص ٦٦ وانظر تاريخ التصوف في الإسلام ص ٤٠

(4) تلبيس إبليس ص ١٧٣، ص ١٧٤

لنا أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا ، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا فى ذلك طريقة تفردوا بها (١) .

وهذه هى المرحلة الأولى للتصوف ، ولم يكن للزهاد فى هذه المرحلة لغة رمزية خاصة بهم ، ولم يضعوا تعبيرات واصطلاحات خاصة بهم ، وأيضا لم يكن لهم اسم خاص بهم ، وأن اسم الصوفى ، وكلمة التصوف والعرفان جاءت من اصطلاحات المراحل التالية(٢) (أى فيما بعد) .

المرحلة الثانية :

قلنا سابقا إن المرحلة الأولى للتصوف الإسلامى بدأت منذ صدر الإسلام حيث كان الصحابة يقتدون برسول الله ﷺ ، فكانوا يفعلون كما كان يفعل عملا بقوله تعالى « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (٣) واستمر أكثرهم على هذا الوضع حتى أخذه عنهم التابعون ونهجوا منهجهم ، حتى انتهى القرن الأول الهجرى والثلث الأول من القرن الثانى . وفى منتصف هذا القرن تقريبا ، أو قبله بقليل ، ظهرت جماعة من المسلمين كانت أحوالهم وسلوكهم تختلف عن عامة الناس ، وأطلق على هؤلاء المسلمين اسم الصوفية ، وذلك لأنهم كانوا يرتدون الملابس الصوفية الخشنة وقد قام بعضهم بإقامة أماكن خاصة بهم يتعبدون .

---

(١) تاريخ التصوف فى الإسلام ص ٤٢

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ ، وانظر أيضا : تلبيس إبليس ص ١٧١

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢١

فيها بعيدا عن الناس واعتكف بعضهم فى المغارات، وأخذت جماعة أخرى تجوب الصحارى (١).

وقد بالغ هؤلاء فى زهدهم ورياضتهم وترك الدنيا عما كان عليه المسلمون فى القرن الأول الهجرى، وقد كان منهم «بشر الحافى» الذى كان يريد أن يخيط نعله عندما بلى، فذهب إلى أحد الناس ليصلحه، ولكن الرجل أغلظ له القول، فلم يعجب بشر بهذا الأسلوب، فتركه ومضى لحاله دون أن يخيطه، وصار حافيا، لم ينتعل نعلا بعد ذلك طوال فترة حياته حتى لا يحتاج إلى أحد من الخلق (٢). وأيضا كان منهم «معروف الكرخى» الذى أوصى وهو فى مرض الموت بثوبه الذى لا يملك غيره إلى فقير حتى يخرج من الدنيا وهو على الصورة التى أتى بها إليها (٣) .

ومن أمثال هؤلاء «مالك بن دينار» الذى أقام بالبصرة أربعين عاما ولم يتناول التمر، وكان حينما ينضج الرطب يقول: ياأهل البصرة اعلموا أن بطنى لم ينقص منه شىء لعدم أكل التمر، وأن بطونكم أنتم الذين تأكلون الرطب كل يوم لم تزد شيئا، كذلك كان بعيدا عن أكل كل ماهو حلو وأيضا لم يذق اللحم (٤) .

وهؤلاء كثيرون، منهم رابعة العدوية ومحمد بن واسع، والحسن البصرى.

وقد كانت معيشة هؤلاء الصوفية تقوم على أمرين :

الأول : التوكل على الله غير المحدود، بدرجة أنه لا يسمح لنفسه أن يطلب من الله تعالى أن يشفيه إذا مرض .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٧ (٢) ابن خلكان جـ ٢ ص ٩٥

(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٢٢٤

(٤) تذكرة الأولياء للشيخ فريد العطار مجلد ١ ص ٤٤

الثانى : الرجاء العظيم بالله الذى تسع رحمته كل شىء.

وقد كان صوفية هذا العهد امتداداً للقرن الأول الهجرى، ومن أجل هذا لم يظهر فى أقوالهم ما ظهر فى القرون التالية، كالحب الإلهى، ووحدة الوجود.

وقيل إن أول من تكلم فى الحب الإلهى من الصوفية، إنما هى رابعة العدوية وكان ذلك فى أواسط القرن الثانى الهجرى(١).

ومن الظواهر التى شاعت منذ أواسط القرن الثانى الهجرى فى التصوف. المبادرة بالهمس بأن روح أحكام الشريعة وباطنها أهم من صورتها وظاهرها، ومما يدل على ذلك ما روى أن رجلا استشار « بشر الحافى » وقال له إننى أملك ألفى درهم أريد تزكيتها لأننى عازم على الحج، فقال له بشر : أنت ذاهب للتفرج، فإذا كنت ذاهباً مرضاة لله فاذهب وأقرضها لشخص أو أعطها ليتيم أو لرجل عالى الوفاض، فإن إراحة قلب مسلم أفضل من مائة حجة. قال الرجل أرى رغبة فى الحج فى نفسى أقوى، فقال بشر، لأنك لم تحصل على هذا المال بطريق حلال، فلذلك لا يستقر لك قرار إلا بصرفه فى غير وجوهه.

وقد ظهرت أشياء كثيرة من صوفية هذا العهد كما ذكرنا، لكنهم كانوا يراعون ظواهر أحكام الشرع ولا يعدهم سائر المسلمين أهل بدعة، وقد كان النساك والعباد فى الفترة الأخيرة من القرن الثانى الهجرى يسمون باسم الصوفية، وكانت طريقتهم تسمى بالتصوف(٢).

---

(١) وقد كتب الشيخ فريد العطار أشياء كثيرة عن أحوال رابعة العدوية فى كتابه ( تذكرة الأولياء ) ح ١ الباب الثامن فارجع إليه إن أردت.

(٢) تاريخ التصوف فى الإسلام — المرجع السابق ص ٤٥ — ٥٧

**المرحلة الثالثة :**

إذا تركنا المرحلة الثانية وبدأنا فى المرحلة الثالثة ، نجد أنها بدأت مع مطلع القرن الثالث الهجرى تقريباً ، حيث قيل إن التصوف اكتمل فى هذا القرن .

ولا شك أن مفهوم التصوف فى أول الأمر ، كان لا يخرج عن حدود القرآن والسنة النبوية ، والتشبه بالرسول ﷺ، حيث كان الزهد والتعبد، وتقديم الآخرة على الدنيا ، ثم توسع هذا المفهوم بالتدرج حتى وصل إلى حد المبالغة ، فاتسعت ساحة التصوف ، وتغير مفهومه تدريجياً ، وتغير تعريفه فى كل عصر ، ووصفه كل شيخ من الصوفية بوصف خاص .

وقد ظهر فى هذا القرن كبار رجال الصوفية مثل معروف الكرخى الذى توفى سنة ٢٠٠ هـ والسرى السقطى الذى توفى سنة ٢٥٣ هـ ، والجنيد البغدادى الذى توفى سنة ٢٩٧ هـ .

وقد كان معروف الكرخى متعبداً زاهداً متواضعاً عازفاً عن الدنيا ، ومع كل هذا يعتمد على أحكام الشرع وشعائره .

وكان السرى السقطى ورعاً زاهداً ، لكنه بالغ فى رياضته وخوفه العظيم من الله ، وكان يرى الرفق بالمخلوقات ، وصفة الإيثار من الأمور الضرورية للنجاة ، وكان يتكلم فى الحقائق والتوحيد والمحبة ، وكان يرى أن الشوق أسمى مراتب العارفين، إلى آخر ما هنالك من رؤية تختلف عما كان عليه معروف الكرخى .

أما الجنيد البغدادى: فقد لقب بسلطان المحققين وأعبد المشايخ؛ حيث كان مظهراً لكمال المعتدل للتصوف ، وقد دخل التصوف معه مرحلة جديدة ، وذلك لأن صوفية هذا القرن قد تجنبوا الرياضة المنهكة وإماتة الجسم

والافتخار بالفقر، ولكن الرياضة والطاعة عندهم كانت تعتبر تمهيداً أو تمريناً لحياة روحية عظيمة .

وقد كان الجنيد دائم الصيام ، وكان يرتدى لباس العلماء ، وكان لا يهتم بارتداء الملابس المرقعة . وكان يتجنب الإفراط فى الزهد وإماتة الجسم .

وقد ظهر فى هذا القرن أيضاً : ذو النون المصرى الذى توفى فى عام ٢٤٥ هـ .

وأبو يزيد البسطامى الذى توفى عام ٢٦١هـ والحسين بن منصور الحلاج الذى قتل فى بغداد عام ٣٠٩ هـ — وأبو بكر الشبلى الذى توفى عام ٣٣٤ هـ .

وقد عبر كل واحد من هؤلاء عن أفكار الصوفية بتعبيرات خاصة ، مال أكثرهم إلى الأخذ بعقيدة وحدة الوجود .

ومن أجل هذه العقيدة ، قام الفقهاء وأنكروا على الصوفية أقوالهم ، وسلوكهم واعتبروها خطراً على جماعة المسلمين ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل اتهموهم بالبدع والكفر والإلحاد ، ولكن الصوفية فى هذا العهد ، أخذوا يكتبون الكتب ويؤلفون المؤلفات ليدافعوا عن أنفسهم بها .

وأول من استعمل رموز الصوفية هو ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ وكان يقصد بذلك الفرار من اعتراض المعترضين ، لكنه يعتبر من معتدلى الصوفية ، حيث كان يتحدث فى مقالاته عن المعرفة الإلهية أكثر من تحدثه عن الاتحاد .

كذلك كان أسبق مشايخ الصوفية فى إيراد الإشارات والعبارات ،

ولما جاء الجنيد البغدادي أخذ يتكلم في هذا الموضوع صراحة، وبسطه، وأذاعه وألف فيه الكتب، ولما ظهر الشبلي أعلنه صراحة وحمله على المنبر ونشره بين أيدي الناس.

قال ذو النون المصري: «ارتحلت ثلاث رحلات وعدت بثلاثة علوم أتيت في الرحلة الأولى بعلم يقبله الخاص والعام، وأتيت في الرحلة الثانية بعلم قبله الخاص ولم يقبله العام، وأتيت في الثالثة بعلم لم يأخذ به الخاص ولا العام. فبقيت شريداً طريداً وحيداً، وكان الأول علم التوبة وهو علم يتقبله الخاص والعام، وكان العلم الثاني علم التوكل والمعاملة والمحبة يقبله الخاص لا العام، والثالث هو علم الحقيقة الذي لا يدركه علم الخلق ولا عقلهم».

فهجره الناس وأنكروه عليه حتى توفي عام ٢٤٥هـ(١).

لكن أبا يزيد البسطامي الذي كان من كبار رجال صوفية القرن الثالث الهجري، قال بوحدة الوجود صراحة، وكان في هذا الموضوع أجرأ من ذي النون المصري.

ولا شك أن الحسين بن منصور الحلاج من الذين قالوا بوحدة الوجود وأعلنها صراحة وأصر على رأيه حتى نهاية حياته، ومن هنا أخذ ابن عربي وغيره من كبار الصوفية هذا الرأي وساروا عليه.

إذن كان صوفية القرن الثالث الهجري، هم الذين وضعوا هذه النظريات.

---

(١) تاريخ التصوف في الإسلام، ص ٨٠ نقلا عن نفحات الأنس ص ٣٣

وكتبوا فيها وأصبحت أصلا من أصول التصوف، ثم جاء من بعدهم أناس نموا هذا الفكر، لكن طرأت عليه تغيرات أخرى بمرور الزمن، يرجع أكثرها إلى التعبيرات والاصطلاحات والرسوم والظواهر وكيفية مقامات السير والسلوك، إلى آخر ما هنالك من أشياء أخرى(١).

## خصائص التصوف الاسلامي فى القرن الثالث الهجرى :

١ — إذا أمعنا النظر فى صوفية القرن الثانى الهجرى نجد أنها كانت تقوم على الرياضة الشاقة المنهكة للجسم، وكان يرى صوفية هذا القرن، أن هذه الرياضة هى الطريق الوحيد للنجاء، لكن صوفية القرن الثالث قد غيرت هذه الطريقة حيث إنهم خففوا من حدتها مع احتفاظهم بالعبادة والطاعة والزهد وترك الدنيا، فإن كان صوفية القرن الثانى قد اهتموا بالناحية العملية، أكثر من الناحية النظرية، فقد كان صوفية القرن الثالث يهتمون بالناحية النظرية أكثر من العملية.

٢ — إن الغرض من ظهور فكرة « وحدة الوجود » هو الاتصال بالله فقط، وإن كانت هذه الفكرة قد أثارت الفقهاء عليهم، إلا أن بعض كبار رجال الصوفية كانوا يلومون هذه الطبقة من الصوفية.

لكن الحق يقال: إن الكثير من صوفية القرن الثالث كانوا يهتمون بالناحية العملية كما كانت فى القرن الثانى، ولا ننفى أن جميع فرق التصوف كانت تجمعهم أصول مشتركة.

٣ — بدأت الصوفية فى القرن الثالث تعمل لها طبقات خاصة وفرقا

---

(١) تاريخ التصوف فى الاسلام المرجع السابق ص٧٢ — ٨١

حزبية وآداب طائفية، ودخلت كل طائفة تحت رعاية شيخ ومرشد وقطب. وكان الشيخ أو المرشد ذا سلطة كاملة على مريديه، يراقب أعمالهم ويحث كل شخص على تنفيذ أوامر المرشد ومراعاة الأنظمة.

وكانت للفرق المختلفة من الصوفية طرق متنوعة في السير والسلوك، وكانت كل طائفة ترى لنفسها طريقا خاصا للوصول إلى الغرض، وتسير في طريقها الخاص بها(1).

---

(1) المرجع السابق ص ٨٤

## أصل الصوفية ونسبتهم

اختلف المفكرون والعلماء في أصل الصوفية والنسبة التي ينتسبون إليها، وتتلخص الآراء في الآتي:

الرأي الأول.

يقول عبد الرحمن بن الجوزي، كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال مسلم ومؤمن. ثم حدث اسم زاهد وعابد.

ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة، اتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقا تخلقوا بها ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل يقال له صوفه، واسمه «الغوث بن مر» فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فسموا بالصوفية(١).

وقد كان «الغوث بن مر» يعيش في زمن الجاهلية، وسمى بصوفة لأنه ما كان يعيش لأمه ولد، فنذرت لإن عاش لتعلقن برأسه صوفه ولتجعلنه ربيط الكعبة، ففعلت فقيل له صوفه ولولده من بعده.

الرأي الثاني:

هو: أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة وأصحاب هذا الرأي كانوا يرون أن أهل الصفة كانوا على طريقة «صوفية» في الانقطاع إلى الله عز وجل وملازمة الفقر، حيث كانوا فقراء يقدمون على رسول الله ﷺ، وليس لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله ﷺ وأخذ المسلمون يوصلون إليها ما استطاعوا من خير.

---

(١) تلبيس إبليس ص١٥٧

وكان رسول الله ﷺ يأتيهم فيقول: السلام عليكم يأهل الصفة، فيقولون، وعليك السلام يارسول الله، فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون بخير يا رسول الله.

وفي الحديث بإسناد عن بن المجمر عن أبيه عن أبي ذر قال: كنت من أهل الصفة، وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل فيبقى من أهل الصفة عشرة أو أقل فيؤثرنا النبي ﷺ بعشائه فنتعشى، فإذا فرغنا قال رسول الله ﷺ: ناموا في المسجد. وقد استمر هؤلاء على هـــذا الوضع حتى فتح الله تعالى على المسلمين فاستغنوا عن تلك الحال، وخرجوا من المسجد، لكن نسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل صفي، وصفيه.

الرأي الثالث:

هو أن الصوفية ينسبون إلى الصوفانه وهي بقله رعناء قصيرة وقد نسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء، لكن هذه النسبة خطأ، وذلك لأنهم إذا نسبوا إليها، لقيل صوفاني.

الرأي الرابع:

يرى أصحاب هذا الرأي أن الصوفية منسوبون إلى صوفة القفا وهي الشعرات النابتة في مؤخره.

الرأي الخامس:

هو أن الصوفي منسوب إلى الصوف(١).

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٥٨

الرأي السادس :

هو أن أصل الصوفية مأخوذ من الصفاء ، لكن هذا الرأي بعيد من حيث اللغة .

١ ـ رأي ابن خلدون :

يقول عبد الرحمن بن خلدون في علم التصوف : إن هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم ، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف .

فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة(١) .

٢ ـ ويقول : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الذي ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفي سنة ٤٦٥

إن هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال صوفي وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف وللجماعة المتصوفة ، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياسا ولا اشتقاقا ، والأظهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

(١) مقدمة ابن خلدون ط دار الفكر ـ لبنان ص٤٦٥

ومن قال أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على النحو الصوفي ، ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة .

ومن قال إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى صحيح ، لكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق(1) .

## ٣ – ويقول أبو نصر السراج الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ هـ

إن سأل سائل فقال قد نسب أصحاب الحديث إلى الحديث ، ونسب الفقهاء إلى الفقه ، ثم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم ، ولم تضف إليهم حالا كما أضفت الزهد إلى الزهاد ، والتوكل إلى المتوكلين ، والصبر إلى الصابرين ؟

فيقال له لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع . ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم ، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ، ومستجمع جميع الأحوال والأخلاق المحمودة الشريفة فلذلك تتخذ ظاهرهم مناطا للتسمية(2) .

ونسميهم صوفية ، لأنهم يلبسون الصوف ، وارتداء الصوف إنما كان دأب الأنبياء والصديقين والحواريين والزهاد(3) .

---

(1) الرسالة القشيرية ط صبيح ص٢١٦ – ٢١٧

(2) تاريخ التصوف في الإسلام قاسم غني ص ٦٢ نقلها من السراج الطوسي ص ٤٠ – ٤١

(3) اللمع الطوسي ص ٤٠ – ٤١

ومن حيث إن هذه التسمية ظهرت فى القرن الثانى الهجرى، فلم يوافق أبو نصر السراج الطوسى عليها حيث يقول: وأما قول القائل إنه إسم محدث أحدثه البغداديون فمحال، لأن فى وقت الحسن البصرى رحمه الله كان يعرف هذا الإسم وقد أدرك الحسن صحبة جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وقد روى عنه أنه قال: رأيت صوفياً فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى.

٤ – ويرى الإمام أحمد بن تيمية:

أن الصوفى منسوب إلى الصوف، وكان أول ظهور الصوفية فى البصرة، كما أن أول من شيد «ديرة صغيرة» للصوفية بعض أتباع عبد الواحد ابن زيد من أصحاب الحسن البصرى، وكان صوفية البصرة يبالغون فى الزهد والعبادات والخوف من الله، وكانوا يمتازون بهذا عن بقية أهالى المدن الأخرى، وصار هذا مضرباً للمثل بقولهم «فقه الكوفى وعبادة البصرى».

وقد اختلف المفكرون فى كلمة صوفى، هل هى عربية، أو دخيلة على اللغة العربية، بعد كل هذا نستطيع أن نقول إنها عربية وهى مشتقة من كلمة «صوف».

وأن تسمية الزهاد فى القرون الأولى الإسلامية باسم الصوفية، هو أنهم كانوا يرتدون الملابس الصوفية الخشنة.

وقد أصبحت كلمة صوفى مرادفة فيما بعد لكلمة «عارف» سواء ارتدى الملابس الصوفية أم لا.

ومن مرادفات كلمة الصوفى كلمة «درويش» وعلى هذا فقد اتفق الكثير

من العلماء والفقهاء على أن كلمتى الصوف والتصوف مشتقتان من كلمة الصوف ومنهم ابن خلدون وابن تيمية ، وابن الجوزى(١) .

**تعريف التصوف :**

إذا أردنا أن نأتى بتعريف مانع جامع التصوف لم نستطع، وذلك لأن له تعاريف كثيرة جاء بها علماء الصوفية أنفسهم ، فمثلا نجد التصوف عند أبى محمد رويم بن أحمد البغدادى ، وهو من أكابر الصوفية مات سنة ٣٠٣هـ أنه مبنى على ثلاث خصال :

الأولى : التمسك بالفقر والإفتقار .

الثانية : التحقق بالبذل والإيثار .

الثالثة : ترك التعرض والإختيار واسترسال النفس مع الله تعالى ما يريد .

ويرى معروف الكرخى : أن التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

ويرى القشيرى : أن التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى .

ويرى الجنيد: أن التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به .

ويرى عمرو بن عثمان المكى : أن التصوف هو أن يكون العبد فى كل وقت مشغولا بما هو أولى فى الوقت .

---

(١) تاريخ التصوف فى الإسلام المرجع السابق ص٩٧ ــ ٩٩

وهناك آراء أخرى نسبت إلى بعض الصوفية ، منها أنه ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع . وقيل إن أوله علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة من الله تعالى(١) .

ومنها أن التصوف هو تصفية القلب من مراجعة الخلق، والمفارقة من أخلاق الطبيعة ، وإماتة الصفات البشرية والابتعاد عن الدواعي النفسية، والنزول على الصفات الروحانية ، والسمو إلى العلوم الحقيقية ، واستعمال ما كان هو الأولى إلى الأبد ، ونصيحة الأمة كلها والوفاء في العمل بالحقيقة ومتابعة النبي في الشريعة .

ومنها أن التصوف هو أن يكون صافياً من ربه، ومليئاً بالأنوار، ويكون في عين اللذة من الذكر .

ومنها أن التصوف هو ترك كل خطوط النفس للحصول على النصيب الحق .

ومنها أن التصوف هو أن يكون كل شيء ملكا لك ، ولا تكن أنت ملكا لأي شيء .

يقول العالم الصوفي عبد الوهاب الشعراني : إن علم التصوف ، عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بها انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق

---

(١) عوارف المعارف – عمر السهروردي تحقيق عبد الحليم محمود ج١ ص ٢٠١ – ٢٠٨ ، وانظر هنا تذكرة الأولياء للعطار وكشف المحجوب للهجويري نقل منهما قاسم غني ج ١ ص ٢٧٣

تعجز الألسن عنها، نظير ما استنبطه علماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها.

فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من علة العلل وحظوظ النفس. كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو. فمن جعل علم التصوف علما مستقلا صدق، ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق، كما أن من جعل علم المعاني والبيان علما مستقلا فقد صدق، ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق» (١).

ومن تبحر في علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية، أدرك بذوقه أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة، فإذا دخل العبد طريق القوم وتبحر فيها، أعطاه الله هنالك قوة الاستنباط، نظير الأحكام الظاهرة على سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآدابا ومحرمات ومكروهات.

ومن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة، والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة، لكن أصل استغراب من لا إلمام له بأهل الطريق، أن علم التصوف من عين الشريعة، كونه لم يتبحر في علم الشريعة. فكل صوفي فقيه ولا عكس (٢).

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: الطبقات ج١ ص ٤

(٢) المصدر السابق ص ٤

وانظر: التصوف الإسلامي ومدارسه، محمد جلال شرف، الاسكندرية ص ٢٥ سنة ١٩٧٤

ويرى السراج الطوسي صاحب كتاب اللمع ، أن الفقه والتصوف يعتبران علما واحدا ، وأن علم الفقه قائم على الرواية ، وأن علم التصوف قائم على الدراية .

وأن العلم متى كان في القلب ، فهو باطن إلى أن يجرى على اللسان ويظهر ، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر .

وتنقسم أعمال الجوارح الظاهرة إلى عبادات ، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك .

وإلى أحكام ، مثل الطلاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها .

أما علم التصوف : فهو قائم على الجارحة التى هى القلب .

ولكل عمل من الأعمال الظاهرة أو الباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد ، ودليل صحة كل عمل منها ، آيات من القرآن وأخبار عن الرسول ﷺ (١) .

ويستدل الطوسي على حديثه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فمن القرآن قوله تعالى : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (٢) .

فالنعمة الظاهرة : هى فعل الطاعات ، والنعمة الباطنة : هى ما أنعم الله بها على القلب من الأحوال والمقامات .

لكن لا يستغنى الظاهر عن الباطن ، ولا الباطن عن الظاهر ، يقول الله ( ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ) (٣) .

---

(١) اللمع ص ٤٣
(٢) سورة لقمان : آية ٢٠
(٣) سورة النساء : آية ٨٣

فالعلم المستنبط هو علم التصوف ، لأن للصوفية مستنبطات عن القرآن والحديث وغير ذلك (١) . .

فالفرق إذن بين الفقه والتصوف ، هو في الوسيلة فقط ، فالفقه قائم على الأعضاء الجارحة .

والتصوف قائم على الأعضاء الباطنة أي القلب ، وفي النهاية ينتمي كل منهما إلى علم الشريعة الإسلامية (٢) .

---

(١) السراج الطوسي ، اللمع ص ٤٤

(٢) انظر التصوف الإسلامي ومدارسه تأليف : محمد جلال شرف الاسكندرية سنة ١٩٧٤ ص ٧٥

## من هو الصوفى فى نظر الصوفية

يرى الجنيد البغدادى أن الصوفى هو الذى سلم قلبه كقلب إبراهيم من حب الدنيا وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله، وتسليمه تسليم إسماعيل، وحزنه حزن داود، وفقره فقر عيسى، وصبره صبر أيوب، وشوقه شوق موسى وقت المناجاة، وإخلاصه إخلاص محمد ﷺ.

ويقول الهجويرى فى كتابه كشف المحجوب: إن الذين فى درجة الروحانية على ثلاث مراتب.

أولاها: الصوفى. وثانيها: المتصوف. وثالثها: المستصوف.

فالصوفى هو من كان فانيا فى نفسه، وباقيا فى الحق، ومنطلقا من قبضة الطبائع ومتصلا بحقيقة الحقائق.

والمتصوف هو من يبغى هذه الدرجة بطريق المجاهدة ويجعل نفسه جديرة بمتابعتهم فى المعاملة.

والمستصوف هو عند الصوفية كالذباب، وعند غيرهم كالذئاب.

ويقول ذو النون المصرى: الصوفى هو من إذا تكلم كان كلامه كاشفا لأسراره، وإذا ماسكت كان فعله فقرا كله. (١) وقال أيضا: الصوفى من لايتعبه طلب، ولايزعجه سلب (٢).

وقال سهل بن عبد الله التسترى: الصوفى من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر (٣).

---

(١) قاسم غنى ط ١ ص ٢٨٠ – ٢٨٣

(٢) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٠٥

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٧

وقال بعضهم : إن التصوف هو تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدواعي النفسية ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، وإتباع الرسول في الشريعة .

وللمشايخ في ماهية التصوف أكثر من قول ، ولكن يوجد ضابط يجمعها في جملة واحدة وهي أن الصوفي ، هو الذي يكون دائم التصفية ، أي يصفي الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوائب النفس ، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه ، فبدوام الإفتقار ينقى من الكدر ، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه (١) .

---

(١) عوارف المعارف جـ١ صـ٢٠٨

# أهم مدارس التصوف الاسلامى منذ نشأتها(*)

## ١ ـ مدرسة المدينة :

سبق أن قلنا إن التصوف الإسلامى قد ظهر مع ظهور الإسلام حيث كان الصحابة رضوان الله عنهم يحاولون أن يعملوا كما كان يفعل الرسول ﷺ .

وقد ظهر ذلك واضحا فى المدينة المنورة ـ طيبة الطيبة ـ حيث استقر الرسول ﷺ وأصحابه هناك ، ولاشك أن المدينة كانت تختلف كثيراً عما كانت عليه مكة وأهلها فى معاملة الرسول ﷺ وأصحابه ، ومن هنا نستطيع أن نقول ، إن المدينة تعتبر العاصمة الأولى للإسلام ، وأن المسلمين استطاعوا أن يمارسوا عقيدتهم الإسلامية وهم فى راحة نفسية ، ففى المدينة كان التنسك والزهد وكثرة العبادة ، كل ذلك ظهر فى حياة صحابة رسول الله ﷺ وعلى الأخص الخلفاء الراشدين ، وأهل الصفة ، وغيرهم من الصحابة ، وظلت حياة كثير من المسلمين على هذا الوضع حتى بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الملأ الأعلى ، بل وحتى بعد أن انتقلت الخلافة من المدينة إلى دمشق فى زمن الدولة الأموية .

وكان من كبار الشخصيات التى ظهرت فى المدينة فى آخر القرن الأول الهجرى ، سعد بن المسيب الذى توفى عام ٩٠هـ تقريبا .

---

(*) انظر هذا الموضوع فى كتاب « التصوف الإسلامى ومدارسه » تأليف : د . محمد جلال شرف ص ٧٥ ومابعدها .

### ٢ — مدرسة البصرة :

بعد أن انتقلت الخلافة من المدينة إلى دمشق أصبح لها الكثير من المؤيدين والمعارضين ، لكن البصرة اتخذت موقفا محايدا . وكان لهذا الموقف أثر كبير في التنسك والزهد ظهرا في كثير من حياة أغلب المسلمين هناك ، وقد قيل إن البصرة كانت مركزاً كبيراً له طابع خاص هو التنسك والزهد(١) .

وقيل أيضا : إن صوفية أهل البصرة قد ابتعدوا عن الاشتغال بالسياسة وحاولوا إقامة التصوف على أساس عقلي وديني ، معتمدين على الكتاب والسنة وسيرة الصحابة . وأبرز شخصية في مدرسة البصرة هو الحسن البصري(٢) .

### ٣ — مدرسة الكوفة :

إذا أردنا أن نتحدث عن مدرسة الكوفة الصوفية ، نجد أنها تتمثل في أبي هاشم عثمان بن شريك الكوفي ، الذي بدأ حياته في حب الدنيا ، ثم غيرها إلى الزهد والتنسك وقد ارتدى جلبابا من الصوف وقبع وحيدا في صومعته يكثر من العبادة ، وكان يؤمن بعقيدة الجبر مثله في ذلك مثل بقية الزهاد والصوفية ، وقد كان يلقنها لتلاميذه .

وبعد أبي هاشم ظهرت جماعة سميت بالروحانيين ، وكان على رأسهم

---

(١) التصوف الإسلامي ومدارسه محمد جلال شرف ، نقلا عن أصول التصوف الإسلامي الأول د . عبد المحسن الحسيني ص ١ سنة ١٩٥٤ .

(٢) التصوف الإسلامي المرجع السابق نقلا عن التصوف الثورة الروحية د . أبو العلا عفيفي ص ٨٥ — ٨٦ .

حيان الحريري الذى توفى عام ٢٧٠ هـ لكن هذه الجماعة كانت تختلف كثيراً عن باقى الصوفية ، حيث إنها لم تكن تعتد بظاهر الشرع أى بأحكام الشرع التى تجرى على الجوارح وهى المسماة بالتكاليف ، كذلك اعتبرت الزهد منافيا لاشباع الحياة الروحية ، ومن هنا جاءت فكرة الإباحية التى يقولون عنها : «إن العباد يبلغون بعبادتهم إلى منزلة هى غاية السبق من تضمير أنفسهم وحملها على المكروه ، فإذا بلغت تلك الغاية أعطى ما تشتهى»(١) .

وقيل إن التصوف فى الكوفة كان يعتبر أن العلاقة بين الإنسان وربه تقوم أساسا على فكرة التجسيم ، أى ادعاء أن الله له طبيعة جسدية ، وكان يتزعم هذه المدرسة أبو شعيب البارانى المتوفى عام ١٧٠ هـ . وكان يزعم رؤية الله فى الدنيا ، وأجاز على الله الفرح والحزن تبعا لطاعة وعصيان عباده المخلصين له ، كما أجاز عليه التعب والراحة والكآبة والرضا والملل .

وقد أطلق أهل السنة على هؤلاء الناس اسم : الزهاد الزنادقة ، لكن إذا نظرنا إلى حقيقة هؤلاء الناس ، نجد أنهم تأثروا بالزهاد من المزدكيين وهم أتباع مزدك الفارسى الذى نادى بالإباحية .

وقد كانت المزدكية منتشرة فى إيران قبل الإسلام ، ومن أجل هذا عندما انتشر التصوف هناك تطورت فكرة التجسيم وأصبحت على نوعين :

الأول حلول اللاهوت فى الناسوت .

والثانى اتحاد الإنسان بالله .

وقد دخلت فكرة التجسيم الإسلام على يد مقاتل بن سليمان الذى توفى عام ١٥٠ هـ حيث نادى بالتشبيه ، وأفرط فى معنى إثبات الصفات حتى جعل الله مثل خلقه ، وقد نقل ذلك عن اليهود والنصارى .

---

(١) التصوف الإسلامى المرجع السابق ص ٧٨ .

وقد قيل إن أول من دعا ، إلى فكرة التجسيم فى الإسلام هو هشام ابن الحكم ، وقد أدى فكره إلى فكرة الحلول والاتحاد فى الأوساط الصوفية كذلك إلى نظرية وحدة الوجود المادية(١) .

### ٤ — مدرسة خراسان :

انتشرت التعاليم الصوفية فى خراسان على يد ابراهيم بن أدهم المتوفى عام ١٦٩ هـ ، وقيل ١٦٢ هـ ، وكان المؤسس الأول لهذه المدرسة ، وجاء من بعده الفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ هـ ، وكان الأول فى مدينة بلخ ، والثانى فى مدينة مرو .

وكانت بلخ مركزا لمدرسة خراسان ، وقد تتلمذ بشر بن الحارث المتوفى سنة ٢٢٧ هـ ، على يد الفضيل بن عياض ، وقد غادر بشر مرو إلى بغداد طلبا للحديث وأقام بها حتى توفى هناك .

وكان ابراهيم بن أدهم من مشاهير الصوفية هناك ، وقد لجأ إليه أهل البصرة وسألوه عندما كان يمر بأسواقهم قائلين له : يا أبا إسحق : إن الله تعالى يقول فى كتابه : « ادعونى أستجب لكم » ، ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا ، فقال إبراهيم : يا أهل البصرة ماتت قلوبكم فى عشر أشياء :

أولها : عرفتم الله ولم تؤدوا حقه .

الثانى : قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به .

الثالث : ادعيتم حب رسول الله وتركتم سنته .

الرابع : أدعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه .

الخامس : قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها .

---

(١) التصوف الإسلامى ص ٨٠ .

السادس : قلتم نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها .

السابع : قلتم إن الموت حق ، ولم تستعدوا له .

الثامن : اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم .

التاسع : أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها .

العاشر : دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بها(١) .

وقد ادعى إبراهيم بن أدهم رئيس مدرسة خراسان ، أنه وصل إلى معرفة الاسم الأعظم ، وكانت هذه الفكرة منتشرة فى البيئات الصوفيه ، كذلك كانت عند غلاة الشيعة . وتتلخص ـ هذه الفكرة ـ فيما ذكره إبراهيم ابن أدهم قائلا : أبصرت رجلا بين الكوفة ومكة، فإذا صلى ركعتين تجوز فيهما . وتكلم بكلام خفى بينه وبين نفسه ، فإذا عن يمينه جفنة ثريد وكوز ماء ، فأكل وأطعمنى ، فذكرت ذلك لأسلم بن زيد الجهنى ، فقال : يابنى ذاك أخى داود ، ووصف من حاله ما أبكى من حوله . ثم قال : يابنى ماذا عليك ؟ قلت ، علمنى اسم الله الأعظم ، فقال الشيخ ما هو ؟ قلت له : إنه ليكبر فى قلبى أن أنطق به لسانى ، فإنى سألت الله مرة وإذا رجل يحجزنى فقال سل تعطه ، فراعنى ذلك ، وفزعت منه فزعًا شديدا ، فقال لا بأس ولا روع ، أنا أخوك الخضر . . . إن أخى داود علمك اسم الله الأعظم ، والله يثبت به قلبك ، ويقوى به ضعفك ، ويؤنس به وحشتك ، ويؤمن به روعتك ، ويجدد به رغبتك ويعينك ،

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : أبو نعيم أحمد الأصفهانى جـ٨ صـ ١٥ ـ ١٩ القاهرة سنة ١٩٣٢ وانظر الرسالة القشيرية : عبدالكريم القشيرى ط صبيح القاهرة صـ ١٣

إن الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الرضا من الله لباسا ، وحبه دثارا ، والإثرة شعارا فتفضل الله عليهم(١) .

ويرى إبراهيم بن أدهم أن أشد الجهاد هو جهاد النفس ، وحتى يصل الإنسان أو السالك إلى درجة الصالحين . لابد له أن يجوز ست عقبات .

١ — تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة .

٢ — تغلق باب العزة ، وتفتح باب الذل .

٣ — تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد .

٤ — تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر .

٥ — تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر .

٦ — تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت .

وقيل إن إبراهيم بن أدهم قد شغل نفسه بهذه الأمور الستة واجتازها ومن جهة أخرى ، كان يرى هذا الصوفى أن القلب تحجبه ثلاثة أغطية حيث يقول : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح .

وقد سأله سائل ، قائلا : لم حجبت القلوب عن الله ؟ قال لأنها أحبت ما أبغض الله ، أحبت الدنيا ، ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد فى نعيم لا يزول ولا يفنى ، خالداً مخلداً فى ملك سرمدى ، لا نفاذ له ولا انقطاع(٢) .

---

(١) التصوف الإسلامى ومدارسه ، المرجع السابق ص ٨٤ ، نقلا عن صفة الصفوة لابن الجوزى ج ٤ ص ١٣٣ .

(٢) حلية الأولياء المرجع السابق ج ٨ ص ١٣ وانظر التصوف الإسلامى ص ٨٥

أما من حيث المؤسس الثانى لمدرسة خراسان وهو: الفضيل بن عياض، قيل إنه ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد، ومات بمكة فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائة، وقد نشأ فى أول الأمر نشأة غير صوفية، ثم تحول إلى الصوفية، لأنه عشق جارية وبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو قول الله تعالى: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله»، فقال يارب قد آن، فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم نرتحل، وقال قوم حتى نصبح.

يقول الراوى: فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا فتاب الفضيل وأمنهم وجاور الحرم حتى مات. وعلى هذا فقد تاب الفضيل، وترك الدنيا، وزهد فيها، وأصبح من كبار الصوفية الذين زهدوا فى الحياة الدنيا.

قال الفضيل: «إذا أحب الله عبداً أكثر همه، وإذا أبغض عبداً وسع عليه دنياه، وقال أيضاً: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه»(1).

وقد اشتهر بالخوف والحزن والبكاء، قال أبو على الرازى صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا مبتسما إلا يوم مات ابنه على فقلت له فى ذلك إن الله أحب أمراً فأحببت ذلك(2).

(1) الرسالة: القشيرى ص ١٠، وإذا أردت المزيد فارجع إلى الحلية ج٨ ص ٩٤ وما بعدها.

(2) أنظر طبقات الصوفية للسلمى ص ١١

٥ — مدرسة مصر :

اشتهرت مصر منذ أن دخلها الإسلام بحبه واعتناقه ، وقد جاء إليها الكثير من الصحابة والتابعين رضوان الله عنهم ، ومن أجل هذا ، كانت مركزاً عظيماً للعلوم الإسلامية ، كذلك نبغ فيها الكثير من العلماء الذين تخرجوا فيها ، وكان منهم ذو النون المصرى الذى اشتهر فى العالم الإسلامى بصوفيته ، وقيل إن إسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض إبراهيم، وأبوه كان نوبيا . توفى عام ٢٤٥ هـ .

وقد وصفه الإمام القشيرى فى رسالته ، بأنه « أوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا » وقد سعوا به إلى المتوكل ، فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل ، ورده إلى مصر مكرما(١) .

وقد اشتهر ذو النون رحمه الله ، وزهده ، واتباع الإسلام ، والعمل بما جاء فيه ، ومتابعة رسول الله ﷺ فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته ، يقول فى كل هذا : « مدار الكلام على أربع ، حب الجليل ، وبغض القليل ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل » .

ويقول أيضاً من علامات المحب لله عز وجل ، متابعة حبيب الله ﷺ فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه .

وقد سئل ذو النون عن السفلة فكانت إجابته بالآتى :

« من لا يعرف الطريق إلى الله ولا يتعرفه » .

كذلك سئل عن سبب توبته ، فقال : « أردت الخروج من مصر

---

(١) الرسالة : عبد الكريم القشيرى ، المرجع السابق ص ١٤ ، ١٥

إلى بعض القرى فنمت في الطريق في بعض الصحارى ، ففتحت عيني ، فإذ أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض ، فخرج منها سكرجتان ، إحداهما ذهب والأخرى فضة ، وفي إحداهما سمسم ، وفي الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا ، فقلت حسبي . قد تبت ولزمت الباب إلى أن قبلني الله عز وجل .

كذلك سئل ذو النون عن التوبة فقال : توبة العوام ، تكون من الذنوب ، وتوبة الخواص ، تكون من الغفلة ، ويقصد بالخواص ، الصوفية .

وقد كان ذو النون سائحا كثير السفر ، ومن أجل هذا كان أثره واضحا في البلاد التي يذهب إليها مثل دمشق وفلسطين واليمن وبغداد وشمال أفريقيا ، وقد كانت تعاليمه محاطة بسرية تامة .

أما عن المعرفة عند ذى النون ، فتكون على ثلاث درجات كما يقول الدكتور محمد جلال شرف .

لقد أشار ذو النون والترمذى (أبو عبدالله محمد بن عبد الحكيم المتوفى سنة ٢٨٥هـ) إلى أن المعرفة ذات ثلاثة أنواع وثلاث درجات .

الأولى :

وهى أحطها ، وتتمثل فى العلم الذى هو بمثابة الجسم العضوى للمعرفة الذى يجمع فيه موضوعات شتى ، منها الطبيعى والاجتماعى والدينى ، وهذه المعرفة تعتمد على حقائق الاستكشاف النفسى ، وعلى الحواس المختلفة ، والخبرة ، وملاحظة الظواهر المادية ، والتجربة ، والتقاليد العامة ، والتراث الاجتماعى ، وأوامر القرآن الكريم ، والسنة النبوية وقد أطلق الترمذى على هذا العلم اسم علم الحق ، وعرفه ذو النون بأنه المعرفة الوجدانية .

الثانية :

أما النوع الثاني من المعرفة فهو الحكمة في درجة أقل. أو الحكمة العارية، وطريقها كما يرى الترمذي، المعرفة بالقلوب. وطريقها كما يرى ذو النون، المعرفة بالفردانية عن طريق العقل.

الثالثة :

أما النوع الثالث من المعرفة فهي الحكمة العليا، وهي الحكمة الخفية، أو سر الحقيقة، أو القابع خلف العلم الظاهر (١)

٦ — مدرسة نيسابور :

لقد ظهرت في نيسابور مدرسة صوفية، وكانت تتمثل هذه المدرسة في فرقة الملامتية، وقد تأثرت هذه الفرقة بمدرسة بغداد، إلا أنها انفردت بطابع خاص عن غيرها من المدارس السابقة.

وذلك لأن التصوف في هذه المدرسة يقوم على أساسين رئيسين هما: الملامة والفتوة، والملامة هي: كبح النفس واتهامها وتأنيبها على ما فرط منها، ورؤية التقصير فيما يصدر عنها من أعمال الطاعة.

والفتوة هي: الإيثار، والتضحية، وكف الأذى، وبذل الندى، وترك الشكوى، وإسقاط الجاه، ومحاربة النفس.

ومن أشهر رجال الملامتية، أبو حفص الحداد (ت ٢٦٤/ ٢٦٥ هـ) وحمدون القصار (توفي عام ٢٧١ هـ)

---

(١) التصوف الإسلامي ومدارسه : المرجع السابق صـ ٩٢ — ٩٤

... بغداد اجتمعوا يوما عند أبي حفص فسألوه عن الفتوة. فقال: تكلموا أنتم فإن لكم العبارة واللسان، فقال الجنيد: الفتوة إسقاط الرؤية وترك النسبة، فقال أبو حفص: ماأحسن ماقلت، ولكن الفتوة عندى أداء الإنصاف، وترك مطالبة الإنصاف، فقال الجنيد: قوموا ياأصحابنا، فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته(1)

وإذا رجعنا إلى الشيخ عبد الكريم القشيرى فى رسالته، نجد أنه أفرد بابا عن الفتوة وذكر فيه تعريفات كثيرة، لكثير من الصوفيه، وقد بدأ هذا الباب بقوله تعالى «إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى» ثم عرف الفتوة قائلا: إن أصل الفتوة أن يكون العبد أبدا فى أمر غيره، قال ﷺ لايزال الله تعالى فى حاجة العبد، مادام العبد فى حاجة أخيه المسلم.

يقول الفضيل: إن الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان. وقيل الفتوة أن لاترى لنفسك فضلا على غيرك وقال محمد بن على الترمذى: الفتوه أن تكون خصما لربك على نفسك. وقال الحارث المحاسبى: أن تنصف ولاتنتصف، وقال عمرو بن عثمان المكى: الفتوة حسن الخلق.

وسئل الجنيد عن الفتوة فقال: أن لاتنافر فقيرا، ولا تعارض غنيا.

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل، سئل أبى ماالفتوة فقال ترك ماتهوى لما تخشى(2) بعد كل هذا نجد أن الفتوة عند المشايخ والعلماء لاتخرج عما جاء به القرآن الكريم والسنه النبوية الشريفه.

---

(1) الحلية: المرجع السابق ج 10 ص 230

(2) الرسالة: المرجع السابق ص 176 — 177

٧ — مدرسة الشام :

سبق أن قلنا إن ذا النون المصرى كان سائحا . يرحل إلى كثير من البلاد التى منها الشام ومن أجل هذا كانت هذه المدرسة متأثرة بصوفية ذى النون ، وأيضاً تأثرت هذه المدرسة بصوفية الكوفة وزهادها .

وأشهر مشايخ صوفية مدرسة الشام ، وأبو سليمان الدارانى المتوفى عام ٢١٥هـ، وأحمد بن أبى الحوارى المتوفى عام ٢٣٠هـ، وأحمد بن الجلاء المتوفى عام ٣٠٦هـ .

وقد اشتهر هؤلاء الصوفية بالجوعية ، وذلك لأنهم لم يأكلوا من الطعام إلا قدر ما يقيم الصلب للضرورة ، وهم يعملون بقول النبى ﷺ « بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه » .

ولا شك أن مشايخ هذه المدرسة كانوا يرون أن الجوع يعتبر شيئاً من الزهد الذى يكون أصلا من أصول الصوفية .

وأيضاً تأثرت هذه المدرسة بكثير من الصوفيه ، قال ابن الجلاء: رأيت ذا النون ، وكانت له العبارة ، ورأيت سهلا ، وكانت له الإشارة ، ورأيت بشر بن الحارث ، وكان له الورع ، فقيل له فإلى من كنت تميل ، فقال: لبشر بن الحارث أستاذنا(١) .

وقد كان صوفية هذه المدرسة يحتقرون الدنيا ، ويدعون لترك الشهوات ، ويشغلون قلوبهم بذكر الله تعالى إلى آخر ما هنالك من صفات كبار مشايخ الصوفية .

---

(١) الرسالة المرجع السابق ص ١٩

قال أبو سليمان الداراني : من أحسن في نهاره ، كوفئ في ليله ، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له . وإذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة ...

وكان صوفية هذه المدرسة يتقربون إلى الله تعالى بالبكاء .

قال أحمد بن أبي الحواري ، دخلت على أبي سليمان يوما وهو يبكي ، فقلت له ما يبكيك ؟ فقال يا أحمد ، ولم لا أبكي ، وإذا جن الليل ، ونامت العيون ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وافترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقطرت في محاريبهم ، أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى ياجبريل: بعيني من تلذذ بكلامي ، واستراح إلى ذكري ، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم ، أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ، فلم لا تنادي فيهم يا جبريل ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيبا يعذب أحباءه ؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوما إذا جنهم الليل تملقوا لي ؟ فبي حلفت أنهم إذا وردوا على يوم القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إلي وأنظر إليهم[1] .

وقد اشتهر عن أبي سليمان الداراني ، أنه يستمد تصوفه دائما من الكتاب والسنة ، وهذا هو التصوف الإسلامي الحق .

يقول أبو سليمان في ذلك : ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة[2] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ – ٢٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٥

### ٨ — مدرسة بغداد :

لاشك أن بغداد كانت ذات يوم من أكبر المراكز العلمية الإسلامية ، بل كانت منبعا عظيما لكل العلوم الإسلامية ، ومنها التصوف الاسلامي، الذي استمد مصادره من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

وقد اشتهرت مدرسة بغداد الصوفية بزهد أهل البصرة ، وظهر أثر ذلك في العالم الصوفي الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٤٣هـ . كذلك اشتهرت بزهد أهل المدينة ، وظهر ذلك في الامام الجليل أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ .

وكان من أشهر صوفية بغداد، السرى السقطى المتوفى سنة ٢٥٣ هـ وهو أول من تكلم بها في علوم التوحيد ، والورع ، والمقامات والأحوال ، وكان له تلاميذ وأنصار حملوا مذهبه في الصوفية إلى كثير من البلاد الاسلامية .

وكان لهذه المدرسة خصائص ميزتها عن غيرها منها دراسة الحديث ، كذلك التوحيد وما يتصل به من المعرفة بالله ، والمحبة الالهية ، والفناء في الله ، والبقاء به .

كذلك كان من خصائصها : التحدث عن النفس وآفاتها ، والأحوال والمقامات الصوفيه ، كالوجد والشوق والقرب والأنس والغيبه والحضور والإيثار والذكر والتوبه ورؤية الله في الآخرة(١) .

---

(١) التصوف الإسلامي ومدارسه ، المرجع السابق ص٧ ، ١١١ ، نقلا عن أصول التصوف الأول ص ٢٠١ ومن الحياة الروحيه في الاسلام محمد مصطفى حلمى ص ٩٩ — ١٠٠

وقد نما التصوف وازدهر في هذه المدرسة ، فكثر مشايخه وبالتالي مذاهبه ، وذلك منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، ثم أخذ مشايخه ينظمون أنفسهم طوائف وطرقا يخضعون فيها لنظم خاصه بكل طريقه ، وكان قوام هذه الطرق ، طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذي يحقق لهم كمال العلم وكمال العمل ، وكان من هذه الطرق :

السقطيه : نسبه إلى السرى السقطى .

الجنيدية : نسبه إلى أبي قاسم الجنيد .

الخرازية : نسبه إلى أبي سعيد الخراز .

النورية : نسبه إلى الحسين النورى .

المحاسبيه : نسبه إلى الحارث المحاسبي .

الحلاجيه : نسبه إلى الحسين بن منصور الحلاج(١) .

---

(١) التصوف الاسلامي : المرجع السابق ص ١١٠

إن مسألة الصدر الأول الذى إستمد منه التصوف تعاليمه وأسسه ، أو المصادر المختلفة التى أستمدت منها الحياة الروحية بعض عناصرها ، كانت وما تزال موضعاً للجدل ومثاراً للخلاف فى الرأى سواء بين القدماء أو المحدثين . والواقع أن التصوف منذ أن نشأ إلى الآن كان محل أخذ ورد .

وقد اختلفت الآراء فى مصادر التصوف ، فطريق يرى أن التصوف إسلامى بحت ، وفريق آخر يرى أن التصوف أصله ومصدره فارسى أو هندى أو مسيحى أو يونانى ، أو هو مزيج من هذا كله .

ولكى يتبين لنا وجه الحق فى مسألة المصدر الأول الذى أستمدت منه الصوفية مبادئها . يجدر بنا أن نعرض أهم ما قيل بهذا الصدد من آراء مع مناقشة هذه الآراء وذكر أدلتها وبيان الرأى الراجح ، فنقول وبالله التوفيق .

## المصدر الإسلامى :

أول من قال بأن مصدر الحياة الروحية إسلامى هم الصوفية أنفسهم : سواء منهم أصحاب الأذواق والمذاهب ، كتاب الطبقات .

وقد ذهب مذهبهم فريق من المسلمين ليسوا بصوفية ، ولكنهم مع ذلك يناصرون الصوفية ، ويعطفون عليهم كثيراً أو قليلاً ، فأولئك وهؤلاء يرون حياة النبى -ﷺ- وأصحابه ، وأن الكتاب والسنة ، كل أولئك ، هو المصدر الحقيقى لكل ما تواضع عليه الزهاد والصوفية من قواعد الرياضة والمجاهدة ، وما انكشف لبصائرهم من أنوار الحقيقة فى المشاهدة [1] .

وهم يدعمون مذهبهم بأمرين :

**أولاً** : ما أثر عن النبى -ﷺ- من زهد وتنسك وتعبد .

(1) الحياة الروحية فى الإسلام د. محمد مصطفى حلمى ص٢٦،٢٧ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٠م

ثانياً : ما يستندون إليه من الأخبار التى تروى عن زهد النبى -ﷺ- وتقشفه ويؤيدون مذهبهم هذا بالآيات القرآنية والأحاديث القدسية والنبوية التى يرون فيها إشارات خاصة بذلك .

### ١ - الآيات القرآنية :

لقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى الزهد فى الدنيا والتحقير من شأنها ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [١].

وقوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ﴾ [٢] .

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم أستدل بها الصوفية لتأيد مذهبهم ومنها ما خاطب به الله ورسوله -ﷺ- فى قوله عز وجل : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [٣] فهذه الآية الكريمة ، وأن كانت لاتدل فى ظاهرها على أكثر من أن الله قد نصر المسلمين وأعز جندهم فى حربهم على الكفار فى غزوة بدر ، إلا أن الصوفية قد أولوها تأويلا حملوها فيه ما تحتمل وما لاتحتمل من المعانى التى يثبتون فيها مذهبهم فى أن الله وحده هو الفاعل المطلق الذى يصدر عنه ويرد إليه كل فعل ، وأن العبد من الرب بمثابة القلم من الكاتب الذى يمسك به ويحركه ويجرى به يده فيكتب ما يشاء .

ومنها قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [٥] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٦٤ .

(٢) سورة الحديد الآيــة : ٢٠ .

(٣) سورة الأنفال الآيــة : ١٧ .

(٤) سورة النور الآيــة : ٣٥ .

(٥) سورة البقرة الآية : ١١٥ .

فالصوفية يتخذون من هاتين الآيتين دعامة يقيمون عليها مذاهبـــهم فى وحـــدة الوجود ووحدة الشهود وتجلى الله فى مخلوقاته [1] .

وهناك آيات يستدلون بها لتأييد مذاهبهم فى التوبة والصبر والتوكل والتــأمل فى صنع الله ، ومداومة الذكر والعبادة والزهد فى الدنيا ، ومن هذه الآيات :

قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [3] .

وقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [4] .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ [5] .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [6] .

## ٢- الأحاديث القدسية :

عن ابى هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " يقول الله عز وجل " أنـــا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفســى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب منى شبراً تقربت إليه ذراعـــاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن آتانى يمشى أتيته هرولة " [7]

وقال -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه أيضاً : " من عادى لى ولياً فقد آذنته بـــالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقــــرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويـــده

---

(١) الحياة الروحية فى الإسلام ص٢٨ ، وأضواء على التصوف د. طلعت غنام ص٤٦ .

(٢) سورة النور الآية : ٣١ .

(٣) سورة هود الآية : ٥٢ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ٢٠٠ .

(٥) سورة الفرقان الآية : ٥٨ .

(٦) سورة آل عمران الآية : ١٢٢ .

(٧) أخرجه البخارى فى التوحيد باب قوله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ٤/ ٢٩٧ ، ومسلم فى الذكـــر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب الحث على ذكر الله تعالى برقم (٢) ٤/ ٢٠٦١ عـــن أبى هريـــرة ، وفى كتاب التوبة – باب الحض على التوبة والفرح بها برقم (١) ٤/ ٢١٠٢ عن أبى هريرة أيضاً .

التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألتنى لأعطيته ، ولإن استعاذنى لأعيذنـــه وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفسى المؤمن يكـــره المـــوت وأنـــا أكـــره مساءته »[1] .

فهذا الحديث وجد فيه أصحاب الأذواق والمواجيد من الصوفية مجالاً خصبا ومنبعاً فياضاً بمعانى الاتحاد الذى يقوم عندهم على فناء العبد فى الرب ، أو المحب فى المحبوب ، أو الخلق فى الحق .

## ٣- الأحاديث النبوية :

قوله -ﷺ- : « من عرف نفسه فقد عرف ربه »[2] .

وقال -ﷺ- عندما سأله جبريل - عليه السلام - ما هو الإحسان ؟ قـــال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تراه فإنه يراك »[3] .

وقال -ﷺ- : « أن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل » ، قال رجل : فمن هم ؟ وما أعمالهم؟ لعلنا نحبهم ، قال رسول الله -ﷺ- « قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحـــام بينهم ، ولا أموال يتعاطوها بينهم ، والله إن وجوههم لنور ، وإنهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » ، قالوا : ثم قـــرأ ﴿ ألاَ إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4] .

بهذه النصوص تبين فى وضوح وجلاء أن الحياة الروحية الإسلامية قد وجدت فى حياة النبى -ﷺ- وفى كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- مصدرها الأول الذى استمد منه

---

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق - باب التواضع عن أبى هريرة ٤/ ١٢٩ .

(٢) ذكره السيوطى فى الحاوى ٢/ ٤١٢ ، والدرر المنثرة ١٥٢ ، والعجلونى فى كشف الخفا ٢/ ٣٦٢ ، والقارى فى الأسرار المرفوعة ٣٥١ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان برقم (١) ١/٣٦ - ٣٨ عن عمر بن الخطاب .

(٤) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٥/ ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ بطوله وكلهم عن أبى مالك الأشعرى .

الصوفية أذواقهم ، ووجدوا فيه ما يؤيدون به مذاهبهم .

### ٤- حياة الرسول -ﷺ- :

يمكننا التمييز فى حياة النبى -ﷺ- بين فترتين : حياته قبل البعثة وحياته بعدها .

وفى كل فترة من هاتين الفترتين وجد الصوفية لأنفسهم مصدراً غنياً استمدوه من صنوف العلم وضروب العمل .

وبالتأمل فى حياة النبى -ﷺ- قبل نزول الوحى نجد أنها تنطوى على معانى الزهد والتقشف والانقطاع والتأمل فى الكون .

فقد كان -ﷺ- يتحنث فى غار حراء كلما اقبل شهر رمضان ، مبتعداً عن صخب الحياة ، زاهداً فى نعيمها وترفها ، متقللاً فى مأكله ومشربه ، ومتأملاً فى الوجود فأتاح له هذا كله صفاء القلب ، وكان تحنثه فى غار حراء تمهيداً لنبوته ، حتى نزل عليه جبريل - عليه السلام - بالوحى فقال له : اقرأ ، فقال الرسول -ﷺ- : ما أنا بقارئ ، حتى أمره جبريل بأن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] .

وكانت قراءته لها فاتحة عهد جديد فى حياته الروحية ، وبداية حياة جديدة انطوت على معانى الجهاد والصبر ، وأرقى مبادئ الأخلاق ، واقوى دعائم الإيمان والتصديق[2] .

أما عن حياته -ﷺ- بعد البعثة فقد كانت حياته التى يعيشها متصفة بالزهد من التقشف فى الملبس والمأكل ومن عكوف على العبادة حتى لقد نهاه الله عن المبالغة فى ذلك بقوله : ﴿ طه ۞ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ .

---

(١) سورة العلق الآيات : ١ - ٤ .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى ١/ ٢٠١ / ٢٠٢ ، وانظر الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٢ - ١٣ .

وهناك أحاديث كثيرة تدل على تعبده -ﷺ- ، منها على سبيل المثال : أن السيدة عائشة - رضي الله عنها - روت : أن النبي -ﷺ- كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكورا [1] .

وروت السيدة عائشة - رضي الله عنها - أيضاً : " أن النبي -ﷺ- كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى ، ثم اعتكف أزواجه من بعده " [2] .

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : سمعت رسول الله -ﷺ- يقول : « **والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة** » [3] .

وهناك أحاديث وردت عنه -ﷺ- تدعو إلى الزهد والتقرب بالنوافل والذكر والتوكل والصبر ، ومنها على سبيل المثال قوله -ﷺ- : « **ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس** » [4] .

وقوله -ﷺ- : « **إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وبصره بعيوبه** » [5] .

وحياته -ﷺ- مليئة بالعبر والعظات سواء في أقواله أو في أفعاله ، ولعل الصوفية قد وجدوا في زهده -ﷺ- مددهم الأولى من زهد وتصوف لانطواء حياته -ﷺ- على المعاني الخلقية والروحية .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد - باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه ١/ ١٩٨ ، والبخاري كتاب تفسير سورة الفتح ٣/ ١٨٩ عن عائشة بلفظه . وأخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة برقم ٧٩ / ٨٠ عن المغيرة بن شعبة ، وبرقم ٨١ عن عائشة ٤/ ٢١٧١ ، ٢١٧٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف - باب الاعتكاف للعشرة الأواخر والاعتكاف في المساجد ١/ ٣٤٤ ، ومسلم في الاعتكاف - باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان رقم (٥) ٢/ ٨٣١ .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ٤/ ٩٩ عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الزهد - باب الزهد في الدنيا برقم ٤١٠٢ عن سهل بن سعد الساعدي ٢/ ١٣٧٣- ١٣٧٤ بإسناد ضعيف ، وقال النووي عقب هذا الحديث : رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

(٥) البيهقي في شعب الإيمان عن أنس عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً الجامع ص٢٩ ح ٣٧٧ .

## ٥- حياة الصحابة :

كانت حياة الصحابة - رضوان الله عليهم - بما فيها من أقوال وأفعال منبعاً استقى منه الصوفية ، لأنها تدل دلالة واضحة على زهدهم وورعهم وتقشفهم ، وذلك واضح من خلال إقبالهم على الله وإعراضهم عن الدنيا ، وكلها أمور لا يستطيع أى باحث فى التصوف الإسلامى أن يغفل ما انطوت عليه حياتهم وأقوالهم من النزعة الروحية ، والأذواق القلبية ، لأنهم كانوا مقتدين بخير الخلق سيدنا رسول الله -ﷺ- ، ولنقف وقفات مع بعض الصحابة الأجلاء نتعرف على بعض ما تركوه لنا من مثال صادق على زهدهم فى حياتهم . فنقول وبالله التوفيق :

### أ ) حياة أبو بكر الصديق - رضى الله عنه .

كان -رضي الله عنه- ورعاً زاهداً تقياً نابذاً للدنيا تاركاً لأعراضها مقبلاً على الله بقلبه . ويروى عنه أنه كان يطوى ستة أيام ، وكان لا يزيد على ثوب واحد ، وكان يقول : " إذا دخل العبد العجب بشئ من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة " (١) .

وقد تحدث عن أثر التقوى وثمرة اليقين والتواضع فى حياته فقال : " وجدنا الكرم فى التقوى . والغنى فى اليقين ، والشرف فى التواضع " .

وتحدث عن المعرفة التى تتذوق بالروح وأثرها فى الحياة الروحية لمن يتذوقها فقال : " من ذاق من خالص المعرفة شيئاً ، شغله عما سوى الله ، واستوحش من جميع البشر " (٢) .

---

(١) الحياة الروحية فى الإسلام د. محمد مصطفى حلمى ص٢١ ، وانظر مدخل إلى التصوف الإسلامى د. أبو الوفا التفتازانى ص٥٩ .

(٢) الحياة الروحية فى الإسلام ص٢١ ، وانظر التصوف الإسلامى نشأته وأطواره د. جميل محمد أبو العلا ص٣٤ - ٣٥ .

وقد حكى عنه الجنيد - أحد كبار الصوفية - قال : **أشرف كلمة فى التوحيد قوله أبى بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته** [1] .

وحياة الصديق -[رضي الله عنه]- مليئة بالعبر والعظات ، ولا يتسع المقام هنا لذكرها .

**ب ) عمر بن الخطاب - رضى الله عنه :**

لقد كان عمر بن الخطاب -[رضي الله عنه]- صافى النفس طاهر القلب . حتى لقد قال عنه النبى -ﷺ- مخبراً عن ربه : « **ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه** » ، وكان عمر متقشفاً حتى ليروى عنه أنه كان يخطب وهو خليفة المسلمين وعليه قميص فيه اثنتا عشرة رقعة [2] .

وقد ذكر الطوسى عنه أشياء كثيرة منها :

☜ روى عن عمر -[رضي الله عنه]- أنه قال : " ما ابتليت ببلية إلا كان لله على فيها أربع نعم : إذ لم تكن فى دينى ، وإذ لم تكن أعظم منها ، وإذ لم أحرم الرضا فيها ، وأن أرجو الثواب عليه " [3]

☜ وروى عن علي -[رضي الله عنه]- أنه قال : " ما على وجه الأرض أحد أحب إلى أن ألقى الله تعالى بمثل صحيفته إلا هذا المسجى عمر ، رضى الله عنه " [4] .

وقد ذكر الطوسى عن اقتداء الصوفية بعمر ما نصه :-

ولأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر -[رضي الله عنه]- بمعانى خص بذلك عمر -[رضي الله عنه]- من ، اختيار لبس المرقعة ، والخشونة ، وترك الشهوات ، واجتناب الشبهات ، وإظهار

---

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامى ص٥٩ .

(٢) المرجع السابق ص٦٠ .

(٣) اللمع للطوسى ص١٧٤ .

(٤) اللمع الطوسى . تحقيق د. عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ص١٧٤ ط دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ( ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م ) .

الكرامات ، وقلة المبالاة ، من لأئمة الخلق عند انتصاب الحق ، ومحق الباطل ومساواة الأقارب والأباعد في الحقوق ، والتمسك بالأشد من الطاعات ، واجتناب ذلك ، مما روى عنه [1] .

ولكثرته اكتفينا بذلك ونحن بصدد الحديث عن سيدنا عمر بن الخطاب عليه من الله سحائب الرحمة والرضوان .

ج ) عثمان بن عفان – رضى الله عنه :

لقد كان -رضي الله عنه- زاهداً متقشفاً دائم التفكر فى الله والدأب على النظر فى كتاب الله بحيث كان يقضى نهاره طاوياً وليله محيياً ، وبحيث لم يكن ليترك النظر فى المصحف كل يوم وهو يقول : " هذا كتاب ربى ، ولابد للعبد إذا جاءه كتاب سيده أن ينظر فيه كل يوم ليعمل بما فيه ، وما فتئ كذلك حتى قتل والمصحف بين يديه " [2] .

وكان مجاهداً لنفسه يروى عنه أنه حمل حزمة حطب من بساتينه ، وكان له عدة مماليك ، فقيل له : لو دفعتها إلى بعض عبيدك ، فقال : " انى قد استطعت أن أفعل ذلك " ، فدل ذلك على أنه كان لا يدع مجاهدة نفسه ، فلا يركن إلى ما جمع من الأموال ، لأنه ليس فى ذلك تغيره [3] .

ويروى عن زهده ( مع كثرة ماله ) أن الانفاق كان أحب إليه من الامساك ، وليس أدل على ذلك من تجهيزه جيش العسرة ، وشرى بئر روقة ، حتى لقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : ما ضر عثمان -رضي الله عنه- ما فعل بعد هذا [4] .

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٢) الحياة الروحية فى الإسلام ص٢١ – ٢٢ .

(٣) اللمع للطوسى ص١٧٧ ، ومدخل إلى التصوف الإسلامى ص٦١ .

(٤) المرجع السابق ص١٧٦ .

وقد روى عن عثمان -رضي الله عنه- أقوال لها دلالة صوفية ، منها قوله : ( وجدت الخير مجموعاً فى أربعة أولها : التحبب إلى الله تعالى ، والثانى : الصبر على أحكام الله تعالى ، والثالث : الرضا بتقدير الله عز وجل ، والرابع : الحياء من نظر الله عز وجل ، فكأنه يتحدث عن مقامات أربعة من مقامات السلوك وهى : المحبة والصبر والرضا والحياء من الله ) [1] .

**د ) على بن أبى طالب – رضى الله عنه :**

كان -رضي الله عنه- زاهداً متقشفاً صابراً حتى لقد كان يرقع قميصه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين . لم هذا ؟! فقال : ( ليخشع القلب ويقتدى به المؤمنين ) [2] .

وقال عنه ابن عيينة : إنه كان أزهد الصحابة ، وشهد له الإمام الشافعى بأنه كان عظيماً فى الزهد ، والزاهد لا يبالى بأحد [3] .

وقد ذكر عنه الطوسى : بأنه كان -رضي الله عنه- له خصوصية من بين جميع أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لمعان جليلة ، وإشارات لطيفة ، وألفاظ مفردة ، وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان .. وغير ذلك .

وقام رجل إلى على بن ابى طالب -رضي الله عنه- فسأله عن الإيمان ، فقال : ( الإيمان على أربع دعائم : الصبر واليقين والعدل والجهاد ) ، ثم وصف الصبر على عشر مقامات ، وكذلك اليقين والعدل والجهاد ، فوصف كل واحد منها على عشر مقامات ، فإن صح ذلك عنه فهو أول من تكلم فى الأحوال والمقامات [4] .

---

(١) التصوف الإسلامى نشأته وأطواره د. جميل محمد أبو العلا ص٣٧ .
(٢) الحياة الروحية فى الإسلام ص٢٢ .
(٣) مدخل إلى التصوف الإسلامى ص٦٣ .
(٤) اللمع للطوسى ص١٧٩-١٨٠ بتصرف .

وقد كان -ﷺ- من أزهد الناس فكان يقول للدنيا : ( إلىّ تعرّدت إلىّ تشــوقت .. هيهات هيهات غرى غيرى لقد باينتك ثلاثاً فعمرك قصير ومجلسك حقير وخطـرك يسير آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق ) [1] .

وبعد أن عشنا مع خيرة الرجال بعد رسول الله -ﷺ- وهم صحابتــه وخلفائـــه الراشدون تبين لنا أنهم كانوا أزهد الناس وأن زهدهم لم يكن كزهد غيرهم ، لأنه زهد القناعة لا زهد الحرمان ، لأن الدنيا كانت بين أيديهم وطوع إشارتهم وإنما كان همــهم عبادة الله ونشر دينه فى كافة أنحاء الأرض ، ولذلك ضحوا بأرواحهم فى سبيل نصـــرة دين الله فأقبلت إليهم الدنيا تفتح أذرعها بين أيديهم ولكنهم لم يعتنوا بها ، بل أعرضوا عنها وزهدوا فيها ، وبهذا ضربوا لنا المثل الأعلى فى الزهد والاعــراض عــن الدنيـــا وزخارفها ، ولكن أريد أن أنبه أن الزهد لم يقتصر على الخلفاء الراشدين فقط بل كان هناك الكثير من صحابة رسول الله -ﷺ- ، فمثلاً أهل الصفة من الصحابة كان لهم أثر قوى فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية .

حتى أن البعض يذهب إلى أن اسم التصوف مشتق من اسمهم ، وقد كان أهـــل الصفة جماعة من فقراء المهاجرين والأنصار . لم يكن لهم أهل ولا مال ، فبينت لهـــم صفة فى مسجد الرسول -ﷺ- . والصفة مؤخرة فى المسجد انقطعـــوا فيـــها إلى الله وعكفوا على العبادة ورياضة النفس والتجرد من أعراض الدنيا وهم الذين قال الله فيهم مخاطباً حبيبه -ﷺ- : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِـــالْغَدَاةِ وَالْعَشِـــيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَــهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [2] .

**تعقيب** : بعد أن تحدثت عن المصادر الإسلامية أقول : هل مصـــدر التصـــوف الإسلامى إسلامى بحت أم لا ؟

---

(١) التصوف الإسلامى منابعه وأطواره ص٢٣ الشيخ صادق عرجون .

(٢) التصوف الإسلامى منابعه وأطواره الشيخ صادق عرجون ص٦٠ ، والآية من سورة الكهف رقم ٢٨ .

وللإجابة عن ذلك أقول :-

إن محاولة رجوع التصوف على النحو السابق هي محاولة صحيحة بمقدار ما كان عليه العباد والزهاد في العهود الأولى من الإسلام ، لأنه غلب عليهم التأثر بمنهج الإسلام الصحيح ، فالتطابق كامل بين ما كان هؤلاء الزهاد والعباد وبين ما يدعوا إليه الإسلام إلا أن ذلك لا يعد مبرراً لكلية الحكم وشموله لاسيما وأن التصوف في الإسلام لم يقف عند حالة واحدة على مر العصور ، فما لبث أن أصابه من التطور والتعديل في شكله وجوهره وأصله ومقصده مما جعل كما من الباحثين لا يستهان بهم يرون أن التصوف بما آل إليه واستقر عليه وما تضمنه من نظريات وما احتواه من مقولات ، وما أقره من سلوكيات غريبة لا يمكن تطويعها على النحو الإسلامي بحال من الأحوال ، ومن ثم فهو خارج عنه غريب عليه ، وهو ما نذكره بالتفصيل إن شاء الله في موضعه .

* * * *

## مصادر التصوف "الأصول التى قام عليها التصوف "

إن موضوع مصادر الحياة الروحية فى الإسلام فيها مذاهب شتى بين القدامى والمحدثين . وإن مسألة مصدر التصوف الإسلامى من المسائل التى كانت وما تزال موضوعاً للبحث ومثارا للجدل والخلاف بين العلماء سواء القدامى أوالمحدثين .

ويحاول المستشرقون وغيرهم من الذين يكتبون فى التصوف الإسلامى رد الحياة الروحية الصوفية فى الإسلام إلى أجنبية بحتة ، أو إلى عدة مصادر ، منها القرآن أو حياة الرسول صلوات الله عليه .

ففريق يذهب إلى أن المصدر عند الصوفية إسلامى بحت ، كما يقول د / محمد مصطفى : " بينما نجد الفريق الآخرين أن مصدر - التصوف هندى ، أو فارسى أو يونانى أو مسيحى أو هو أخلاط من هذا كله .

وقد صور الأستاذ ما سينيون (١). ما وقع فيه علماء السلام من حيرة حول هذه المسألة وما ذهبوا إليه من مذاهب شتى وذلك فى قوله ( أما دراسة مصادر التصوف فإن الأمد بيننا وبين استكمالها ما يزال بعيدا ، وقد حار علماء الإسلاميات الأول فى تعليل ذلك الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذهب وحدة الوجود الحالى ومذهب أهل السنة الصحيح : فذهبوا إلى أن التصوف مذهب دخيل فى الاسلام مستمدا إما من رهبانية الشام - وهذا رأى ماركس "MREX" وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زاد شتية الفرس ، وإما من "فيدا" الهنود ( وهذا رأى جونس-"Jones" (٢).

---

(١) من المستشرقين .

(٢) د/ محمد مصطفى : الحياة الروحية فى الاسلام ص ٣٣، ٣٤، وقارن : المنقذ من الضلال ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، وأحمد فريد فايد سعيد : راجع الفلسفة الهندية وأثرها على الأفكار الأخرى من ص ١٢٣ - ١٥٠ فى كتاب دراسات فى الفلسفة العامة ، ط١ /١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

وقد بين "نيكلسون" إن اطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الاسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأفكار التى اختص بها متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها إبان عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتقرئهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل (١). ويقول فى هذا المعنى الأستاذ / العقاد فى كتابه : الفلسفة القرآنية ، قوله : "لكن التصوف فى الحقيقة غير دخيل فى العقيدة الإسلامية أنه مبعوث فى آيات القرآن الكريم مستكن بأصوله فى عقائد الصريحة (٢).

وقد أوضح المستشرق "ماسنيون" فى هذا النص مدي اختلاف وجهات النظر حول مصادر التصوف الإسلامى وقد رد نشأة التصوف إلى عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث .

وهذا مالا نوافق عليه ، وذلك لأن ما عليه الزهاد والنساك والعباد، ما هو إلا استمرار للحيارة الروحية التى كان يحياها – محمد صلى الله عليه وسلم – قبل البعثة متعبدا فى غار حراء الليالى ذوات العدد، وفيما كان يعرض له من أحوال ويصدر عنه من أقوال بعد أن نزل عليه القرآن وصدر عنه الحديث .

وأيضاً فإن حياة الصحابة وغيرهم من النساك والزهاد والصوفية ليست إلا استمراراً لحياة روحية واحدة . وهى هذه التى شهدنا بعض آثارها فى تحنث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قبل الاسلام .

ولكن يتبين وجه الحق فى مسألة المصدر الأول الذى استمدت منه الحياة الروحية الإسلامية يحسن أن نعرض لأهم ما قيل بهذا الصدد من آراء ، مناقشين كل رأى منها والأدلة التى يستند إليها ، ومبينين مبلغ ما يمتاز به كل منها من قوة

(١) المنقذ من الضلال ص ٢٣٨ وقارن نفس النص فى كتاب : الحياة الروحية فى الإسلام ص ٣٤ ، وأنظر دائر المعارف الاسلامية مادة تصوف .

(٢) الأستاذ / عباس محمد العقاد القرآنية ص ١٥٠ –١٥١ .

أو ضعف .

١ - **نظرية المصدر الهندى :-**

يذكر "البيرونى" أن ديانات الهند القديمة - وخاصة السمنية ، والبراهمة - كانت مزدهرة فى العراق وفى خراسان وفى فارس و الموصل إلى حدود الشام .

ويقوم البيرونى بكبرتلك المهمة عندما يتبع مظاهر تأثير الديانات الهندية فى التصوف الاسلامى وعناصر ذلك التأثير عند بعض صوفية المسلمين وبيد أن (البيرونى) بذل جهدا كبيرا فى ذلك وكان خبيرا بديانات الهند وثقافتها غير أننا نأخذ عليه مبالغته فى إثبات ذلك التأثير وغلوه فى إثبات العناصر والأفكار الهندية فى التصوف الإسلامى عندما حاول أن يثبت ذلك التأثير والتأثر عند كل فكرة أو عنصر تشابه بين التصوف والديانة الهندية مع أن كثيراً من العناصر والأفكار المتشابهة ليس حتما أن يكون تشابهها عن طريق التأثير والتأثر، وخاصة إذا عرفنا أن الدين الاسلامى يحتوى على الفضائل والعناصر وعندئذ يكون الاتفاق بين فكرة وفكرة أو عنصر وعنصر ليس وليد التأثير والتأثر إنما هو وليد تبنى القيم العليا .

وأيا ما كان فقد أعطانا البيرونى نماذج لتأثر التصوف الاسلامى بالديانات الهندية سنعرض منها أهمها وهى التى نلمح فيها عنصر التأثير ظاهرا .

من ذلك فكرة الحلول والاتحاد التى يرجعها إلى أصل هندى ويرى أنها دخلت إلى أعماق - المسيحية - ثم انتشرت عند بعض صوفية المسلمين ، كما يرى أن فكرة قدم الأرواح والنفوس أخذها صوفية المسلمين من التراث الهندى ، ولكننا نرجح أن مصدر هذه الفكرة هى الفلسفة اليونانية وأفلاطون بوجه خاص الذى كان أقرب إلى - صوفية المسلمين فى مواطن تأثيره المتعددة فى العالم الاسلامى من الهنود (١).

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى ج٣ ص ٤٥ ، وأصول الملامتيه ص ٦٠ و ٦١ .

كما يعر[illegible] ( [illegible]ى) لفكرة الخلاص من الدنيا عند الهنود ويبين لنا كيف أنهم يذهبون إلى أن الابدان شباك الأرواح وأنها معانقة للجسد حتى تتخلص النفس من قالبه بالمعرفة وهنا تعرف لحظة انفصالها الدائم عنه ، ويعقب " وإلى قريب من هذا يذهب الصوفية فقد حكى فى كتبهم عن بعضهم أنه وردت علينا طائفة من الصوفية وجلسوا بالبعد عنا وقام أحدهم يصلى فلما فرغ التفت ، وقال لى ياشيخ تعرف هنا - موضوعا يصلح لأن نموت فيه فظننت أنه يريد النوم . فأومأت إلى الموضوع وذهب وطرح نفسه على قفاه وسكن ، فقمت إليه وحركته ، وإذ به قد برد" (١).

ويعرض ( البيرونى) وجه الشبه بين فكرة وحدة الوجود والاتحاد وتناسخ الأرواح والفناء وفكرة الخلاص عند الهنود ويقرر فى جرأة تأثير صوفية المسلمين ، وعلى هذا النحو نرى (البيرونى) يفيض فى وصف فلسفة الهند الدينية ، ومذاهبهم فى الله ، والموجودات الحسية والعقلية وتعلق النفس بالمادة ، وتناسخ الأرواح وطريق المعرفة والسعادة وكيفية الخلاص من الدنيا ، وهو فى كثير من هذه المواضع يقارن بين عقائد الهند والإسلام والنصرانية ومذاهب الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الجديدة ، والصوفية .

ولعل أهم العقائد الهندية التى لعبت دورا هاما فى التصوف الاسلامى هى عقيدة تناسخ الأرواح ، وما تسلم إليه مذهب فى الحلول ووحدة الوجود ، وفى اتحاد العقل والعاقل والمعقول ، بحيث يصيرا هذا كله شيئا واحدا (٢).

وقد سار على نهج (البيرونى طائفة من العلماء المستشرقين ، أمثال : هورتين "Horten" ، ويوشيه "Bgochet" ، وما سينيون "Massignon" وجولد زهير "Golod ziner" ، وجيجر "Geiger"، وبراون - "Brown" وأوليرى"

---

(١) البيرونى : تحقيق ماللهند من مقولة ج١ ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) الحياة الروحية فى الاسلام ص ٤٤ .

Olear، وريـنـان "Renan" ، وكوفمن "Kauman" ومـاكس هورمن -Horth-en واسيس بلاثيوس ويذهب هذا الأخير إلى أن التصـوف الاسلامى هو مـذهب الفيدا انتا ، الهندى كما يرى أن فكرة المحاسبة التى عند الحارث المحاسبى ذات أصل هـندى ، وأن فكرة الرضـا عند الصـوفيـة فكرة "بوذية" ويذهب غـيـره إلى استخدام الصوفية للمســابح عادة هندية ، وفى ذلك من الخطــأ والمـبالغة ما فيه (١)

**مناقشة دعواهم :-**

قضيه التأثير فى التصوف الاسلامى من قبل المستشرقين أو غيرهم من الباحثين لم تكن قد وضعت فى حجمها الصحيح فضلا عن المبالغة المجوجة والمشوهة ضد الفكر الاسلامى الصحيح ومن أجل ذلك فقد غالوا فيها وحاول بعض المستشرقين استغلال تلك الظاهرة ، وأخذوا يبالغون فيها حتى تورمت على أيديهم ، وشملت الفكر الاسلامى كله وكان قصدهم من ذلك النيل من الاسلام والمسلمين وإظهار المسلمين بمظهر الفقر الفكرى وعدم الأصالة وأنهم عالة فى كل شيئ على غيرهم وأخذوا ينفثون سمومهم على هذا النمط وانخدع بأقوالهم هذه كثير من الباحثين مسلمين وغير مسلمين ، مع أن أدنى نظر فى كلا مهم يبين لنا مدى حقد هؤلاء المستشرقين وافترائهم على الاسلام والمسلمين ، كبرت كلمة تخرج من أفوههم إن يقولون إلا كذباً .

ولقد كان اشتراك التصوف الإسلامى مع الديانة البرهمية فى عقيدة وحدة الوجود من أهم الدوافع التى حملت بعض الباحثين على اعتقاد أ ن مصدر التصوف التيوزوفى (٢). لا يمكن أن يكون إسلاميا ، وذلك لما يلاحظ من تعارض بين وحدة الوجود وهى الفكرة الكبرى فى هذا التصوف وبين عقيدة الاسلام

(١) انظر نيكسون : الصوفية فى الاسلام ص ٢٢ .

(٢) التصوف التيوزفى هو التصوف الإشراقى الذى يدور المذهب الرئيسى فيه على اتحاد العبد بالرب

الرئيسية فى التوحيد. على أننا إذا أنعمنا النظر في هذا التعارض ألفيناه ظاهريا أكثرمنه جوهرياً ، وتبينا أن ما ينتهى إليه الصوفية من إثبات لوحدة الوجود ليس فى الحقيقة إلا ضرباً جديداً من تذوق العقيدة الاسلامية فى التوحيد ، وإلا لونا مستحدثا من ألوان التعبير عنها ، تأثر فيه الصوفية المتأخرون بما عرفوه وأساغوه من حكمة الهند ودينهم وفلسفة اليونان وأنظارهم ، وبغير هذا من ثقافات الأمم القديمة ذوات الحضارات الراقية التى اتصل بها المسلمون ألوانا مختلفة من الاتصال فى عهود تاريخهم المتعاقبة وفى العهد العباسى بنوع خاص.

هذا هو مجمل الملحوظات والآراء التى يقدمها من ذكرنا من العلماء، وهى ملحوظات وآراء بعضها صحيح من الناحية الموضوعية ، وبعضها الآخر ما يزال فى حاجة إلى مزيد من التحقيق ولكن ليس من بينها على أى حال ما يقوم دليلا قاطعا على أن نشأة التصوف الاسلامى ، فضلا عن نشأة الزهد ترجع إحداهما أو كلتاهما إلى مصدر هندى ، ولعل كل ما هنالك من طرافه فى هذه الملحوظات والآراء أنها تقارب بين التعاليم النظرية والعلمية فى التصوف الاسلامى ، وما يمكن أن يعد نظيرا لها أو شبيها بها فى بعض المذاهب البراهمية والبوذية التى انطوت عليهما الكتب والتعاليم المعروفة عن هاتين الديانتين الهنديتين ، وليس من شأن هذا التقارب الذى يقرره بعض هذه الآراء أن ينفى ما سبق أن أثبتناه آنفا، وهو أن نشأة الحياة الروحية فى الإسلام كانت إسلامية ، وأن مصدر الزهد الذى جنح إليه الزهاد الأولون هو حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أن منبع المصطلحات الصوفية والمذاهب التى أقيمت على أساس من الذوق والوجد هو الكتاب والسنة ، وإلا فنحن لكى نثبت أن مصدر الحياة الروحية الاسلامية هندى ، برهمى أو بوذى مضطرون إلى أن نثبت أولا أن بعض التعاليم البراهمية ، أو البوذية فى الزهد والفقر والتفكر كانت شائعة فى تلك البيئة العربية التى نشأ فيها الرسول "محمد" صلى الله عليه وسلم ، سواء كان قبل الاسلام أو بعده .

تلك لعمرى مسألة مازال يعوزها الدليل المادى الذى لا شبهة فيه ولا غبار عليه ، وأكبر الظن أن المسلمين لم يعرفوا العقائد والفلسفة والعلوم الهندية معرفة دقيقة واضحة مفصلة قبل أن يؤلف "البيرونى" كتابه القيم (تحقيق ماللهند من مقولة) ، وهو ذلك الكتاب الذى يعد بحق أهم المراجع وأدقها وأوفاها فى ذلك الباب ونحن نعلم أن "البيرونى" انتهى من وضع كتابه هذا فى الربيع الأول من القرن الخامس للهجرة ، أى فى وقت متأخر عن الوقت الذى كان قد بدأ يتحنث فيه النبى ويتقشف أصحابه ، ويكثر من بعدهم الزهاد والعباد ، بل وعن الوقت الذى بدأ الزهد يستحيل فيه إلى علم نظرى وعملى له أذواقه ومجاهداته وحقائقه ومشاهداته ، يعرف تارة بإسم علم التصوف ، وتارة أخرى بإسم علم الباطن ، وأطوار مختلفة بأسماء أخرى تدل على مبلغ ما عرض لموضوعه من اتساع النطاق ، ولمذاهبه من امتداد الآفاق (١).

وهب أننا سلمنا جدلا برأى من قال بالتشابه بين وحدة الوجود- البراهمية والاتحاد الصوفى ، أو برأى من قال بهذا التشابه بين - النيرفانا - البوذية والفناء الصوفى ، فإنها لا نسطيع من ذلك أن نقرر لمجرد هذا التشابه أن الاتحاد أو وحدة الوجود أو الحلول عند الصوفية مستمد من العقائد المقابلة فى الديانة البراهمية ، ولا بأن الفناء أو الغيبة عن الحس والانسلاخ من النفس عند الصوفية مردود إلى النيرفانا - البوذية ، بل إنه ستظل هناك فروق جوهرية بين هذه وتلك ، وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن انتهاء مذهبين إلى نتيجة واحدة ، أو إلى نتيجتين متشابهتين ، لايعنينا دائما أن أحد هذين المذهبين متأثر بالآخر أو مستمد منه ، وإنما هو قد يعنى أيضاً أن نفوس الذاهبين إلى هذين المذهبين قد خضعت لظروف وأحكام نفسية واحدة ، الأمر الذى لابد معه من أن تنتهى هذه

---

(١) الحياة الروحية فى الاسلام ص ٤٦، ٣٧ ، وأنظر نيكلسون : الصوفية فى الاسلام ص ١١ ، ١٢، د/ عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٢٣٠- ٢٣٥.

النفوس إلى نتيجة واحدة ، أو إلى نتائج متشابهة .

وجملة القول أن الأثر الهندى فى التصوف الاسلامى ، أو فى أى مظهر من مظاهر الحياة الروحية أو العقلية الإسلامية ، كان ما يزال ضعيفا حتى إشراف القرن العاشر للميلاد على النهاية ( أواخر القرن الرابع للهجرة) لا سيما إذا قيس بالأثر الأفلاطونى الجديد ، أو بآثار النصارى من النساطرة واليعاقبة (١)، فى تاريخ الحضارة الإسلامية وهذا ينتهى بنا إلى أنه إذا كان ثمة تشابه بين التصوف الاسلامى فى أى صورة من صوره الأولى وبين بعض التعاليم البراهمية والبوذية ، فليس معنى هذا أن الصوفية أخذوا عن هذه أو تلك ، وتأثروا بها فيما عكفوا عليه من زهد وعبادة ورياضة ومجاهدة ،، وما عمدوا إليه من تأسيس علم ذوقى روحى موضوعه الحقيقة العلمية ، وغايته المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية ، وإنما معناه أن تلك العناصر الهندية (٢). من نظرية وعملية قد شاعت بين الصوفية بعد أن كان قد تحنث نبيهم ، وزهد أصحابه وتقشفوا ، ظن فريق من الباحثين أن بعض المذاهب والأنواق قد نسجت لأول مرة من خيوط إسلامية بحتة ، غير أن بعضها الآخر اصطبغ بصبغة هندية ، فى حين أن بعضها الآخر اصطبغ بصبغة فارسية أو نصرانية . أو يونانية ، على الوجه الذى سنبينه من خلال ما سنذكره عن بقية المصادر الأخرى للحياة الروحية الاسلامية .

**تعقيب :**

**والخلاصة :**

ـ نجد أن بطلان هذه الآراء ظاهرة من أن التصوف إسلامى بحت نشأ وترعرع فى البيئة الإسلامية ، فالزهد كان نتيجة طبيعية لميل العرب إلى حياة العزلة وأن التصوف والأسس التى قام عليها كلها ترجع إلى حياة النبى صلى الله

---

(١) مذاهب فى العقيدة النصرانية .

(٢) الحياة الروحية فى الاسلام ص ٤٨ وما بعدها .

عليه وسلم منذ صباه إلى أن لحق بالرفيق الأعلى كما بينا آنفا ، وعلى ذلك فالعزله والزهد والتقشف والتعبد والتبتل إلى الله تعالى الأسس الأولى التى قام عليها فعوامل قيام التصوف كانت موجودة لدى الرسول وأصحابه ، وأن المتأمل فى سيرته العطرة يستخلص منها الدعائم والأسس الأصلية للتصوف .

وأما ما زعمه المستشرق الهولندى "دوزى" "وريتشارد هاتمن" وماكس هورتين" فى زعمهم إرجاع التصوف الاسلامى إلى المصدر الهندى وهاك دعائم دوزى" يقول :-

١ - إن معظم أوائل الصوفية من أصل غير عربى ، كابراهيم بن أدهم وشقيق البلخى والبسطامى ويحيى بن معاذ الرازى .

٢ - إن ظهور التصوف كان فى بادئ أمره بخراسان .

٣ - إن مركز تلاقى الديانات والثقافات الشرقية والغربية كانت تركستان قبل الاسلام ، فلما دخل أهلها فى الاسلام صبغوه بصبغتهم الصوفيه القديمة .

٤ - إن المسلمين يعرفون بوجود الأثر الهندى فى التصوف .

٥ - إن الزهد الأول هندى فى نزعته وأساليبه ، فالرضا فكرة هندية الأصل واستعمال الزهاد فى سياحاتهم واستعمالهم للسبح عادتان هنديتان " (١).

فالدعوى بأن التصوف اصطبغ بالصبغة الهندية لا تنهض أمام القول بأن تصوف مشايخ خراسان ومدرسة نسيبور-وإن كانت له صبغة محلية إلى حد ما - فإنه متأثر بتيارات غير محلية وصلت إليه من مراكز التصوف الأخرى فى العراق والشام .

وأما قوله بأن التصوف ظهر أولا بخراسان ، فهذا لا يعنى أنه غير إسلامى ،

---

(١) مقال للمستشرق الهولندى "دوزى" عن مصدر التصوف الاسلامى عام ١٩١٦م - الترجمة العربية ص ٣٠ ، ٣١

وكم من الدعاوى التى ظهرت فى بلاد وكانت غريبة ولم تتأثر بتعاليمها فقد ظهرت البابية والبهائية فى العراق وإيران ولم تكن متأثرة بالتعاليم الاسلامية بل كانت كل تعاليمها باطنية مجوسية تدعوا إلى الإلحاد والإباحية .

وأما دعوى أن الأوائل كانوا من أصل غير عربى فإن التصوف لم يكن علما بمعنى الكلمة ، ولم تكن له قواعد إلا فى البيئة الإسلامية على يد أولياء القرن الثانى الهجرى من أمثال – السيدة رابعة ، وذى النون المصرى ، وأبو حامد الغزالى ، وابن عربى .

أما الزهد والرضا فورد ذكرهما فى القرآن الكريم على أنهما نموذجان للأخلاق والسلوك ، فقال الله تعالى حكاية عن إخوة يوسف وقومه حينما باعوه إلى العزيز ملك مصر آنذاك : " وشروه بثمن بخس دراهم معدودة كانوا فيه من الزاهدين " (١). وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ازهد ما فى أيدى الناس يحبك الله (٢).

فليست هذه الصفات هندية ولا غيرها ، وإنما أصلها جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية .

– "وما سينيون " يقوم بدراسة علمية منهجية لبحث المصطلحات الصوفية وإرجاعها إلى مصادرها الأولى ، فظهر بذلك العوامل التى ساعدت على نشأة التصوف الاسلامى وكان لها التأثير فى تكوينه وتطوره وكتب فى ذلك كتابا فى سنة ١٩٢٢م وانتهى فيه إلى أن مصادر والمصطالحات الصوفية أربعة :–

الأول : القرآن الكريم والسنة النبوية .

الثانى : العلوم العربية الإسلامية كالحديث والفقه والنحو وغيرهم .

الثالث : مصطالحات المتكملين الأوائل .

---

(١) سورة يوسف آية : ٢٠ .

(٢) سبق تخريجه :

الرابع : اللغة العلمية التى تكونت فى الشرق فى الستة قرون الأولى للمسيحية (كاليونانية والفارسية وغيرها ، وأصبحت لغة العلم والفلسفة .

وأخيراً نقول بأن التصوف الاسلامى قد أخذ نشأته من صميم الاسلام ذاته .

إلا أنه يؤخذ عليه أن كان بفكرة التأثير والتأثر فى القسم الثانى من أقسام التصوف وهو القسم (الفلسفى منه ) . وفكرة التأثير والتأثر من أخطر المزالق من يد الباحث الذى يتصدى لدراسة التيارات الفكرية والنظريات الدينية ، فإن الفكر الانسانى فى محاولته الوصول إلى الحقيقة وتصوره فلا يخضع لقانون العلة والمعلول خضوع المادة الجامدة لها ، فلا يكفى ظهور فكرة من الأفكار فى فلسفة ما ، ثم ظهور فكرة مماثلة لها فى فلسفة أخرى ، للحكم بأن الفلسفة الثانية متأثرة بالأولى إلا اذا وجدت واضحة مستمدة من الصلة التاريخية بين الفلسفتين .

أما "نيكلسون" فقد كتب أروع كتاب عن نشأة التصوف الاسلامى بقلم لا يعرف إلا الحق ولا يميل إلى القول بالتأثير والتأثر وكرس معظم سنى حياته فى دراسة مصادر التصوف العربية والعوامل التى ساعدت على نشأته ونموه فقد كتب فى كتاب "تراث الاسلام" مانصه : إن فيما يتصل بالمسائل الصوفية فى ناحيتها السيكولوچية (١) والنظرية ، فالغرب لا يزال يتعلم الكثير عنها ، فقد تعلم الغرب من مفكرة الاسلام ومتصوفيهم فى القرون الوسطى عندما كانت أشعة الفلسفة والعلوم المنبثقة من المراكز الثقافية فى أسبانيا ، تضيئ جميع أوربا - المسيحية ، فالتصوف كان الميدان الذى اتصلت فيه مسيحية القرون الوسطى بالاسلام اتصالا وثيقا وكان القديس (توما الاكوينى ) ودانتى من أخذ هذه التعاليم الاسلامية ، وقام نيكلسون " بمجهود كبير فى دراسة التصوف وبيان مصادره وعوامله وتاريخ نشأته ، ومن أهم الأبحاث التى عالج فيها قضية التصوف هى :-

(١) سيكولوچيا تعنى : سلوك الكائن تجاه مجموعة ردود الأفعال المترتبة على تجربته السابقة ، سواء أكانت مشتركة بين أفراد نوعه أم خاصة به ، راجع : المعجم الفلسفى لمجمع اللغة العربية أو دراسة الظواهر النفسية والقوانين التى تحكمها ص ٩٩ .

١ - كتابة دراسات فى التصوف الاسلامى سنة ١٩٢١م.

٢ - كتابة صوفية الإسلام سنة ١٩٩٤ م.

٣ - فكرة الشخصية فى التصوف الإسلامى ١٩٢٣م .

إلى غير ذلك من المقالات التى تبحث فى التصوف الاسلامى .

فقد ظهر له أول بحث فى مشكلة نشأة التصوف فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية عام ١٩١٦م. تحت عنوان "نظرة تاريخية فى أصل التصوف وتطوره " وقد جعله على قسمين :

القسم الأول : عرض فيه النظريات التى وضعها الباحثون من قبله فى طبيعة التصوف الإسلامى ونشأته ثم ذكر نظرياته الخاصة .

ويذكر فى القسم الثانى : ثمانية وسبعين تعريفا للتصوف باللغتين العربية والفارسية ، وقد أخذ - نيكولسين - بالتفرقة التى وضعها "جولد تسهير" بين حركة الزهد والتصوف فى الاسلام ، فأرجع الزهد إلى العوامل القوية فى داخل الاسلام - نفسه . وإلى انتشار الشعور بإعتزال العالم والهرب من الدنيا وويلاتها بين المسلمين فى القرن الأول ، وانتهى إلى أن الزهد الاسلامى وليد عوامل إسلامية فى صميمها ، والحق كل الحق ما شهد به الأعداء ، فأنا مع - نيكولسون - فى أن الزهد - كما قلت آنفا- إسلامى بحث وليد التعاليم الاسلامية من القرآن والسنة وسيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين ..

**٢ - زعم نظرية المصدر الفارسى فى التصوف الاسلامى :-**

نجد من المستشرقين من يزعم أن التصوف الاسلامى ليس وليد الكتاب والسنة ولا الثقافة الاسلامية وإنما وليد المصدر الفارسى ، ويستدلون على ذلك كما يقول د/ محمد مصطفى بقوله : بما يحدثنا به التاريخ من وجود صلات اجتماعية وثقافية ودينية بين الفرس والعرب فى مختلف العصور ، كما يستدلون بأن فريقا كبيرا من شيوخ الصوفية الأفذاذ الذين ظهروا فى العهود الأولى للتصوف كانوا

من الفرس ، غير أن اتصال العرب بالفرس وإن كان من الناحية التاريخية فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نتبين في وضوح وجلاء أن العقائد الدينية الفارسية والأنظار الفلسفية قد انتقلت عن طريق هذا الاتصال في صورة واضحة إلى العرب ، وتغلغلت في نفوسهم وعقولهم تغلغلا قويا يمكن أن يقال معه : إن التصوف بصفةخاصة كان أثرا من آثاره وثمرة من ثمراته (١).

**مناقشة دعواهم :-**

ويمكن رد التأثير الفارسي إذا علمنا أن العرب لم يستطيعوا رغم العلاقات التي نشأت بينهم وبين الفرس قبل الاسلام أن يهضموا عقائد الفارسيين وفلسفاتهم ولم تظهر آثار حضارتهم في حياة العرب السياسية أو الاجتماعية ، أو الدينية ، وإلا لا نتقلوا بها من البداوة إلى التحضر ومن عبادة الأوثان إلى عبادة النيران ، ولكننا رأيناهم على حالهم وعقائدهم ولم يرد إلينا أن قبيلة عربية قد اعتنقت الأفكار الفارسية .

ومن ناحية أخرى فإن الفارسيين حتى في الساعات التي كانوا فيها ، ينتصرون على عدوهم كالرومان مثلا لم يفكروا في نشر المجوسية أو إحلالها محل الأديان التي اكتسحت جيوشهم ودیارها ، كما هو رأى الدكتور محمد حسين هيكل (٢) وهكذا ظل العرب جامدين محافظين على قديمهم حتى جاء الاسلام فأخرجهم من هذا الجمود ودعاهم إلى التأمل والتدبر والنظر .

وطفقت عقولهم تنهل من معين الثقافة الجديدة التي لا ترجع في أصولها إلا إلي الوحي ، حتى في تلك الأوقات التي دانت فيها فارس لحكم الإسلام وامتزجت الدماء العربية بالفارسية وحدث المزج والتزواج وتوطدت الصلات لم يقبل لعرب شيئا من أفكارهم في البداية لما يجده الفاتح من استعلاء بقوته ونظرياته ومن

(١) الحياة الروحية في الاسلام ص ٤٩ ، وما بعدها .

(٢) د / محمد حسين هيكل : حياة محمد عن التصوف الاسلامي في ميزان الكتاب والسنة ج١ ص ٣٥١ .

إعزاز بدينه ومبادئه ، ومن النظر بعين الإزدراء والمقت لغير ما يتفق مع عقيدة المسلم وشرعه خاصة إذا كان الإسلام فى صلب آيات القرآن قد هاجم المجوسية والمشركين عامة فى قوله سبحانه "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة" (١). ولما كان الحرب سجالا بين المسلمين وهؤلاء الذين ظلوا على مجوسيتهم من الثنويين والدهريين وهم المذهبان المنتشران فى فارس ،وقد اعترف بتلك الحقيقة (دى بور) (٢). ولم تهدأ هذه المناظرات ولم يقبل المسلمون على تشرب الأفكار الأجنبية إلا بعد أن ضعف الوازع الدينى عند المسلمين وهزل سلطان الدولة فى أن ضعف الوازع الدينى عند المسلمين وهزل سلطان الدولة فى وقت كان التصوف فيه قد نشأ وتطور وشق دوره بمقوماته السنية بين العلوم الإسلامية الناشئة .

وعلى كل من قال غير ذلك ، أو ادعى أن التصوف يرجع إلى جذور فارسية فعليه أن يثبت الصلات التاريخية بين الديانات الفارسية وبين هذا العلم ، وأن يوضح لنا متى تغلغلت عقائد المانوية والماذدكية والزراد شتية فى نفوس المسلمين ؟ ولا شك أن تحقيق هذه المسألة بأسانيدها التاريخية أمر يبدوا عسيرا جداً بإعتراف الأستاذ "براون" (٣)، الذى يعد من أكبر الباحثين فى تاريخ الفرس وحياتهم العقلية والأدبية، كما يرفض - نيكلسون - أن يكون التصوف ردفعل للعقلية لآرية أو وليد العقل الفارسى لأن أكثر رجال التصوف كانوا من أصل فارسى (٤). مبينا أن الدلائل على ذلك غير كافية وحجته مشوهة ناقصة .

---

(١) سورة الحج آية : ١٧ .

(٢) دى بور تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٣ ، والتصوف الاسلامى فى ميزان الكتاب والسنة ج١ ص ٢٥٢ .

(٣) الحياة الروحية فى الاسلام ص ٥٠ .

(٤) كمعروف الكرخى ، سيدى أبى يزيد البسطامى ، وغيرهم .

ثم يقول " لا أعتقد أن أحدا ممن درس المسألة دراسة تاريخية ينكر على النتيجة التى وصلت إليها وهى أن الأمر لم يكن كذلك إطلاقا ، نعم كان معروف الكرخى من أصل فارسى ولكن الكلام فى الأحوال والمقامات وما إلى ذلك من المسائل التى هى من صميم التصوف لم تظهر إلاعند رجال أتو بعده أمثال أبى سليمان الدرانى وذى النون المصرى اللذين عاشا فى الشام ومصر ، ولم تجر فى عروقهما نقطة واحدة من الدم الفارسى (١). ويضيف أن رواد التصوف من أهل سوريا ومصر كانوا عرب الجنس (٢). ونحن نوافقه على رد التأثير الفارسى أما الحديث عن المقامات والأحوال فكان شائعا فى الجزيرة العربية والبصرة قبل الشام ومصر .

**- زعم نظرية المصدر النصرانى فى التصوف الاسلامى :-**

فريق آخر من المستشرقين يزعم بأن مصدر التصوف الإسلامى إنما هو مأخوذ من الرهبنة المسيحية وذلك بزعم أن المسيحية كانت منتشرة فى شبه الجزيرة العربية ، وفى كثير من الأمم التى امتدت إليها الفتوحات الاسلامية كما أن كثيرين من المسيحيين كان لهم دور كبير فى حركة الترجمة فى الدولة الاسلامية يضاف إلى ذلك أن كثيرين من صوفية المسلمين كانوا مسيحيين أويرجعون إلى أصول مسيحية ومعنى هذا أنه ليس بمستبعد من وجهة نظر المستشرقين أن التصوف فى أصله ومصدره يرجع إلى أصل مسيحى وإلى الرهبنة المسيحية وأن فكرة الزهد الصوفى مأخوذة من المصدر المسيحى .

---

(١) نيكلسون : الصوفية فى الاسلام ص ١١ ، ١٢ .

(٤) فضيلة أ.د / عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٣٣٠ ، ٣٣١ ، نقلا من التصوف الاسلامي ميزان الكتاب والسنة ج١ ص ٣٥٣ .

## مناقشة دعواهم :-

أما مايزعمه بعض المستشرقين من أن التصوف الإسلامى أخذه الصوفية المسلمون عن النصرانية فذلك مالا سبيل إلى موافقتهم عليه لا سيما وأن من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ما يدل دلالة واضحة قوية على أن لهذه الأمور مصدر إسلاميا صريحا .

فقد زهد القرآن الكريم فى الدنيا وحث على التقلل ، منها ، وذلك فى قوله تعالى : "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيئ مقتدراً . سورة الكهف آية : ٤٥ .

وفى قوله تعالى :"أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (١).

وكما يدل على ذلك أيضا قول الرسول صلى الله عليه وسلم :-

"إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها (٢).
وقوله " لو كان لى مثل أحد ذهبا ما سرنى ألا تمر على ثلاث ليال وعندى منه شيئ إلا شيئ أرصده لدين (٣). وقوله أيضاً " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٤).
وقوله : " ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس (٥).

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٥ . (٢) رواه البخارى فى الزكاة ص ٤٧ والجهاد ص ٣٧ ورواه الامام مسلم فى الزكاة ص ١٢١-١٢٣ والنسائى فى الزكاة ص ٨١ ، وابن ماجه فى الفتن ص ١٨ والامام أحمد بن حنبل ج٣ ص٧. (٣) رواه البخارى فى التمنى ص٣ ، والزكاة ٤ ، والاستقراض ٣ والاستئذان ، ٣ والرقاق ١٤ ومسلم فى الزكاة ٥٣ والامام أحمد فى مسند ، ج٣ ص ٢٥٦ ، ٣١٦ . (٤) رواه الامام مسلم فى الزهد ١، ٥ والترمذى فى الزهد ١٦ ومسند الامام أحمد ج٢ ص ١٧٩ .
(٥) رواه ابن ماجه فى سننه كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا ص ١٣٧٣ .

فكل أولئك آيات وأحاديث واضحة المعانى صريحة الدلالة على أن للزهد الذى أخذ الزهاد والصوفية به أنفسهم أصلا فى كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك الفقر ورد فيه ما يثبت إكبار الله بشأن الفقراء مثل قوله تعالى "للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا (١). ومثل قوله تعالى أيضاً للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون (٢).

ومن هنا لم يكن صحيحا قول أحد المستشرقين فى زعمه وهو "جولد زيهر" بأن مدح الفقر وإيثاره على الغنى كان من العناصر النصرانية التى تسربت إلى الحديث ، بل الصحيح هو أن يكون "محمد" فى حياته وفى أحاديثه قد ثار على نهج القرآن ، ودعا إلى مادعا إليه من هذه المثل العليا ، فى القول والعمل ، وفى الإعراض عن زينة الحياة الدنيا ، والاقبال على التقوى والعمل الصالح (٣).

وكذلك ما يذهب إليه (نيكلسون) من أن الصمت والفكر اللذين يصطنعهما الصوفية فى رياضتهم ، مأخوذ عن النصرانية (٤). مردود عليه بأن الاسلام أمر بأن يذكر الانسان ربه بينه وبين نفسه كما يدل على ذلك قوله تعالى : " واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين (٥).

وأما الذكر فهناك الآيات والأحاديث التى تدعوا إلى الذكر ، وتعظيم من شأن الذاكرين ، وأجرهم كثير يكفى أن نثبت منها قوله تعالى : " فاذكرونى أذكركم وأشكروا لى ولا تكفرون (٦).

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٣ . (٢) سورة الحشرآية : ٨ .
(٣) انظر الحياة الروحية ص ٥٤ . (٤) أنظر الحياة الروحية ص ٥٤ .
(٥) سورة الأعراف : ٢٠٤ . (٦) سورة البقرة : ١٥٢ .

وقوله تعالى : يأيها الذين امنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما (١).

وقوله صلى الله عليه وسلم أيضا : إن لله ملائكة سيارة فضلاء يتبعون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا (٢).

ومثل هذا يمكن أن نوجهه فى الرد على من قال : بأن نظرية الحب الالهى فى التصوف الاسلامى مستمدة من مصدر نصرانى.

فنحن إذا أمعنا النظر فى الكتاب والسنة ، ألفيناهما حافلين بالنصوص الصريحة ، التى تدل دلالة بية على أن هذه النظرية الصوفية الكبرى ، قد استمدت عناصرها الرئيسية من كتاب الله وسنه رسوله .

فليس صحيحا أن نوقف التصوف برمته على المسيحية ورهبانها أو نزعم أنه عالة عليهما ، وتعزى كل فكرة فيه إليهما ، وإنما نقول أنه ليس للمسيحية تأثيراً على التصوف الاسلامى .

وتلك النتيجة كانت ملائمة طبقا لما يمليه الكتاب والسنة ، وهذا ينتهى بنا إلى أن مذاهب الصوفية ترجع فى أصلها إلى مصدر إسلامى ، غير أنها بمرور الزمن ، وبحكم اتصال الأمم ، واحتكاك العقائد ، قد دخلت فيها عناصر نصرانيه ، فتشابهت المذاهب الصوفية والتعاليم النصرانية ، وظن أن الصوفية أخذوا أول ما أخذوا عن النصرانية ، والواقع أن مرجعهم الأول هو كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الأمور الأخرى فقد ظهرت بعد ذلك ، أى بعد أن كانت قد وضعت الأحجار الأساسية التى أقيم عليها صرح الحياة الروحية الاسلامية ، وجلها ، إن لم يكن كلها أحجار مركبة من مواد اسلامية .

(١) سورة الأحزاب : ٤١ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢/٢٥١، ٢٥٢ .

**عم نظرية المصدر اليونانى فى التصوف الاسلامى :-**

وأما بالنسبة للأقوال التى تردد بأن التصوف الاسلامى يونانى وأن تلك الفلسفة كان لها الآثر الأكبر لدى بعض المستشرقين فى تشكيل التصوف الاسلامى .

**مناقشة دعواهم :**

فنحب أن نقول : إن ذلك المصدر اليونانى لم يكن فى حياة التصوف الاسلامى التى عاشها فى ظل القرون الخمسة الأولى للهجرة ، شيئا بالقياس إلى المصدر الاسلامى ، وها هو الامام الغزالى ، وقد كان متكلما وفيلسوفا وعالما بمذاهب الفلاسفة اليونان ، وله فى بسط المذاهب الفلسفية كتاب هو (مقاصد الفلاسفة ) .

وفى تفنيد هذه المذاهب والرد على أصحابها ، ودحض حججهم ، كتاب آخر هو :- ( تهافت الفلاسفة) ولكنه ، فيما سلك من طريق الصوفية ، وما ذهب إليه من مذاهب ذو قيمة ، وما أسداه إلى الحياة الروحية من خير عظيم إنما كان فى هذا كله صوفيا ، وصوفيا مسلما بنوع خاص يقيم أذواقه ورياضاته ومذاهبه الروحية على أساس من الكتاب والسنة وليس أدل على ذلك من كتابه الخصب "إحياء علوم الدين" فإنه مرآة صادقة تدل على أن " الغزالى "الصوفى ، وإن كان الكثير من كتبه حافلا بالآثار الفلسفية اليونانية ، إلا أن الروح الاسلامى كان عليه أغلب ، ورجوعه إلى كتاب الله وسنة رسوله ، كان مذهبه الروحى أكثر وأخصب ، وليس أدل من ذلك أيضا ، من أن الغزالى رفض رأى الاتحادية وهو رأى أقره ابن سينا مرة فى كتاب (النجاة) ، ورفضه مرة أخرى فى كتاب الإشارات .

ويحاول فضيلة الأستاذ الدكتور / عبد الحليم محمود ، أن يحدد لنا مواطن النزاع فى هذه القضية ، قضية التصوف ، والمصادر الأجنبية فيقول :

لقد وقف الكاتبون من التصوف مواقفهم من الثقافة الكسبية التى يتأتى فيها التأثير والتطور ، والتقليد فالكاتب أو الشاعر أو المفكر على وجه العموم التى يستمد ثقافته من البيئة الخارجية ، يتلون ويتشكل بما يقرأ ، وبما يدور حوله وبما يتشرب به من بيئته ونتاجه .

إذن إنما هو أثر لما دخل حياته من البيئة الخارجية ، اللهم إلا إذا كانت له أصالته التى تسمو عن أن يكون صدى الوسط الذى يعيش فيه ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادى .

وإذا أردنا أن نتحدث فى تحديد ودقة ، فإننا نرى أن – المشكلة التى نحن بصددها تتفرغ إلى أمرين .

١ – الاتجاه إلى الصوفية ، أو النزعه إلى سلوك الطريق الصوفى .

٢ – الشعر الصوفى .

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوفى ، فله مؤثراته الداخلية البحته وهى مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية أكثر من أن تتصل بعامل خارجى ، لابد إذن من أن يكون الاستعداد الشخصى الفردى الفطرى موجودا مهيئا ، ويكفى لأن يسلك عمليا هذا الطريق : كلمة أو فكرة ، أو إشارة ، أو حادثه من الحوادث فيأخذ فعلا فى سيرة نحو الله تعالى : " إنى ذاهب إلى ربى سيهدين (١).

هذا العزم والتصميم الذى يتشمل فى هذه الكلمة الكريمة لابد له من الاستعداد الفطرى ، ليس فلسفية أفلاطونية ولا فيضانية هندية ، ولا زاد شتيه فارسية .

وقد يكون المتجه إلى التصوف قارئا للأفلاطونية الحديثة أولا يكون ، وقد يكون على علم بعقائد الهند أولا يكون ، ، فالمتخصص فى الأفلاطونية الحديثة لا يفيده تخصصه هذا – ولا قلامة ظفر – فى أن يكون صوفيا ، وكذلك الأمر فى التخصص فى عقائد الهند .

---

(١) سورة الصافات آية : ٩٩

وقد قرأ الامام الغزالى كتب الصوفية أنفسهم ، ويحدثنا بذلك فيقول :- " فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ،

مثل " قوت القلوب؛ لأبى طالب المكى رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلى ، وأبى يزيد البسطامى ، قدس الله أرواحهم - وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى أطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعلق والسماع .

ولكن ذلك لم يجعل منه صوفيا ؛ ولم يكن الامام الغزالى بهذه الكتب ولا بمطالعته لفلسفة اليونان ، ودراسته لها دراسة عميقة صوفيا ، ولكن تبين أن أخص خواصهم - على حد تعبيره- مالا يمكن الوصول إليه بالتعليم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

وليس التصوف إذن ثقافة كسبية تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما هى ذوق ومشاهدة ، يصل الانسان إليها عن طريق الخلوة والرياضة ، والمجاهدة والاشتياق ، بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ..

المشاهدة الصوفية ليست ثقافة كسبية ، إذن لا يتأتى التحدث عن مصادرها الخارجية - أيا كانت هذه المصادر ..

ووضع المسألة إذن موضع النظر والبحث والدراسة : إنما هو وضع خطأ لا يفعله ولا يقوم به إلا من لا يفهم التصوف ، ولم يسهم فى تذوقه بقليل ولا كثير ، والنتيجة التى نريد أن نصل إليها إذن ، أن الاتجاه نحو التصوف والنزوع إليه إنما هو فطرة واستعداد .

أما الذوق الصوفى والشعور الصوفى والمعرفة الصوفية فإنهما استعداد من مصدر النور والهداية (١).

---

(١) انظر الامام الغزالى : المنقذ من الضلال مع أبحاث فى التصوف الاسلامى د/ عبد الحليم محمود ص ٢٣٩-٢٤١ .

أما حينما نشأت الحضارة اليونانية ، ولم تكن هذه الحضارة مرتكزه على دين صحيح ، ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثانية ، فإن الأموربدأت تختلط ، وبدأ الحدود تزول – نوعا ما بين ميادين المعرفة وبدأت بالتالى ، تضطرب الأمور ، فيما يتعلق بأدوات المعرفة ، ومع ذلك فإن هذه الحضارة اليونانية القديمة نفسها – فى بعض صورها – كانت تسير على نهج الحضارات الصحيحة : هندية كانت أو مصرية ، فهذا مثلا "فيثاغورث" ومدرسته : كانوا يسيرون فى المعرفة على أسس صحيحة ولكن وجد بجوار "فيثاغورث" من انتهجوا النهج العقلى ، فى معرفة ماوراء الطبيعة ، وبدأ الأمر يختلط حتى كان "أرسطو" فذهب بهذا الخلط إلى أقصى مداه ، واضطرب الأمر بسببه اضطرابا لا يزال العالم يعانى الكثير من آثار انحرافه إلى الآن .

إن إدخال العقل فى مسائل – ما وراء الطبيعة : انحراف يؤرخ بالعصر اليونانى ،، ولكن هذا الانحراف لم يكن خفيا أمره – فى العصر اليونانى ، وفيما تلاه من العصور – على كثير من ذوى البصائر النافذة الذين اتخذوا من الآثار المقدسة ملجأ وعصمة ، والذين اتخذوها شعارا وعملوا بها ، وتشربتها أرواحهم حتى أصبحت وكأنها فطرة فيهم . "فقادتهم ما وراء الطبيعة ، أو شهود التوحيد ، فانضوا تحت لواء الآية الكريمة : "شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ..." (آل عمران آية ١٨).

إنهم أولياء الله ، إنهم " الصوفية " .(١)

وأخيرا نؤكد نتيجة لما سبق أن التصوف عربى إسلامى ، كما أن القرآن الكريم الذى يستمد التصوف أصوله من مباشره – عربى إسلامى .

وإذا كان التصوف يستمد التصوف أصوله من القرآن فمن الطبيعى أن

---

(١) المصدر السابق صـ ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

لايوجد قبل أن يفهم القرآن ، ويفسر ويتدبر ، ولقد فسر القرآن أولا لغويا ومنطقيا وكلاميا ، ولكن تفسيره صوفيا اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول.

وروى عن أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – أنه قال ثلاث آيات فى كتاب الله عز وجل يستغنى بها عما سواها أحدهما قوله :" وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله" (١).

فعلمت أنه إن أرادنى بخير لم يقدر أحد أن يرفع عنى غيره ، وإن أرادنى بشر لم يقدر أحد أن يصرف غيره.

والثانية : قوله " فاذكرنى أذكركم " (٢) . فاشتغلت بذكر الله تعالى عن كل مذكور سواه **والثالثة** : " ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها " (٣)

فوالله ماهتممت برزقى منذ قرأت هذه الآية .

**٥ - زعم نظرية مصدر الافلاطونية المحدثه فى التصوف الاسلامى :**

لقد وجدنا اتجاها آخر للمستشرقين يزعمون فيه أن مصدر التصوف الاسلامى إنما يرجع إلى الأفلاطونية المحدثة ، وهذه الفلسفة لا هى عقيلة خالصة ولا هى دينية بحته ، بل هى مزاج من النظر العقلى ،الإلهام الروحى ، وهذا ما تمثله الأفلاطونية الجديدة .

وقد عرف المسلمون الأفلاطونية المحدثة أثر حركة الترجمة التى ازدهرت بدءا من القرن الثانى الهجرى وكانت أقرب إليهم وأشد تأثيرا عليهم من غيرها من الفلسفات اليونانية وخاصة فى الأوساط الكلامية والصوفية(٤). وقد عرف المسلمون (أفلوطين) من خلال تاسوعاته التى نسبت خطأ إلى (أرسطو) حتى تبين فيما بعد أنه تاسوعات – أفلوطين– وكان تصوف (أفلوطين) ، فلسفيا ولم يكن

---

(١) سورة الأنعام : ١٧ . (٢) سورة البقرة : ١٥٢ . (٣) سورة هود : ٦ .

(٤) كان تأثير أفلاطون وأفلاطين أكثر على الأوساط الكلامية والصوفية المسلمين بينما كان تأثير (أرسطو) أكثر على جماعة الفلاسفة المسلمين وهذا اتجاه معروف لدى الفلسفة الاسلامية .

دينيا غير أنه كان يخضع بسهولة للتفسير فى ظل الالهيات (١).

ويقول أصحاب هذا الاتجاه بتعدد الأفكار الأفلاطونية المحدثة التى تسربت إلى التصوف الاسلامى وامتزجت بعناصره الأخرى ، ويضربوا ببعض الأمثلة على ذلك :

فيرجعون نظرية الصوفية فى الكشف والشهود أفلاطونية محدثه فى صميمها ، كذلك نظرياتهم فى المعرفة وفى النفس وهبوطها إلى هذا العالم وفى العقل الأول والنفس الكلية ، إذ أن الأفلاطونية المحدثه وبوجه خاص أفلوطين زعيمها الروحى قد ركزت فى فلسفتها على صله النفس بالبدن من جهة وصلتها بالملأ الأعلى أو بالعقل الفعال من جهة أخرى ، ورأت أن البدن سجن للنفس وأنه مصدر كل الشرور والآلام ، وأن المعرفة الحقه لا تتأتى إلا بعد التخلص من البدن ومن همومه (٢).

**مناقشة دعواهم :**

إنه على الرغم من ظهور بعد العناصر الفلسفية فى أقوال فريق من الصوفية وهم أصحاب القسم الثانى من أقسام التصوف وهو : التصوف الفلسفى كالفارابى وابن سينا وغيرهم ، فإن هذه العناصر لم تشع بين الصوفية ، ولم تتأثر بها أذواقهم ومذاهبهم تأثرا قويا ظاهرا إلا فى ذلك الدور المتأخر الذى بدأ الصوفية فيه يمزجون علمهم وفنهم بهذه العناصر الفلسفية فكان من ذلك ما نجده من تصوف ، - تيوزوفى- وحكمة إشراقية هما أدنى ما يكونان إلى الأنظار الفلسفية منها إلى الأذواق الصوفيه ، أو هما قد مزجا بين ما هو من حظ العقل ، وما هو من حظ القلب ، وأخرجنا لنا من ذلك نسقا واحد مؤتلف العناصر متسق الأجزاء (١).

---

(١) د/ فيصل : التصوف ص ٧٠ ، وأصول الملامتيه ص ٥٨ .

(٢) د/ أبو العلا عفيفى : التصوف الثورة الروحية فى الاسلام ص ٧٩ ، وقارن : د/ محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية ص ٦٩ .

وإذا سلمنا بأن هناك تأثيرا للأفلاطونية المحدثه فى جانبها المعرفى على التصوف الإسلامى ، والذى كان متأخرا بعد نشأة التصوف السنى فإننا نرى أن هذا التأثير يكاد يكون محدودا وكان عند متفلسفة الصوفية بوجه خاص الذين بالغوا فى الحديث عن تجريد النفس من البدن واتصالها بالملأ الأعلى أو بالعقل الفعال ، إما غير هؤلاء من أصحاب التصوف السنى فقد كان مصدرهم فى المعرفة إسلاميا عن طريق العلم اللدنى (١). الذى ذكره القرآن أو شفافية النفس .

وقد تحدث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه فيما معناه : " لو أن فى أمتى محدثين لكان منهم عمر ، إذن فلا ينبغى للمستشرقين أو غيرهم ممن نهجو نهجهم أن يغالوا فى تأثير الأفلاطونية المحدثه ، ونغزوا إليها الجانب المعرفى فى التصوف الاسلامى ، .أن الالهام ) فيما يتعلق بالمعرفه موجود فى الاسلام وعند المسلمين ، وذلك قبل ظهور لفلسفة وترجمتها ومعرفتها عند المسلمين .

وإذا كان المسلمون قد عرفوا الأفلاطونية المحدثة فى جانب المعرفة فإن ذلك التأثير لكم يكن تأثيراً فى نشأة التصوف عن طريق الاسلام الأمر الذى حاربه المسلمون وعارضوا التصوف من أجله .

(١) العلم اللدنى : ويقصد به العلم الذى يمنحه الله عز وجل للأولياء بعد الأنبياء من غير الطريق المعهود كالمذاكرة والتلقى عن الغير ، فهو علم يحصل عليه العبد من الله تعالى مباشرة بعد تقديم التصفية والتزكية وتقوى رب العالمين ، يقول الامام الآلوسى عند تفسيره قوله تعالى :"وعلمناه من لدنا علما" أى علما لا يكتنه كنهه ولا يعرف قدره وهو علم الغيوب وأسرار العلوم الخفية وذكر "لدنا قيل لأن العلم من أخص صفاته تعالى الذاتية وقد قالوا : إن القدرة لا تتعلق مالم يتعلق العلم فالشيئ يعلم أولا فيراد فتتعلق به القدرة فيوجد ، وذكر أنه يفهم من فحوى- (لدنا) - أو ما تقديمه باختصاص ذلك لله تعالى كأنه قيل علم يختص بنا ولا يعلم بتوفيقنا فى اختيار - علمناه - على آتيناه من الإشارة إلى تعظيم أمر هذا العلم فيه ..

( طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٥ ، وأنظر الآلوسى : روح المعانى ص ٣٢٠ ج١٠ ط : بيروت .

وهذا العلم اللدنى قد يكون بواسطة الملك المشرع وقد يكون بواسطة الإشارة من الله [illegible]

صاحب التاج عن العلم اللدنى : وهو المكاشفه الذى هو نور يقذ فه الله فى قلب من يشاء من عباده وتحصل له المعرفه بالله تعالى وتنتشر له الأمور فيراها على ما هى عليه فافهم وسلم تسلم ، راجع : الاستاذ / منصور على ناصف : التاج الجامع للأصول ص ٦٠-٦١ من الجزء الأول

وقد وضع الامام الغزالى الفرق بين العلوم الحاصله بالكسب وغيره فقال : (اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية وإنما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال تختلف الحال فى حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى ، وتارة تكسب بطريق الاستدلال والتعليم ، فالذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصارا، ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم الى مالايدرى العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل؟ وإلى مايطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب ، والأول يسمى إلهاما ونفثا فى الورع ، والثانى : يسمى وحيا وتختص به الأنبياء ، والأول يختص به الأولياء والأصفياء والذى قبله - وهو المكتسب بطريق الاستدلال - يختص به العلماء ، إحياء علوم الدين ج٣ ص١٨ .١٩ - دار الصابونى .

وقد ذكر الامام (الغزالى ) أدلة شرعية من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صحة هذا العلم اللدنى أو الإلهامى الذى يختص به أولياء الله تعالى منها قوله عز وجل وَالذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين " سورة العنكبوت آية ٦٩ .

وقال الامام - الغزالى - "فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام " احياء علوم الدين ج٣ ص٢٣ وما بعدها .

ومن الأدلة قوله صلى الله عليه وسلم " من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم " ، وقال الله تعالى : " ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب " سورة الطلاق آية : ٢ .

ومعنى يجعل له (مخرجاً) أى من الإشكالات والشبه أو يرزقه من حيث لا يحتسب ، يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة ، وقال الله تعالى : " يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا" قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام : "اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا واجعل لى فى قلبى نورا وفى قبرى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا حتى قال فى شعرى وفى بصرى وفى لحمى ودمى وعظامى .. ( المصدر السابق : نفس الصفحة) .

### تعقيب على هذه النظريات :-

يبقى بعد هذا أن تسائل قائلين : ألا يصح أن يكون التصوف فى أول نشأته نتاجا تلقائيا مستقلا عن كل العوامل الدينية والفلسفية الأجنبية ؟ والحق أن قولا كهذا لا يبعد أن يكون صحيحا وملائما لطبيعة الأشياء إلى حد ما ، إن لم يكن كذلك إلى حد بعيد : فالنفس الانسانية هى هى بعينها فى كل أفراد الانسان ، وهى هى التى إذا خضعت فى هذا الانسان أو ذاك لألوان بعينها من المجاهدات والرياضات ، وصلت فى هذا الانسان أو ذاك إلى درجة واحدة من الصفاء الروحى والنقاء القلبى ، وبعبارة أخرى يمكن أن يقال : أن التصوف من حيث هو رياضة للنفس الانسانية التى هى حظ مشترك بين أفراد الانسان جميعا ، يصح أن ينتهى عند المعتنقين لدين من الأديان إلى عين النتائج التى ينتهى إليها عند المعتنقين لدين آخر من هذه الأديان : وذلك لأن وسائل التصفيه وطرق التهذيب التى يصطنعها أولئك وهؤلاء واحدة هى الأخرى :

فإذا كان ذلك كذلك ، وكانت النفس الانسانية هى هى النفس الانسانية فى كل زمان وكل مكان ، فما الذى يمنع إذن من أن يكون التصوف الذى ظهر فى الاسلام هو هو بعينه التصوف الذى أخذ صوراً متعددة فى الديانات الهندية والفارسية والنصرانية ، وفى الفلسفة اليونانية ؟ وما الذى يمنع أيضاً من أن يكون التصوف الاسلامى قد نشأ بعيداً عن كل المؤثرات الدينية والفلسفية الأجنبية ، وأن يكون هذا التشابه الملحوظ بينه وبين البراهمية والمانوية والنصرانيه والأفلاطونية ، الجديدة ، آتيا من أن زهاد المسلمين وصوفيتهم قد أخضعوا أنفسهم لطائفة من القواعد والأحكام التى تقرب كثيراً أو قليلا من تلك التى أخضع لها نساك البراهمية وزهاد المانويه ورهبان النصرانيه وفلاسفة الأفلاطونية الجديدة أنفسهم ؟ الحق أن الأستاذ نيكلسون مصيب كل الاصابة إذ يقرر أن الاتفاق الواقع بين عقيدتين لا يعنى أن إحداهما قد تولدت من الأخرى ، بل هو يعنى أن كلتيهما قد

تكونان نتيجتين لسبب واحد [1]. والذى يقرأ هذا الكتاب الرائع الذى وضعه فوجان "V aughan" وعنوانه ( ساعات مع المتصوفه "Hours with Mystics" يلاحظ فى سهولة ويسر كثيرا من أوجه الشبه العجيبة ، سواء فى المادة أو فى الصورة ، بين أقوال المتصوفه الذين يعتنقون أديانا مختلفة ، وينتسبون إلى أمم متباينه ، ويعيشون فى عصور متباعدة ، والذين لا يمكن أن يكون قد نشأ بينهم أى سبب من أسباب الاتصال الخارجي : فكثير من أقوال متصوفة المسيحيين مثال كهارت "Eckhart" وتولر Tauler والقدسية تريزا " ST. Thertse" لوقد ترجم لسار سيرة أقوال صوفية المسلمين [2]. وإذا تركنا التشابه الواقع المعتنقين لديانتين مختلفتين ، إلى التشابه الواقع بين الصوفية المعتنقين لديانتين مختلفتين ، إلى التشابه الواقع بين الصوفيه والفلاسفة ، وجدنا من ذلك قصة يروى فيها أن كلا من أبى سعيد بن أبى الخير الصوفى الفارسى وأبى على بن سينا الفيلسوف المعروف ، قد التقى أحدهما بالآخر ، وتحدث أحدهما إلى الآخر ، وبعد أن افترق كل منهما عن صاحبه [illegible] سعيد عن أبى على : أنه يعلم ما أشاهد " على حين قال أبو على عن أبى سعيد [illegible] يشاهد ما أعلم [3]. ، وهذا التشابه أو ذاك لا يعنى أن أبا على قد أخذ عن أبى سعيد ، ولا أن أبا سعيد قد أخذ عن واحد من صوفيه المسيحين [illegible] من صوفية المسيحيين قد أخذ من واحد من صوفية المسلمين؟ [illegible] أولئك وهؤلاء قد تشابه نوعالحياة التى كانوا يحيونها ، وطابع الظروف التى خضعوا لها ، والوسائل التى استعانوا بها ، والغايات التى طمحوا [illegible] والوسائل التى استعانوا بها ، والغايات التى طمحوا إليها ، ثم عبروا عن مذاهبهم التى كانت ثمرة لهذا كله ، فجأت عباراتهم متشابهة وألفاظهم متقاربة ، وقد [illegible] التقارب ، ويشتد ذلك التشابه حتى يخيل لمن يقرأقوال الفريقين أن أحدهما قد اتصل بالآخر ، وتأثر به وأخذ عنه ، والواقع ليس ثمه شئ من ذلك .

(١) Mystisc of Islamp. 30 ... Litterary History : V . I.P. 421.

(٣) نفس المرجع : ج٢ ص ٢٦٤ (٤) نقلا من الحياة الروحية فى الاسلام ص ٧٦ ، ٧٧ .

وجملة القول أننا إذا أردنا أن نكون لنا رأيا فى مصدر التصوف يلائم نشأته وطبيعته، فقد وجب علينا إذن أن نتجنب الوقوع فى الخطأ الناشئ من النظر إلى التصوف على أنه فى جملته وتفاصيله مذهب دينى أو فلسفى له حدوده التى تجعل منه شيئا مصطبغا بصبغة نزعة معينة من النزعات ، أو متأثرا بعامل من العوامل الأجنبية ، دينية كانت هذه العوامل أو فلسفية ، وإنما ينبغى أن ننظر إليه على أنه طائفة متعددة من الطرقات التى تصطنع فى رياضة النفس ، وكشف الحقيقة ، وتجلى أنوارها فى أعماق النفوس التى وإن تعددت بتعدد أفرادها ، فإن تعددها لا يعنى مطلقا أنها تختلف من حيث طبيعتها فى هذا الانسان أو ذاك ، هذا فيما يتعلق بالتصوف من حيث هو طرق لرياضة النفس ، ووسائل تعين على تصفيتها ، أما فيما يتعلق به من حيث هو مذاهب روحية فى كشف الحقائق ، ومعرفة الدقائق ، وتفسير الوجود ، فذلك مالا يمكن أن ننكر تسرب بعض العناصر الأجنبية إليه ، ولو أن تسربها إلى أقوال صوفية المسلمين ومذاهبهم كان فى عصور متأخرة عن العصر الذى ألقيت فيه بالبذرة الأولى للحياة الروحية فى قلب المسلم الأول وهو سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم (١).

وهذا ينتهى بنا إلى أن زهاد المسلمين وصوفيتهم الأولين إنما كانوا من صفاء النفس ، وجلاء القلب ، و طهر السريرة ، والقدرة على كشف الحقيقة إلى حد بعيد ، لأنهم أخذوا أنفسهم بما كان يأخذ به النبى – صلى الله عليه وسلم – نفسه من زهد وورع وعكوف على العبادة : فتأثرهم بحياة النبى الروحية – لا تأثرهم بالديانات والفلسفات الأجنبية – هو الذى جعل منهم زهدا وصوفيه لأول مرة فى تاريخ الحياة الروحية فى الإسلام .

(١) الحياة الروحية فى الإسلام ص ٧٨ وما بعدها .

# الأحوال والمقامات

وتحته سبعة مباحث:

المبحث الأول: **التوبة**

المبحث الثاني: **الزهد**

المبحث الثالث: **التوكل**

المبحث الرابع: **الشكر**

المبحث الخامس: **الصبر**

المبحث السادس: **الرضا**

المبحث السابع: **الصدق**

## تمهيد

الأحوال في اللغة جمع حال وهو نهاية الماضي وبداية المستقبل.

وفي اصطلاح المتصوفة: «معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب[١] أو حزن[٢] أو قبض أو بسط[٣] أو هيبة[٤]»[٥].

والمقامات في اللغة جمع مقام وهو موضع القيام ويشمل الأمر الحسي كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[٦].

---

(١) الطرب: خفة تصيب الإنسان لحدة حزن أو سرور.
التعريفات للجرجاني (١٨٣).

(٢) الحزن: أنين من القلب يمنع النفس من طلب السرور والطرب. وهو وهم يجعل الصوفي دائم التفكير في حاله وعديم الرضى عنها.
معجم ألفاظ الصوفية للشرقاوي (١٢٢).

(٣) القبض والبسط حالتان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء والفرق بينهما أن الخوف والرجاء يتعلقان بأمر مستقبل مكروه أو محبوب والقبض والبسط بأمر حاضر في الوقت يغلب على قلب العارف.
التعريفات للجرجاني (٢٢٠).

(٤) الهيبة والأنس: حالتان فوق القبض والبسط كما أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء.
التعريفات للجرجاني (٣٢١).

(٥) التعريفات للجرجاني (١١٠).

(٦) سورة البقرة، الآية ١٢٥.

والمعنوى كقوله عز وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[1] وهو مقام الشفاعة يوم القيامة.

وفي اصطلاح المتصوفة: معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل[2].

والأحوال والمقامات مما اهتم به المتصوفة كثيراً إذ لا تخلو كتبهم من ذكرها والحديث عنها ويعنون بها ما يمر بالنفس من أحوال وهبية فإذا دامت واستقرت سميت مقاماً، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الوجود والمقامات تحصل ببذل المجهود[3].

أي أن الأحوال توهب للعبد من الله سبحانه وليست من كسبه أما المقامات فيمكن أن يتوصل إليها العبد باكتسابه وبذل جهده.

إلاّ أن بين الأحوال والمقامات تداخلاً وتلازماً بحيث يصعب التفريق بينها لأن القواعد التي وضعها المتصوفة للتمييز بينهما غير مضطردة فهم مثلاً يعرفون المقامات بأن لها صفة الديمومة بينما الأحوال في تغير مستمر. يقول القشيري في الرسالة:

«وصاحب المقام ممكن في مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله»[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.
(٢) اللمع للطوسي (٦٥).
(٣) الرسالة للقشيري (٢٠٦/١). ومدارج السالكين لابن القيم (١٧١/٢).
(٤) الرسالة للقشيري (٢٠٦/١).

ثم نراه يورد ما يعارض زوال الحال بقوله:

«وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها»[1].

وأيضاً يعتبر أبوطالب المكي الخوف من المقامات[2] بينما يرى أبونصر الطوسي أنه من الأحوال[3].

وكذلك الرضا؛ يرى القشيري أنه من الأحوال[4]، بينما يعتبره أبونصر الطوسي من المقامات[5].

وللجمع بينهما يمكن أن يقال أن الحال يكون في بدايته معنى يطرأ ويزول لكنه بالتكرار يصير معنى راسخاً وهذا المعنى هو المقام.

هذه الاصطلاحات الصوفية لم أجد للشيخ عبدالقادر كلاماً لشرحها أو بيانها وإن كانت ترد في كلامه استعمالاً وهذا الذي جعلني أبين معناها عند الصوفية لمعرفة معناها في كلام الشيخ في المباحث الآتية:

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٠٧).
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٦٤).
(٣) اللمع للطوسي (٨٩).
(٤) الرسالة للقشيري (١/ ٢٠٧).
(٥) اللمع للطوسي (٦٥).

## المبحث الأول

## التـــوبـــة

هي الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب ثم القيام بكل حقوق الرب، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «التوبة النصوح هي الندم بالقلب والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن والإضمار على ألا يعود»[١].

ويقسمها المتصوفة إلى قسمين:

ـ توبة العوام؛ وهي التوبة من جميع الذنوب.

ـ وتوبة الخواص؛ وهي التوبة من الغفلة[٢].

وهي أول مقامات السالكين إلى الله؛ لأنها تسد أبواب الذنوب السابقة وتمنع من الوقوع فيها مستقبلاً وهي ملازمة للعبد السالك إلى الله حتى يموت قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«ومنزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال به إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به فالتوبة هي بداية العبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها في البداية كذلك»[٣].

ومن هنا كان تركيز الشيخ عبدالقادر الجيلاني عليها واهتمامه

---

(١) التعريفات للجرجاني (٩٥).

(٢) معجم ألفاظ الصوفية للشرقاوي (٨٨).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١/١٧٨).

بشأنها؛ قال العلامة أبوالحسن الندوي:

«ظهر في بغداد رجل قوي الشخصية قوي الإيمان قوي العلم قوي الدعوة قوي التأثير هو الشيخ عبدالقادر الجيلاني فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة وحارب النفاق وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه يدخل منه المسلمون يجددون العهد والميثاق مع الله تعالى»[١].

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يعتبر التوبة باب الدخول على الله سبحانه لنيل رضوانه في الدنيا والآخرة فينبغي اغتنامها وعدم تفويت فرصتها يقول:

**«اعتنموا باب التوبة وادخلوا مادام مفتوحاً لكم»**[٢].

ويبين أن المهم ليس التوبة فحسب ولكن المهم هو الاستمرار والثبات عليها فيقول:

**«تب واثبت على توبتك فليس الشأن في توبتك الشأن في ثبوتك عليها ليس الشأن في غرسك الشأن في نبوته وتغصينه وثمرته»**[٣].

وقد جعلها بمنزلة الماء الذي تزول به نجاسة الذنوب وقذارة المعاصي. إذ يقول:

**«يا غلام لا تيأس من رحمة الله بمعصية ارتكبتها بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص**

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي (٢٨٢).
(٢) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الرابع (ص١٨).
(٣) المصدر السابق، المجلس الرابع، (ص٢٢).

فيها»[1].

وعن التائبين يصنف الشيخ عبدالقادر الناس في التوبة إلى ثلاثة أصناف: توبة العوام وتوبة الخواص وتوبة خاص الخاص ويجعل لكل صنف منهم توبة تخصه فيقول:

**«توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة وتوبة خاص الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله عز وجل»**[2].

ثم يوضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[3] بأن هذا **«خطاب للعموم بالتوبة وأن حقيقة التوبة في اللغة الرجوع يقال تاب فلان من كذا أي رجع عنه فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع والعلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات من الله عز وجل. ومن جنته وتركها مقرب إلى الله عز وجل وجنته فكأنه عز وجل يقول: ارجعوا إلي من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد وتبقوا في نعيمي في دار البقاء والقرار وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا برحمتي الجنة العليا المعدة للأبرار»**[4].

كما يقرر الشيخ عبدالقادر الجيلاني أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة وأنها تكون من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها[5].

---

(١) المصدر السابق، المجلس الثالث عشر (ص٤٨).
(٢) الغنية للجيلاني (١/١١٨).
(٣) سورة النور، الآية: ٣١.
(٤) الغنية للجيلاني (١/١١٦).
(٥) المصدر السابق (١/١١٦).

ثم يعرف الكبائر بأنها:

**«ما توعَّد الله عليه بالنار أو ما أوجب عليه الحد في الدنيا وأن بعض العلماء حصرها في سبع عشرة كبيرة: أربع في القلب؛ وهي الشرك بالله والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله. وأربع في اللسان: وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر. وثلاث في البطن وهي: شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا. واثنتان في الفرج وهما: الزنا واللواط. واثنتان في اليدين، وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين، وهي: الفرار من الزحف. وواحدة في جميع البدن وهي: عقوق الوالدين»**[1].

ولكن كيف لنا أن نعرف أن التوبة صحيحة ومقبولة عند الله إذ ليس بإمكاننا أن نتوغل في نفوس التائبين لنتعرف على صحة توبتهم لكن الشيخ عبدالقادر لم يترك هذه المسألة غامضة دون أن يقدم لنا دليلاً عملياً نعرف به صدق التوبة وصحتها فيضع لها شروطاً ثلاثة:

**«أولها: الندم على ما عمل من المخالفات.**
**وثانيها: الإقلاع وترك الزلات في جميع الحالات والساعات.**
**وثالثها: العزم على ألاَّ يعود إلى ما اقترف من المعاصي والخطيئات»**[2].

وليس هذا فحسب بل جعل الشيخ الجيلاني للتوبة معياراً دقيقاً هو: «توجّع القلب عند علمه بفوات محبوبه فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته فيعزم على ألاَّ يعود إلى مثل ذلك لما

(١) الغنية للجيلاني (١/ ١١٧).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٢٢).

**تحقق عنده من شؤم ذلك»**[١].

ويجعل أيضاً مقياساً آخر يمكن بواسطته معرفة التوبة الصادقة وهو في أربعة أشياء:

**«١ـ أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.**

**٢ـ ألاّ يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة.**

**٣ـ أن يفارق إخوان السوء.**

**٤ـ أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه مجتهداً في طاعة ربه»**[٢]

وفي النهاية يرى الشيخ عبدالقادر الجيلاني أن التوبة على وجهين:

**«أحدهما: في حق العباد بعضهم تجاه بعض وهذا لا يتحقق إلاّ برد المظالم والتحلل من الحقوق بإعادتها إلى أصحابها.**

**والثاني: يتعلق بحق الله تعالى فتكون التوبة منه بالاستغفار الدائم باللسان والندم بالقلب والإضمار على ألاّ يعود إليه في المستقبل»**[٣].

هذه هي التوبة عند الشيخ عبدالقادر الجيلاني ونظراته إليها وتوجيهاته للتائبين.

وقد أوردها بعبارات جميلة وترقيقات بديعة تدل على حساسية مرهفة لمعنى التوبة وموقف العبد منها.

---

(١) المصدر السابق (١/١٢٢).

(٢) الغنية للجيلاني (١/١٤٠).

(٣) المصدر السابق (١/١٣٦).

## المبحث الثاني

## الـــزهـــد

**الزهد لغة**: زهد فيه وعنه زهداً وزهادة أعرض عنه وتركه لاحتقاره أو لتحرجه عنه.

ويقال: زهد في الدنيا ترك حلالها مخافة حسابه وترك حرامها مخافة عقابه[1].

**وفي الاصطلاح**: له عدة تعريفات من أحسنها قول ابن قدامة المقدسي: «هو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه. أو بمعنى آخر: «أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة»[2].

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يفرق بين الزاهد الحقيقي والمتزهد الصوري فيقول:

**«المتزهد يخرج الدنيا من يديه والزاهد المتحقق في زهده يخرجها من قلبه»**[3].

وكلامه هذا يشير فيه إلى نوعية من الناس يزهدون في الدنيا ويرفضونها من أيديهم لكنها تسكن في سويداء قلوبهم.

---

(١) القاموس المحيط (١/٣٠٨).. والمعجم الوسيط (١/٤٠٤).

(٢) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي (٣٢٤).

(٣) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثلاثون (ص١٠٦).

لكن هذا لا يعني أن الزاهد الحقيقي يرد ما يسوقه الله له من الرزق وإنما يأخذه ويستعين به على طاعة الله وفي هذا المعنى يقول الشيخ عبدالقادر:

**«الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه فيتناولها ويلبس ظاهره بها وقلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها»**[1].

ثم يضع صورة واضحة للزاهد الصادق فيقول:

**«وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها يملكها ولا تملكه تحبه ولا يحبها تعدو خلفه ولا يعدو خلفها يستخدمها ولا تستخدمه يفرقها ولا تفرقه. قد صلح قلبه لله عز وجل فلا تقدر الدنيا تفسده فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه»**[2].

ولما لصلاح النية والقصد من الأهمية في قبول العمل حيث أنها تتحكم في تصرفات الإنسان فتتحول العادات والمباحات إلى أعمال صالحة بالنية الصالحة والقصد الحسن وفي هذا يقول الشيخ عبدالقادر الجيلاني:

**«المؤمن له نية صالحة في جميع تصرفاته لا يعمل في الدنيا للدنيا يبني في الدنيا للآخرة يعمر المساجد والقناطر والمدارس والربط ويهذب طرق المسلمين وإن بنى غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء وما لابدَّ له منه يفعل ذلك حتى يبنى له في الآخرة»**[3].

---

(١) المصدر السابق، المجلس الخامس والعشرون (ص٨٩).
(٢) المصدر السابق، المجلس الرابع والثلاثون (ص١١٣).
(٣) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس السادس عشر (٥٩).

ولكن الشيخ عبدالقادر يبين أن الزهد ليس أمراً سهلاً يمكن الاتصاف به دون تعب أو معاناة كما أنه ليس في قدرة كل واحد أن يكون زاهداً؛ لأن الزهد على حدِّ تعبير الجيلاني:

**«منة صالحة وإلاَّ فما يقدر أحد أن يزهد في قسمه.**

**المؤمن يستريح من ثقل الحرص لا يشره ولا يستعجل.**

**زهد في الأشياء بقلبه وأعرض عنها بسرِّه واشتغل بما أمر به وعلم أن قسمه لا يفوته فلم يطلبه.**

**ترك الأقسام تعدوا خلفه وتذل وتسأله قبولها»**[1].

كما أن الزهد في نظر الشيخ الجيلاني ليس حرفة أو مهنة يمكن إدراكها عن طريق التعليم والتدريب عليها وإنما هو خطوات على درب السلوك تتبعها خطوات وفي هذا الخصوص يصف الشيخ الجيلاني حال الزاهد فيقول:

**«يا غلام هذا الزهد ليس صنعة تتعلمها ليس هو شيئاً تأخذه بيدك ترميه بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل»**[2].

ومن هنا فإن الجيلاني يربط بين العلم والزهد ويرى أنه لابدَّ من تلازمهما للوصول إلى الله عز وجل وهذا واضح من قوله:

**«ما وصل من وصل إلاَّ بالعلم والزهد في الدنيا والإعراض عنها**

---

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثامن والعشرون (ص٩٨).

(٢) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثلاثون (ص١٠٧).

**بالقلب والقالب»**[1].

تلك هي منزلة الزهد عند الشيخ عبدالقادر الجيلاني وهي بلا شك منزلة عالية يرتفع بها صاحبها ويعظم في أنظار الناس وتتحقق لهم الاستفادة منه وقد عبَّر عن هذا بقوله:

**«من صح زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر فيه»**[2].

أما المتصوفة وباعتبار ىنه من أهم مسائلهم فله عندهم مفهوم آخر يأخذ صوراً متفاوتة في البعد والقرب عن مفهوم أهل السنة والجماعة الذي سنذكره فيما بعد فمن تعريفاتهم المعتدلة للزهد قولهم:

**«الزهد في الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى»**[3].

وقولهم: **«ينبغي للعبد ألا يختار ترك الحلال بتكلفة ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه ويراعي القسمة فإن رزقه الله سبحانه وتعالى مالاً حلالا شكره وإن وفَّقه الله تعالى على حدِّ الكفاف لم يتكلف في طلب ما هو فضول فالصبر أحسن بصاحب الفقر والشكر أليق بصاحب المال الحلال»**[4].

لكن هناك مبالغات تروى عنهم في الزهد تتعارض مع المنهج الشرعي الصحيح من ذلك قولهم:

---

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثلاثون (ص١٠٦).
(٢) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثاني والستون (ص٢٣٢).
(٣) الرسالة للقشيري (١/ ٣٢٤).
(٤) المصدر السابق (١/ ٣٢٥).

«الزهد أن تترك الدنيا كما هي لا تقول أبني رباطاً أو أعمر مسجداً»[1].

وقول عبدالواحد بن زيد: «الزهد ترك الدرهم والدينار»[2].

لكن أهل السنة والجماعة لا يوافقون الصوفية في هذا المفهوم للزهد. وإنما يرون أن الزهد الصحيح هو ترك الدنيا التي تصد عن ذكر الله عز وجل وتشغل عن طاعته سبحانه وتلهي عن أداء الواجبات الشرعية وتعين على الوقوع في المعاصي والآثام.

أما الدنيا التي يتزود منها الإنسان لآخرته بالعمل الصالح وأداء الواجبات المالية لنفسه وأهله وولده وجاره وأهل ملته ولنصرة دينه فإن هذه الدنيا تتحول إلى دين لا ينبغي أن يزهد الإنسان فيه وهذا ما حصل للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكثير من التابعين وأئمة السلف ـ رحمهم الله ـ فقد فهموا أن الزهد في الدنيا ليس المراد منه تركها والتخلي عنها بالكلية ولكن إخراجها من القلب وتسخيرها في مراضي الرب عز وجل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«الزهد النافع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة.

فأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر أو زهد

---

(١) المصدر السابق (١/٣٢٦).
(٢) الرسالة للقشيري (١/٣٢٨).

فيما لا ينفع فأما الزهد في النافع فجهل وضلال»[1].

وينقل ابن القيم ـ رحمه الله ـ أقوال الأئمة في الزهد، ومنهم الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ الذي قال:

«الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام.
الثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص.
الثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين».

ثم يعلق ابن القيم على كلام الإمام أحمد هذا فيقول:

«وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد»[2].

وهكذا يتبين موافقة الشيخ عبدالقادر الجيلاني لأهل السنة والجماعة في مفهوم الزهد وأنه إنما يكون في ما لا منفعة فيه للعبد في الآخرة والله أعلم.

---

(١) فتاوى ابن تيمية (١٠/٥١١).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/١٢).

## المبحث الثالث

## التوكل

التوكل: هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس[1].

وهو سمة من أهم سمات المؤمنين الصادقين قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2] وقال ـ عز شأنه ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[3].

فقد علَّق الإيمان على التوكل وهذا يدلُّ على أهميته وعلى انتفاء الإيمان عمن لا توكل لديه.

وعندما تناول الشيخ عبدالقادر الجيلاني مسألة التوكل تعرَّض لأربع مسائل:

**الأولى: الأصل في مشروعيته وتعريف حقيقته:**

فقال:

«**الأصل فيه قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[4] **وقوله عز وجل:** ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[5].

---

(١) التعريفات للجرجاني (٩٧).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

**وحقيقته تفويض الأمور إلى الله عز وجل والتنقي من ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير فيقطع العبد ألاَّ تبديل للقسمة فما قسم له لا يفوته وما لم يقدَّر له لا يناله فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه»**[1].

وقد وافقه في هذا التعريف كثير من أئمة السلف وهذا طرف من أقوالهم التي نقلها ابن القيم فقال:

«قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

ومنهم من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب فيقول:

التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار.

قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد.

ومنهم من يفسره بالرضا فيقول: هو الرضا بالمقدور.

وقيل: التوكل هجر العلائق ومواصلة الحقائق»[2].

---

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٨٩).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١١٢).

## المسألة الثانية: أقسام التوكل ودرجاته:

يرى الشيخ عبدالقادر أن التوكل ينقسم إلى ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض.

**«فالمتوكل يسكن إلى وعد ربه وصاحب التسليم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه»**[١].

لكن ابن القيم - رحمه الله - لا يوافقه في هذا التقسيم بل يرى أن التوكل ينقسم إلى سبع درجات:

«الأولى: معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهي أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الثانية: إثبات الأسباب والمسببات».

وسوف نرجىء نقل كلام ابن القيم - رحمه الله - عن هذه الدرجة إلى الحديث عن المسألة الرابعة في ختام هذا المبحث.

«الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد المتوكل فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل توحيد القلب فمادامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل.

فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن هنا

---

(١) الغنية للجيلاني (٢/١٨٩).

ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلاَّ برفض الأسباب وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح.

الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها. علامة هذا ألا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه عند إدبار ما يحب وإقبال ما يكره منها لأن اعتماده على الله وسكونه إليه ومثل حاله كحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه التفات إلى غيره. كذلك المتوكل لا يأوي إلاَّ إلى ربه سبحانه.

الخامسة: حسن الظن بالله عزوجل. فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه. ولذلك فسَّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق أن حسن الظن بالله يدعو إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه.

السادسة: استسلام القلب له. وانجذاب دواعيه كلها إليه وبهذا فسَّره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير.

السابعة: التفويض وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه وتمام كفايته وحسن تدبيره فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه»[1].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم بتصرف (٢/١١٢).

**المسألة الثالثة : ثمرات التوكل :**

لا ريب في الثمرات العظيمة التي تحصل للعبد إذا توكل على ربه باعتباره العلاج الذي يقضي على المخاوف النفسية التي تختلج في نفوس الناس ويحد من وطأة القلق والاهتمام بأمور المعيشة بالاعتماد والثقة في الله عز وجل وأهم الثمرات في نظر الشيخ عبدالقادر الجيلاني اعتباره من أعظم الأسباب المؤدية إلى تقوية دين العبد وتصحيح قلبه وهدايته يقول في هذا المعنى:

**«من أحب القوة في دين الله عز وجل فليتوكل على الله عز وجل لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب لا تتوكل على درهمك ودينارك وأسبابك فإن ذلك يعجزك ويضعفك وتوكل على الله عز وجل. فإنه يقويك ويعينك ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب»**(١).

وهذاما أكّده شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو يوضح معنى ما نقل عن الشيخ عبدالقادر الجيلاني من أنه رؤي في المنام وهو يقول إخباراً عن الحق سبحانه:

من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنّا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد. فقال رحمه الله:

**«فالأوّلتان: العبادة والاستعانة. والآخرتان الطاعة والمعصية.**

**فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى: «من تقرب إليَّ**

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثاني والأربعون (ص١٣٤).

شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه فإنه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله وفي الأثر: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[2].

وعن سعيد بن جبير قال: التوكل جماع الإيمان[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[4]. وقال عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[5].

وهذا على أصح القولين في أن التوكل عليه ـ بمنزلة الدعاء على أصح القولين أيضاً ـ سبب لجلب المنافع ودفع المضار فإنه يفيد قوة العبد وتصريف الكون ولهذا هو الغالب على ذوي الأحوال متشرعهم وغير متشرعهم. وبه يتصرفون ويؤثرون تارة بما يوافق الأمر وتارة بما يخالفه.

وقوله: ومن اتبع مرادنا يعني المراد الشرعي كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾[7]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن

---

(١) رواه البخاري ح (٧٥٣٦). ومسلم ح (٢٦٧٥).
(٢) أخرجه أبونعيم في الحلية (٣/٢١٨).
(٣) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة برقم (٧٧٦)، وأبونعيم في الحلية (٤/٢٧٤).
(٤) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٩.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٧) سورة النساء، الآية: ٢٨.

**شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»**[1].

والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه فإنه لا حول ولا قوة إلاّ بالله وفي الأثر: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[2].

وعن سعيد بن جبير قال: التوكل جماع الإيمان[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[4]. وقال عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[5].

وهذا على أصح القولين في أن التوكل عليه ـ بمنزلة الدعاء على أصح القولين أيضاً ـ سبب لجلب المنافع ودفع المضار فإنه يفيد قوة العبد وتصريف الكون ولهذا هو الغالب على ذوي الأحوال متشرعهم وغير متشرعهم. وبه يتصرفون ويؤثرون تارة بما يوافق الأمر وتارة بما يخالفه.

وقوله: ومن اتبع مرادنا يعني المراد الشرعي كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾[7]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن

---

(١) رواه البخاري ح (٧٥٣٦). ومسلم ح (٢٦٧٥).
(٢) أخرجه أبونعيم في الحلية (٣/٢١٨).
(٣) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة برقم (٧٧٦)، وأبونعيم في الحلية (٤/٢٧٤).
(٤) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٩.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٧) سورة النساء، الآية: ٢٨.

﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾[1].

هذا هو طاعة أمره وقد جاء في الحديث: «**وأنت ياعمر لو أطعت الله لأطاعك**»[2].

وفي الحديث الصحيح: «**لئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه**»[3].

وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾[4]

وقوله: «ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد» يعني: ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله؛ رجاءاً ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد لأن هذا مقام الصبر وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[5]»[6].

**المسألة الرابعة: الأسباب:**

بيَّن الشيخ عبدالقادر الجيلاني اعتقاده حولها والمتضمن ضرورة الأخذ بها مع عدم الاعتماد عليها فقال:

«**اعتقاد المتبعين لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ: أن السيف لا يقطع بطبعه بل الله عز وجل يقطع به وأن النار لا تحرق بطبعها بل الله عز وجل المحرق بها وأن الطعام لا يشبع بطبعه بل الله عز جل يشبع به**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد ص(٢٩٥)، وأبونعيم في الحلية (٣/٢١٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٦.

(٥) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٦) فتاوى ابن تيمية (١٠/٥٤٩).

وأن الماء لا يروي بطبعه بل الله عز وجل المروي به.

وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها الله عز وجل المتصرف فيها وبها، وهي آلة بين يديه يفعل بها ما يشاء»[١].

وهذا لا يعني دعوته إلى ترك الأسباب أو أن هناك تعارضاً بين التوكل والأخذ بالأسباب بل إن التوكل الصحيح في مفهوم الشيخ الجيلاني هو الأخذ بالسبب والتوكل على مسبب الأسباب إذ يقول في هذا الصدد:

«إعط السبب حقه، وتوكل، واقعد على باب العمل وألق نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب»[٢].

والأخذ بالأسباب ثم الاعتماد على الله عز وجل هو مذهب أهل الحق من سلف هذه الأمة. يقررونه ويؤكدون عليه لأنه هو الذي يتمشى مع طبيعة هذا الدين الذي جاء لعمارة الدنيا وإصلاحها على أساس الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«ولهذا قال طائفة من العلماء: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع»[٣].

---

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الستون (ص٢١٣).
(٢) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخمسون (ص١٦٧).
(٣) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٣٥).

ويناقش ابن القيم ـ رحمه الله ـ قضية الأسباب بشيء من التفصيل فيقول:

«من نفى الأسباب فتوكله مدخول وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل وأن نفيها تمام التوكل.

واعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء فقد وقع في الوهم الباطل.

فإن الله سبحانه وتعالى قضى بحصول الشبع إذا أكل المرء والري إذا شرب فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو.

وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة.

وقضى بدخول الجنة إذا أسلم وأتى بالأعمال الصالحة فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات لم يدخلها أبداً.

وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض وإلقاء البذر فيها فما لم يأت بذلك لم يحصِّل إلاَّ الخيبة.

فَوِزَانِ ما قاله منكروا الأسباب أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل ويقول: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الشبع والري والحج ونحوها فلابدَّ أن يصل تحركت أو سكنت سافرت أو قعدت وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي أيضاً فعلت أو تركت.

فهل يَعُدُّ أحدٌ هذا من جملة العقلاء وهل البهائم إلاَّ أفقه منه فإن

البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم له التوكل.

ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلاَّ على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلاَّ على قدم العبودية.

بل التجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً وما أخلَّ رسول الله ﷺ بشيء من الأسباب فقد ظاهر بين درعين يوم أحد ولم يحضر الصف قط عرياناً كما يفعل من لا علم عنده ولا معرفة. واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه. يدلُّه على طريق الهجرة. وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين.

وكان يدَّخِرُ لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين. وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد جميع أصحابه وهم أولوا التوكل حقًّا وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة أو لحق أثراً من غبارهم»[١].

وخلاصة القول في الأمر أن نأخذ بالأسباب ثم نعتمد في حصول النتائج على الله وحده فقد أخبر الله عز وجل عن يعقوب عليه السلام أنه أخذ بالأسباب في نصحه لأولاده فقال تعالى:

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/١١٢).

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1].

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ فقال: «**ما منكم من أحد إلاّ قد كتب مقعده من النار أو من الجنة فقال رجل من القوم: ألاّ نتكل يارسول الله ـ يعني ألاّ نترك العمل ـ فقال لا اعملوا فكل ميسرٌ ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ الآية**[2]»[3].

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطانا**»[4].

والأدلة على ضرورة اتخاذ الأسباب وأنها لا تنافي التوكل كثيرة جدًّا. وهو ما قرره الشيخ عبدالقادر الجيلاني كما سبق بيانه. والله أعلم.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الليل: الآية: ٥.

(٣) رواه البخاري، ح (٦٦٠٥).

(٤) رواه الترمذي ح (٢٤٦١). وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجة ح (٤١٦٤). وقال عنه الألباني: حديث صحيح. انظر صحيح الترمذي للألباني ح (١٩١١).

## المبحث الرابع

## الشكــــر

هو عبارة عن معروف يقابل النعمة سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب.

وقيل هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه فالعبد يشكر الله أي يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمة[1].

وقد تحدث الشيخ عبدالقادر الجيلاني عن الشكر من خلال ثلاث مسائل:

الأولى: حقيقة الشكر.

الثانية: أقسامه.

الثالثة: أصناف الشاكرين.

أما الأولى وهي حقيقة الشكر فقد قال رحمه الله:

**«وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع»**[2].

فهو رحمه الله يذكر أن حقيقة الشكر هي الاعتراف بنعم المنعم الذي هو الله ـ عزوجل ـ فهو صاحب الفضل والعطاء فيعترف القلب أن كل نعمة إنما هي من الله سبحانه:

---

(١) التعريفات للجرجاني (١٦٨).

(٢) الغنية للجيلاني (٢/١٩٣).

ثم تخضع جوارحه لهذا المنعم فإن الخضوع هو الطاعة والانقياد إذ لا يسمى الإنسان خاضعاً إلاَّ إذا كان طائعاً لأمر الله ـ عز وجل ـ منقاداً لشرعه.

وعلى هذا فالشكر هو عمل القلب وعمل الجوارح كما سيتضح من خلال المسألتين الآيتين:

وأما الثانية وهي أقسام الشكر. فإنه ـ رحمه الله ـ قد قسم الشكر إلى ثلاثة أقسام فقال:

**«ثم الشكر ينقسم إقساماً إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة مبعث الاستكانة.**

**وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاء والخدمة.**

**وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة»**[1].

وقد جمع الشيخ عبدالقادر الجيلاني في هذا التقسيم جميع العناصر المهمة التي تعبر عن اعتراف الإنسان بنعمة الله عليه كما أنه ربط كل قسم بما يناسب حالته من الاعتراف والشكر.

فاللسان حالته التعبير والتحدث بنعمة الله على صفة الاستكانة والضعف والتذلل.

والبدن والجوارح حالتها الخدمة والقيام بتنفيذ الأوامر والابتعاد عن النواهي.

---

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٤).

والقلب حالته الإقرار الداخلي بأن جميع النعم إنما هي من الله وحده.

وفي موضع آخر يصف الشيخ عبدالقادر الجيلاني كيفية الشكر فيقول:

**«أما كيفية الشكر فيكون باللسان بالاعتراف بالنعمة وأنها من عند الله عز وجل وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها. وأن قاسمها ومجريها وموجدها والسبب لها هو الله عز وجل والقاسم هو الله والمجري هو فهو أحق بالشكر من غيره.**

**وأما الشكر بالقلب: فبالاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد المنبرم أن جميع ما بك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عز وجل لا من غيره ويكون شكرك بلسانك معبراً عما في قلبك.**

**وأما شكر الجوارح: فبأن تحركها وتستعملها في طاعة الله عز وجل دون غيره من الخلق فلا تجيب أحداً من الخلق فيما فيه إعراض عن الله تعالى، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأماني وسائر الخليقة بحيث تجعل طاعة الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً وما عداها فرعاً وتابعاً ومأموماً»[(١)].**

والثالثة: أصناف الشاكرين. وقد جعلهم ثلاثة أصناف:

**الأولى: من وصفهم بالعالَمين وهم السواد الأعظم من العباد وشكرهم يكون من جملة أقوالهم.**

---

(١) فتوح الغيب للجيلاني مقالة ٥٩ (ص١٣٤).

والثاني: من وصفهم بالعابدين وهم المؤمنون على وجه العموم والمباشرون للعبادات المفروضة عليهم فشكرهم يكون نوعاً من أفعالهم.

والثالث: من وصفهم بالعارفين وهم المقربون وشكرهم باستقامتهم لله عز وجل في سائر أحوالهم. واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر لله عز وجل بتوفيقه سبحانه[1].

وهذا يتطابق تماماً مع ما ذكره علماء السلف ومنهم ابن القيم ـ رحمه الله ـ الذي يرى:

«أن حقيقة الشكر تظهر جلية على لسان العبد ثناءاً واعترافاً وعلى قلبه شهوداً ومحبة وعلى جوارحه انقياداً وطاعة وأنه مبني على خمس قواعد:

١ـ خضوع الشاكر للمنعم تبارك وتعالى.

٢ـ حبه له فإن المنعم محبوب لما يتفضل به على المنعم عليه.

٣ـ اعترافه بنعمته عليه.

٤ـ ثناؤه عليه بها.

٥ـ ألا يستعملها فيما يكره.

وكل من تكلم عن الشكر أو قسَّمه فإنما يرجع في كلامه إلى هذه القواعد الخمس»[2].

---

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٤).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٤٢) بتصرف يسير.

## المبحث الخامس

## الصبر

هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله لأن الله تعالى أثنى على أيوب عليه السلام بالصبر بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾[1] مع دعائه في رفع الضر عنه بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2] فعلم أن العبد إذا دعا الله في كشف الضر عنه لا يقدح في صبره[3].

وعندما تحدث الشيخ عبدالقادر الجيلاني عن الصبر لم يتعرض لتعريفه ولكنه تحدث عن:

١ـ أدلة مشروعيته.

٢ـ أنواعه.

٣ـ أصناف الصابرين.

٤ـ أقسام الصبر.

فعن أدلة مشروعيته يقول ـ رحمه الله ـ:

«**الأصل في مشروعية الصبر قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[4]. **وقوله تعالى:**

---

(١) سورة ص، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

(٣) التعريفات للجرجاني (١٧٢).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[1]. وقوله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[2][3].

أما أنواع الصبر فقد ذكر الشيخ عبدالقادر أنه على ثلاثة أضرب:

**«الأول: صبر لله عز وجل وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه.**

**الثاني: صبر مع الله وهو الصبر على جريان قضائه وأفعالِه فيك من سائر الشدائد والبلايا.**

**الثالث: صبر على الله وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والنصر والثواب في الدار الآخرة»**[4].

وهذه الثلاثة أنواع تنتظم جميع أوجه الصبر:

فالأول يشمل الصبر على ممارسة الطاعات والقيام بالفرائض والواجبات لما فيها من المشقة واللزوم بالمحافظة عليها طيلة عمر الإنسان كالصلوات الخمس وأداء الزكاة عند توفر شروطها وصيام رمضان وأداء الحج وبقية أوامر الله عز وجل التي لا يمكن أن يقوم بها العبد إلاّ إذا كان متسلحاً بالصبر قائماً على نفسه بالمجاهدة.

كما يشتمل الصبر عن محارم الله والتي غالباً ما يكون لدى الإنسان ميل غريزي للوقوع فيها باعتبارها من الشهوات المحببة إلى النفوس ولكن المسلم يمتنع عنها ويصبر على ذلك رجاء ما أعدّ الله له من الثواب وخشية ما توعّده من العقاب.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

(٢) رواه البخاري ح (١٣٠٢). ومسلم ح (٩٢٦).

(٣) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٥).

(٤) المصدر السابق (٢/ ١٩٥).

أما النوع الثاني فإنه يتعلق بالصبر على أقدار الله المؤلمة التي يتعرض لها الإنسان وتجري عليه بها أحكام مولاه وخالقه عز وجل وفيها ما يكون مؤلماً كالموت والفقر والمرض ولكن المؤمن الصابر يتلقى تلك الأقضية والأقدار بنفس مطمئنة صابراً محتسباً موقناً بأن الله سوف يكتب له الأجر الجزيل إذا صبر على هذا البلاء واحتسبه عند الله سبحانه.

والنوع الثالث وهو ما عبَّر عنه الشيخ عبدالقادر الجيلاني بالصبر على الله ويعني به انتظار ما وعد الله به من تحقيق الكفاية والإعانة والنصر والتمكين للمؤمن في الدنيا والثواب والجزاء العظيم في الآخرة.

وهذا التقسيم الذي ذهب إليه الشيخ الجيلاني اجتهادي يوافقه في بعضه بعض أهل العلم ويزيدون عليه أو ينقصون.

فهذا ابن القيم ـ رحمه الله ـ يجعل الصبر على ثلاثة أنواع:

١ـ صبر على طاعة الله عز وجل.

٢ـ وصبر عن معصيته سبحانه.

٣ـ وصبر على أقداره تعالى.

ثم يجعله ثلاثة مراتب:

**الأولى**: الصبر بالله أي بالاستعانة به سبحانه كما قال عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾(1).

**الثانية**: الصبر لله وهو أن يكون الباعث له على الصبر إرادة وجه الله سبحانه والرغبة في ثوابه والتقرب إليه.

**الثالثة**: الصبر على الله: وهو أن يدور العبد مع مراد الله الديني وأحكامه

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

الشرعية صابراً محتسباً سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها يتوجه معها أين توجهت ركائبها وينزل معها أين استقلت مضاربها»[1].

وعن أصناف الصابرين يرى الشيخ عبدالقادر الجيلاني أنهم:

«**ثلاثة أصناف: متصبر وصابر وصبار**»[2].

لكن ابن القيم رحمه الله يجعلهم:

«خمسة أصناف: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبار.

فالصابر: أعمها، والمصطبر المكتسب الصبر المليء به، والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه، والصبور العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصبَّار الكثير الصبر. فهذا في القدر والكم والذي قبله في الوصف والكيف»[3].

وأخيراً فإن الشيخ عبدالقادر الجيلاني عند تمييزه للصبر يرى أنه على قسمين:

«**أحدهما: صبر على ما هو كسب للعبد من فعل أوامر الله وترك نواهيه.**

**والثاني: صبر على ما ليس بكسب له مما يقدره الله عليه من قضاء فيه مشقة وألم فيصبر على ذلك**»[4].

وهذان القسمان داخلان في الأقسام الأولى أو أنهما تفريع عنها.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٥٢). بتصرف يسير.
(٢) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٥).
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٥٨).
(٤) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٥).

وبالجملة فإن معاني الصبر تكاد تكون محصورة في الصبر على أداء الواجبات وترك المنهيات والرضى بالمقدورات وهو واضح في كلام الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ كما تقدم.

## المبحث السادس

## الرضا

وهو سرور القلب بمر القضاء[1].

وهو ممأأجمع العلماء على أنه مستحب واختلفوا في وجوبه. والأصل في مشروعيته واستحبابه عند الشيخ عبدالقادر الجيلاني قول الله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾[3]. وقوله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله عز وجل رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً**»[4][5].

وأقوال أهل السلوك من المتصوفة في الرضا كثيرة وهي في مجموعها تعني أن العبد الراضي هو الذي يتلقى أحكام الله عز وجل وأقضيته بالتسليم وعدم إظهار الاعتراض لما يجري من أفعال الرب عز وجل وهذا هو خلق المؤمن عند الشيخ عبدالقادر الجيلاني حيث يقول:

«**فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له. وقضاء الله ـ عز وجل ـ خير من قضاء المرء لنفسه وما قضاه الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك مما قضى الله عز وجل لك فيما تحب فاتق الله تعالى**

---

(١) التعريفات للجرجاني (١٤٨).

(٢) سور: المائدة ١١٩، والتوبة ١١٠، والمجادلة ٢٢، والبينة ٨.

(٣) سورة التوبة، ٢١.

(٤) رواه مسلم ح (٣٤).

(٥) الغنية للجيلاني (٣/١٩٦).

وارض بقضائه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾[1] يعني ما فيه صلاح دينكم ودنياكم فالله عز وجل طوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر وانتهاء المناهي والتسليم في المقدور والرضا بالقضاء فيما لهم وعليهم في الجملة واستأثر هو عز وجل بالعواقب والمصالح فينبغي للعبد أن يديم الطاعة لمولاه ويرضى بما قسم الله له ولا يتهمه»[2].

ولا شك أن للرضا مردوداً عظيماً على النفس البشرية وإدخال عامل السرور والأنس عليها؛ لأن العبدحين يرضى ويسلم لاختيار المولى - تبارك وتعالى - لعلمه بأن ما يختاره الله هو خير له في كل الأحوال والظروف ينعكس هذا الرضا على الإنسان فيشعر بالراحة ويحس بالاطمئنان ويزول عنه القلق والتسخط والتعب والاضطراب وفي هذا المعنى يقول الشيخ الجيلاني:

«واعلم أن تعب كل واحد من الخلق على قدر منازعته للقدر المقدور وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء فكل من رضى بالقضاء استراح وكل من لم يرض به طالت شقوته وتعبه ولاينال من الدينا إلاَّ ما قسم له»[3].

وعن أسباب عدم الرضابأقدار الله يؤكد الشيخ عبدالقادر الجيلاني بأن السبب الوحيد هو اتباع الهوى فيقول:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٢) الغنية للجيلاني (٢/١٩٧).

(٣) المصدر السابق (٢/١٩٧).

«فما دام هواه متَّبعاً قاضياً عليه فهو غير راض بالقضاء لأن الهوى منازع للحق ـ عز وجل ـ فتعبه متكاثف متزايد فاستجلاب الراحة في مخالفة الهوى. لأن فيه الرضا بالقضاء بلا بُدّ، واستجلاب التعب والنصب في موافقة الهوى لأن فيه منازعة الحق عز وجل بلا بُدّ فلا كان الهوى وإذا كان فلا كنا»[1].

أما عن نوعية الرضا وهل هو من الأحوال أو من المقامات، فقد سبق أن ذكرت التداخل والتلازم بينهما في مقدمة هذا الفصل غير أن الشيخ عبدالقادر الجيلاني يذكر اختلاف أهل العلم والمتصوفة فيه فيقول:

«قال أهل العراق هو من جملة الأحوال وليس هو كسباً للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال، ثم تحول وتزول ويأتي غيرها.

وقال الخراسانيون: الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل حتى يئول إلى غاية ما يتوصل إليه العبد باكتسابه»[2].

إلاّ أن الشيخ عبدالقادر يرى أن الجمع بينهما ممكن بأن يقال:

«بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات ونهايته من جملة الأحوال وهي ليست مكتسبة»[3].

وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا الاختلاف فقال:

«وهذه مسألة اختلف فيها أرباب السلوك على ثلاث فرق

---

(1) الغنية للجيلاني (٢/١٩٧).
(2) الغنية للجيلاني (٢/١٩٧).
(3) المصدر السابق (٢/١٩٧).

فالخراسانيون قالوا: الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل، فعلى هذا يمكن أن يتوصل إليه العبد باكتسابه.

والعراقيون قالوا: هو من جملة الأحوال وليس كسباً للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال.

والفرق بين المقامات والأحوال أن المقامات عندهم من المكاسب والأحوال مجرد المواهب.

وحكمت فرقة ثالثة منهم القشيري صاحب الرسالة وغيره فقالوا: يمكن الجمع بينهما بأن يقال بداية الرضا مكتسبة للصبر وهو من جملة المقامات ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة فأوله مقام ونهايته حال»[1].

ثم يحقق المسألة فيقول ـ رحمه الله ـ:

«والتحقيق في المسألة أن الرضا كسبي باعتبار سببه موهبي باعتبار حقيقته، فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته اجتنىٰ منها ثمرة الرضا، فإن الرضا آخر التوكل فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض جُعِلَ له الرضا ولابد، ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له وصعوبته عليها، لم يوجبه الله على خلقه رحمة بهم وتخفيفاً عنهم لكن ندبهم إليه، وأثنى على أهله وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجلّ من الجنان وما فيها. فمن رضى عن ربه رضي الله عنه، بل رضى العبد عن الله من نتائج رضى الله عنه فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده رضاً قبله أوجب له أن يرضىٰ

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٧١).

عنه، ورضى بعده هو ثمرة رضاه عنه ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وقرة عيون المشتاقين»[1].

والرضا مما أجمع العلماء على استحبابه واختلفوا في وجوبه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ممن يذهب إلى القول باستحبابه حيث يقول رحمه الله:

«ولم يجيء الأمر به كما جاء بالصبر وإنما جاء بالثناء على أصحابه ومدحهم»[2].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٧٣).
(٢) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٤٠).

## المبحث السابع

## الصــــدق

وهو في اللغة مطابقة الحكم للواقع.

وفي اصطلاح المتصوفة وعند الشيخ عبدالقادر الجيلاني هو: قول الحق في مواطن الهلاك وقيل: هو أن تصدق في موضع لا ينجيك منه إلاَّ الكذب. وقيل: ألا يكون في أحوالك شوب ولا في اعتقادك ريب ولا في أعمالك عيب[1].

وفيه يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«هو المنزل الأعظم والطريق الأقوم وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان وسكان الجنان من أهل النيران وهو روح الأعمال ومحل الأحوال والحامل على اقتحام الأهوال وهو أساس الدين وعمود فسطاط اليقين ودرجة تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العاملين»[2].

والأصل فيه عند الشيخ عبدالقادر الجيلاني قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[3].

وما روي عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، أنه قال: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى**

(١) التعريفات للجرجاني (١٧٤). والغنية للجيلاني (٢/ ٢٠٠).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٢٦٨).

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

**الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإيَّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[(١)]»[(٢)].**

والصدق من أعلى درجات الكمال الإنساني ولا يكون الإنسان صادقاً إلاَّ إذا توفرت فيه النفس الطيبة والسريرة الصافية والنظرة السليمة والسمعة الكريمة واللسان النظيف والقلب العامر بالإيمان والشجاعة والقوة وهذا ما حصل للشيخ عبدالقادر الجيلاني حينما واجه قُطَّاع الطريق أثناء مجيئه إلى بغداد مسافراً من موطنه جيلان ـ على ما سبق بيانه عند الحديث عن مكانته العلمية ـ، فعندما سُلِبت القافلة بأسرها واجه هذا الحدث المرعب بشجاعة المؤمن وقام ببيان ما معه من النقود في صدق وثبات وحين سأله كبير اللصوص عن سبب تكلمه بالصدق في هذا الظرف الحرج قال:

**«إن أمي عاهدتني على الصدق وأني لا أخون عهدها».**

فبكى الرجل وقال: أنت لم تخن عهد أمك وأنا أخون عهد ربي من كذا وكذا من السنين ثم تاب الرجل وتاب أصحابه معه»[(٣)].

وللصدق عند الشيخ عبدالقادر الجيلاني منزلة عالية فهو عماد الأمر وفي ذلك يقول:

**«واعلم بأن الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة وهو قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ**

---

(١) رواه البخاري ح (٦٠٩٤). ومسلم ح (٢٦٠٧).

(٢) الغنية للجيلاني (٢/١٩٩).

(٣) بهجة الأسرار للشطنوطي (٨٧). وقلائد الجواهر للتادفي (٩).

﴿اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[1]»[2]

وقد فرّق الشيخ الجيلاني بين الصدق والصديق بقوله:

**«والصادق هو الاسم اللازم من الصدق والصديق هو المبالغة منه، وهو من تكرر فيه الصدق فصار دأبه وسجيته وصار الصدق غالبه فالصدق استواء السر والعلانية والصادق هو الذي صدق في أقواله والصديق من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله»**[3].

والصدق في نظر الجيلاني ملازم للصفاء الذي يقوم عليه مذهبه في التصوف كما سبق أن أوضحنا فقد حصل منهما سببين مهمين في القرب من الله ـ عز وجل ـ يقول في ذلك:

**«ياغلام عليك بالصدق والصفاء فلولاهما لم يتقرب شر إلى الله تعالى»**[4].

وهكذا يتبين اهتمام الشيخ عبدالقادر وتأكيده على أهمية التخلق والاتصاف بهذه الصنفات الحميدة التي تكسب العبد سعادة الدنيا وفلاح الآخرة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٢) الغنية للجيلاني (٢/ ٢٠٠).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٠٠).
(٤) قلائد الجواهر للتادفي (٦١).

## ايضاحات لبعض الآراء الاعتقادية للصوفيه

### ١ ـ عقيدة المتصوفة في الإله عز وجل :

الله عز وجل هو الواحد الأحد الفرد الصمد خلق المخلوقات وأوجدها وأمر الثقلين الجن والأنس بأوامر ونهاهم عن نواه من قام بامتثال أمره فيها دخل في طاعته ومن أبي صار من أعدائه وهو غني عن الخلق وعبادتهم وجعل لكلا الفريقين جزاءا عادلا إما الثواب وإما العقاب وقد وصف الله نفسه في كتابه الكريم ووصفه نبيه بالصفات الثابتة له عز وجل فهو رب كل شيء ومالكه، ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا**﴾ ولقد استقر في أذهان العقلاء مباينة الله لخلقه وقربه منهم بعلمه وإحاطته وأنه متفرد بالأسماء الحسنى والصفات العليا ليس كمثله شيء وهو السمع البصير ، وأمرنا عز وجل أن نصفه بما وصف به نفسه في كتابه الكريم وبما وصفه به نبيه الكريم ﷺ غير معطلين ولا محرفين ولا مكيفين ، ذاته لا تشبه ذوات خلقه وصفاته لاتشبه صفات خلقه حتى وإن اتفقت التسمية فإنها لا تتفق في الحقيقة وتبقى المباينة بين الحقائق مما لا يخفي إلا على من لم يفهم الحق.

هذا هو الاعتقاد الذي أمر الله العباد به فما هو موقف الصوفية منه. إن المتتبع لعقائد زعماء الصوفية يجد أنهم يعتقدون بوجود معبود لا حقيقة له قائمة بذاته، معبود لم يذكر في الشريعة الإسلامية ولم تدل عليه العقول ولا الفطر السليمة إنه معبود غير رب العالمين تعالى وتقدس يظهر في صورة الصوفي العابد الذى وصل إلى مرتبة النيابة عن الله في تصريف أمور هذا الكون والتحكم فيه بحكم نيابته عن الله وعلمه بكل المغيبات ورؤيته لله في كل وقت لارتفاع الإنية بينه وبين الله عز وجل الذى يظهر أحيانا في صورة شاب وأحيانا في صورة الآكل والشارب

وأحيانا في صورة شخص كأنه محجور عليه تعالى بعد أن فوض الكون وما فيه إلى أقطاب الصوفية يتصرفون فيه بما يشاءون كما تفيده أقوالهم وتبجحهم بذلك.

**٢ ـ الحلول :**

ولقد أصبح الحلول من لوازم الصوفية الغلاة ومن المبادئ الأساسية عندهم ، وكتبهم مملوءة بذلك نثرا ونظما ، وقد أختلف العلماء في تعريف الحلول :

فمنهم من قال هو اتحاد جسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد .

ومنهم من قال : هو اختصاص شيء بشيء بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما عين الإشارة إلى الآخر .

واستعمل بعض المتصوفة لفظ الحلول ليشيروا به إلى الصلة بين الرب والعبد واللاهوت والناسوت بمعني أن الله تعالى يحل في بعض الأجساد الخاصة وهو مبدأ نصراني وأول من أعلن به من الصوفية الحسين بن منصور الحلاج حين عبر عن ذلك في أبياته الشعرية التي يقرر فيها أن الله تعالى حال في كل شيء وأنه لا فارق بين الخالق والمخلوق .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا ابصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا [١]

والقائلون بالحلول منهم من قصر الحلول وخصه ببعض الناس. كقول النصارى بالحلول في عيسى عليه السلام وكقول بعض غلاة الشيعة كالخطابية الذين اعتقدوا الله عز وجل في جعفر الصادق والسبئية الذين قالوا بحلول الله في علي ومثله قول النصيرية فيه وقول الدروز بحلوله عز وجل في شخص الحاكم.

وفريق آخر : قال بالحلول العام وأن الله حال في كل شيء وأنه في كل

(١) عوارف المعارف صـ ٣٥٣ .

مكان، وهؤلاء تأثروا بالفلسفة الطبيعية عند اليونان وهم الجهمية ومن قال بقولهم ويمثل الحلول العام البسطامي في قوله: « رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك فقلت زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولاأكون أنا هنا.

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الاكذبا ﴾ [١].

وهذا الطلب الغريب العجيب يريد به أبو زيد البسطامي كما تقدم أن يحتال على الله عز وجل ليصبغ عليه الوحدانية ويرفع ما بينه وبين البسطامي من الإنية بحيث إذا قال الله عز وجل « أنا » وقال البسطامي « أنا » انعدم الفرق بينهما وحينئذ يمثل البسطامي الله عز وجل تمام المماثلة فإذا شوهد البسطامي شوهد عند ذلك الخلاق العظيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وليس هذا فقط بل أحيانا يختلط الحابل بالنابل فيحصل بين الرب والعبد مدّ وجزر حسب ما يتصوره ابن عربي في قوله :

| | |
|---|---|
| ففي حال أقربه | وفي الأحيان أجحده |
| فيعرفني وأنكره | وأعرفه فأشهده |
| فإني بالغني وأنا | أساعده وأسعده |
| فيحمدني وأحمده | ويعبدني وأعبده [٢] |

ولعله بعد هذه المرواغة استقر الأمر على أن الله هو نفسه كل موجود على ظهر الأرض فهو العاشق والمعشوق والرجل والمرأة فالأجسام صور عنه وذلك في قوله:

| | |
|---|---|
| فمن ليلى ومن لبنى | ومن هند ومن بثنة |
| ومن قيس ومن بشر | أليسوا كلهم عينه [٣] الخ |

(١) جزء آية من سورة الكهف : ٥ . (٢) الفتوحات المكية جـ ٣ صـ ٤٩٨ .
(٣) المصدر السابق ٥٢١ :

وفي قوله أيضا :

فعين الخلق عين الحق فيه　　فلا تنكر فإن الكون عينه

فان فرقت فالعرفان باد　　وإن لم فاعتبر فالبين بينه [1].

وقد ملأ كتابه الذى سماه بالفتوحات المكية أشعارا وشروحا لها حول هذا الاتحاد والحلول .

ويقول ابن الفارض عن الذات الإلهية كما يتصور :

ففي النشأة الأولى تراءت لآدم　　بمظهر حوا قبل حكم البنوة

وتظهر للعشاق في كل مظهر　　من اللبس في أشكال حسن بديعة

ففي مرة لبني وأخرى بثينة　　وآونة تدعي بعزة عزت [2].

ومن هنا نشأ عند ابن الفارضى الفوضى الفكرية في تداخل جميع الأديان الحق منها والباطل حتى صارت بجميع أشكالها شكلاً واحداً فكأنه أراد أن يجمع بين الليل والنهار والحار والبارد والحق والباطل ، فتصور أن الملل كلها حق سواء كانت شركية أو وثنية أو مجوسية أو نصرانية أو يهودية الكل عنده يرجع إلى مصدر واحد وحقيقة واحدة هى الله،تائيته المشهورة مليئة بتأكيد هذا الخلط والاضطراب فهو بعد أن قرر أن جميع العبادات وجميع الأفعال التي تصدر عن الناس هى نفسها أفعال الله قال عن المجوس :

وأن عبد النار المجوس وما انطفت　　كما جاء في الأخبار في ألف حجة

فما عبدوا غيرى وأن كان قصدهم　　سواى وان لم يعقدوا عقد نيتي

رأوا ضوء نارى مرة فتوهموه　　نارا فضلوا في الهدى بالأشعة [3].

وكثير من مثل هذا الهذيان في أشعارهم هو وسائر غلاة الصوفية ممن هم

---

(١) الفتوحات المكية .　(٢) تائية ابن الفارض .　(٣) تائية ابن الفارض .

على شاكلته أنهم يتصورون معبودهم يتجلى في صورة امرأه ولهذا تجد أن الصوفية يلهجون بذكر النساء ويرونهن أكمل وأتم وأجمل لتعينات الذات الإلهية التي يعتقدونها فيهن وهذا واضح جدا في تلك العناية التي لقيتها المرأة في الأدب الصوفي من التذلل ولها والتشبيب بها والتفنن في وصفها .

ومما قاله ابن عربي في تقريره حلول الله تعالى عن كلامه في المرأة أن الأمر بالغسل لأن الحق غيور على عبده أن يعتقد أن يلتذ بغيره فلهذا أحب النبي ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن إذ لا نشاهد الحق مجردا عن المراد فشهود الحق في النساء أعظم وأكمله وأعظم الوصلة النكاح .. فمن جاء لامرأته أو لأنثى بمجرد الالتذاذ ولكن لايدرى بمن كما قال :

صح عند الناس أني عاشق غير أنهم لم يعرفوا عشقى لمن

كذلك هذا أحب الالتذاذ فأحب المحل الذى يكون فيه هو المرأة ولكن غاب عنه روح المسألة فلو علمها لعلم بمن التذ ؟ ومن التذ ؟ وكان كاملا قال من شاهد الحق في المرأة كان شهوده في منفعل وهو أعظم الشهود ويكون حبا إلهيا»[1].

ومن هذا المفهوم الباطل تجرأ على رسول الله ﷺ وأساء الأدب في حقه وأفترى عليه بما لايقدم عليه مسلم يعرف ولو شيئا يسيرا عن الإسلام وعن نبيه العظيم الذى اعترف له كل من عرفه أوسمع عنه بأنه خير منقذ للبشرية عابدا لربه حق عبادته متواضعا بالمؤمنين روف رحيم لكن ابن عربي يقرر حسب مذهبه الردىء أن رسول الله ﷺ، كان يحب النساء لكمال شهود الحق فيهن وحاشا رسول الله ﷺ من هذا البهتان .

بل قرر زعماء الإباحية والزنادقة العتاة ابن عربي وابن الفارض وغيرهما أن الله تعالى يتجلى في كل صورة حسنة في صورة الرجل والمرأة فيكون فاعلا

(١) كتاب ابن عربي الصوفي ص ٢٧٠ نقلا عن العلم الشامخ ص ٥٥٠ .

ومنفعلا تعالى الله عن كفرهم وإلحادهم علوا كبيرا وأن الله تجلى في صور العاشقات المعشوقات[1]، ويطول النقل عنهم لو أردنا ذلك مما يأباه الدين وتشمئز منه النفوس وتمجه الفطر السليمة ويأباه الذوق .

« وفي تفسير الحديث « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به»[2]، « يذكر السهروردي أن المحب يعود بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب أى بحيث تشترك الصفات بين المحب والمحبوب فلا يحصل بينهما أى فارق ثم استشهد على هذا الاتحاد والحلول بمبدأ الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... الخ .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى في بيان حقيقة الولى :

« ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول : لو كشف عن حقيقة الولي لعبد لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته »[3]وقال أيضا في وجود الله تعالى وأنه لاخفاء به ولا حجاب عليه :

« كيف يتصوران يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء[4].

وفي الشطحات الصوفية وجرأتهم على قول كل مايريدون مالا يخفى طلاب العلم .

ومما يذكر في سيرة ابن عربي أنه شغف حين كان بمكة بحب امرأة هي ابنة رجل يسمى الشيخ مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجاء الأصفهاني ، ووصفها بأوصاف من الغزل بجمالها ما لا يحتمل المقام ذكره هنا

---

(١) ترجمان الأشواق لابن عربي وفصوص الحكم له وانظر ما ينقله عنهم د . صابر طعيمه في الصفحات من ١٦٥ - ١٨٣ .

(٢) يقول العلماء في معنى الحديث ما حاصله أن العبد قد يصل في طاعة الله تعالى إلى حد أن لا يستعمل أى جارحه من جوارح جسمه إلا فى ما يرضى الله تعالى .

(٣) لطائف المنن ص ٩٥ . (٤) المصدر السابق ص ١٠٣ .

ضمنه كتابه ترجمان الأشواق «ثم شرحه بطلب من رجلين من خاصته فشرحةُ في كتاب سماه « ذخائر الأعلاق » .

حاول جاهدا أن يغطي ما قاله في تلك المرأة من العشق والغرام ليحوله إلى أنه قاله في الحب الإلهي ولكن لم يتم له ذلك حيث غلب الطبع التطبع وليست هذه معشوقته الوحيدة بل هناك أخرى عشقها وهو يطوف حول البيت وقال فيها أشعارا غزلية ماجنة ولم يستشعر مقدار جرمه في الحرم الذى يعاقب الله فيه على مجرد النية ؛ ثم وصف تلك الأشعار بعد ذلك بالحب الإلهي تمويها وتغطية لمجون هذا الشيخ الصوفي الكبير فأين الحب الإلهي في مثل قوله :

ليت شعرى هل دروا … أي قلب ملكوا
وفؤادى لو درى … أي شعب سلكوا
أتراهم سلموا … أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى … في الهوى وارتبكوا [1].

**٣ ـ وحدة الوجود :**

وحدة الوجود عقيدة إلحادية تأتي بعد التشبع بفكرة الحلول في بعض الموجودات ومفادها أنه لا شيء إلا الله وكل ما في الوجود يمثل الله عز وجل لا انفصال بين الخالق والمخلوق وأن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه البتة وهى فكرة هندية بوذية مجوسية . وهذا هو المبدأ الذى قام عليه مذهب ابن عربي الذي قال سبحان من خلق الأشياء وهو عينها وتجرأ على تفسير كتاب الله بغير علم فاستدل بآيات من القرآن الكريم زاعما أن الله أطلق اسم الوجود على نفسه كما فى قوله تعالى ﴿ **ووجد الله عنده** ﴾ ٣٩ النور ، ﴿ **لوجدوا الله توابا رحيما** ﴾ ٦٤ النساء ، ﴿**يجد الله غفورا** ﴾ ١١٠ النساء ، واستدل بأحاديث موضوعه مثل حديث «**من عرف**

(١) انظر التصوف المنشأ والمصدر ص ٢٦٩ / ٢٧١ .

نفسه فقد عرف ربه » .

وهذا الاستدلال من أغرب وأنكر ما تلفظ به قائل .

إذ كيف يتأتي لهم القول أن القرآن والسنة يدعوان إلى الإلحاد والكفر بالله ؟ ولا شك أن هذه العقائد الإلحادية قديمة جدا في العبادات الهندية والديانات البوذية . وقد انقسم أصحاب هذه المبادئ الإلحادية فريقين :

١ - **الفريق الأول** : يرى أن الله سبحانه وتعالى روحا وأن العالم جسما لذلك الروح فإذا سما الإنسان وتطهر التصق بالروح أي بالله .

٢ - **الفريق الثاني** : وهؤلاء يزعمون أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله . فكل شيء في زعمهم هو الله تجلى فيه [1].

والإسلام برئ من هذه الأفكار المنحرفة الخرافية كلها ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ وهؤلاء يقولون أن الله ما دام وهو أصل وجود هذه الممكنات المشاهدة فكأن الموجودات في حكم العدم والوجود الحقيقي هو الله الذى تجلى في أفعاله ومخلوقاته وبالتالي فإن العقائد كلها حق والناس لا خلاف بينهم حقيقة والديانات كلها ترجع إلى عقيدة واحدة وهذا لاشك أنه خلط وانحراف شنيع أدى بمن اعتنقه إلى خذلان المسلمين وترك فكرة الجهاد . ولهذا نجد أن المستشرقين اهتموا كثيرا بدراسة ظاهرة التصوف لأنها تحقق أهدافهم في إلهاء المسلمين وتفرق كلمتهم وبالتالى فإنهم وجدوا فيها معينا لهم على نشر الإلحاد وإنكار النبوات ونبذ التكاليف الشرعية والدعوة إلى القول بوحدة الأديان وتصويبها جميعا مهما كانت حتى وإن كانت عبادة الحجر والشجر .

والواقع : أنه ما من مسلم يشك في كفر أو ارتداد من قال بوحدة الوجود وعلماء الإسلام حين حكموا بكفر غلاة المتصوفة من القائلين بوحدة الوجود

(١) الصوفية معتقداً ومسلكا ص ٢٠٦ / ٢٠٧ ، نقلا عن التصوف الإسلامى والإمام الشعراني للاستاذ طه عبدالباقي سرور : ١ ص ٨٩ .

والحلول والاتحاد حكموا أيضا بكفر من لم يرى تكفيرهم .

ولقد قال شيخ الإسلام عن هؤلاء : « إن كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ومشركي العرب » .

ولقد وصل الهوس والجنون بابن الفارض - بناءً على عقيدته أن الله هو عين كل شيء - وصل به الحال إلى أن يعتقد أنه هو الله حقيقة لأن الله حسب خرافاته هو عين كل شيء فهو على هذا يمثل الله تعالى عن قولهم :

وابن عربي من أساطين القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وصحة الأديان كلها مهما كانت في الكفراذ المرجع والمآل واحد ومن هنا فهو يقول :

عقد الخلائق في الإله عقائداً — وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ويقول :

العبد رب والرب عبد — ياليت شعرى من المكلف

ان قلت عبد فذاك رب — أو قلت رب فأني يكلف

ولابن عربي في كتابي « فصوص الحكم » وكتابه الآخر « الفتوحات المكية من الأقوال في وحدة الوجود ونفي الفرق بين الخالق والمخلوق وثبوت اتحادهما تماما أقوال لاتكاد تحصر نثرا ونظما .

وأما ابن الفارض فإذا أراد الشخص أن يعرف عقيدته تمام المعرفة فليقرأ تائيته التى باح فيها بكل صراحة وتحد أن الله متحد بكل موجود وأن ابن الفارض نفسه هو الممثل الكبير لله تعالى في صفاته وفي أفعاله ولهذا فإنه يفسر كل مافي الوجود بأنه يصح أن يقال فيه أن الله أوجده أ وكل موجود هو أيضا ذلك الموجد . وأن كل عبادة تقام فإنها توجه له أو لله لا فارق بينهما إلا في ذكر الأثنينية التي هي أيضا لا وجود لها عند استجلاء الحقيقة حيث تتلاشى الإثنينية ويصبح الوجود واحدا ممثلا في كل شيء .

وإذا أردت تفصيل كل تلك الحقائق عنه فاقرأ تائيته أو الأبيات الآتية .

وانظر شرحها عند الشيخ عبد الرحمن الوكيل [1] .

جلت في تجليها الوجود لناظرى ... ففي كل مرئي أراها برؤية
ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها ... وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلت
فوصفي إذ لم تدع باثنين وصفها ... وهيئتها إذ واحد نحن هيئتى
فإن دعيت[2] كنت المجيب وإن أكن ... منادى أجابت من دعانى ولبيت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا ... وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتى
وكل الجهات الست نحوي توجهت ... بما تم من نسك وحج وعمرة
لها صلواتي في المقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لها صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواى ولم تكن ... صلاتي لغيري في أدا كل سجدة[3].

يقول ابن الفارض عن الذات الإلهية وتجليها له :

ويقول عن معنى سجود الملائكة لآدم ، وأن الملائكة إنما هم صفه من صفاته لا خلق مستقل :

وفي شهدت الساجدين لمظهرى ... فحققت أني كنت آدم سجدتي

شرحه الصوفي القاشاني بقوله :

« أى عاينت في نفسي الملائكة الساجدين لمظهرى فعلمت حقيقة اني كنت في سجدتي آدم تلك السجدة وأن الملائكة يسجدون لي والملائكة صفة من صفاتي فللساجد صفة مني تسجد لذاتي » [4].

---

(١) هذه هي الصوفية ٢٤٨ . (٢) أي الذات الإلهية . (٣) تائية ابن الفارض .
(٤) كشف الوجوه الغر على هامش شرح الديوان ص٨٩ ج٢ نقلا عن هذه هى الصوفية ص٣٣ .

ومن عتاة دعاة وحدة الوجود الجيلي صاحب كتاب « الإنسان الكامل » .

وقد ترجم له الشعراني وأطال في ترجمته ابتدأها بقوله :

« ومنهم أبو صالح سيدى عبد القادر الجيلى رضي الله عنه ثم جاء في أخباره بما لا يصدقه عاقل »[1] .

ومما يدل على تعمق الجيلي في القول بوحدة الوجود وأنه لم يعد بينه وبين الله أى فارق ولا بينه وبين كل المخلوقات في هذا الكون أي فارق أيضا ما أورده في كتابه الإنسان الكامل » [2].

لي الملك في الدارين لم أر فيهما ... سواى فأرجو فضله أو فأخشاه
وقد حزت أنواع الكمال ... جمال جلال الكل ماأنا إلا هو

* * *

لي الملك والملكوت نسجي وصنعتي ... لي الغيب والجبروت مني منشاه

* * *

فمهما ترى من معدن ونباته ... وحيوانه مع أنسه وسجاياه
ومهما ترى من أبحر وقفاره ... ومن شجر أو شاهق طال أعلاه
ومهما ترى من صورة معنوية ... ومن مشهد للعين طاب محياه
ومهما ترى من هيئه ملكية ... ومن منظر أبليس قد كان معناه
ومهما ترى من شهوية بشرية ... لطبع وايثار لحق تعاطاه
ومهما ترى من عرشه ومحيطه ... وكرسيه أو رفرف عز مجلاه
فانى ذاك الكل والكل مشهدي ... أنا المتجلى في حقيقته لاهو
وإني رب للآنام وسيد ... جميع الورى اسم وذاتي مسماه[3]

---

(١) انظر طبقات الشعراني من ص ١٢٦ إلى ص ١٣٢ .

(٢) يقول الكشخانلى في شرح وحقيقة الإنسان الكامل « الإنسان الكامل المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى عين الله وعين العالم » جامع الأصول في الأولياء ص ١١١ نقلا عن هذه هي الصوفية ص ٤٤ .

(٣) الإنسان الكامل ص ٢٢ /٢٣ نقلا عن هذه هى الصوفية ج ٤٢ .

فالجيلي هو كل شيء والله هو أيضا كل شيء من خير أو شر من فسق أو فجور الكل هو الله على حسب هذه العقيدة المجوسية .

ومن القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود أبو حامد الغزالي ولقد تأثر الناس به كثيرا لأنه كان في وقته يدارى كل طائفة ويتودد إليها بالموافقة وخفي أمره على كثير من الناس فلم يفطنوا إلى تعلقه بوحدة الوجود وإن كان قد صرح بها كثيرا في كتبه خصوصا إحياء علوم الدين ، وفي هذا يقول عنه عبد الرحمن الوكيل :

« لا تعجب حين ترى الغزالي يجنح في دهاء إلى السلفية في بعض ماكتب فللغزالي وجوه عدة كان يرائي بها صنوف الناس في عصره فهوأشعرى لأن نظام الملك صاحب المدرسه النظامية أراده على ذلك وهوعدو للفلسفة لأن الجماهير على تلك العداوة وهو متكلم ولكنه يتراءى بعداوته للكلاميين اتقاء غضب الحنابلة أما هو في كتبه المضنون بها على غير أهلها فصوفي إشراقي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وفي كتبه « الأخرى تجده أشعريا تارة وسلفيا مشوبا بأشعرية تارة أخرى وهكذا كان يلقي كل فريق بالوجه الذي يعرف أنهم يحبون لا يهمه أكان وجه حق أو وجه باطل » [١].

وأما بالنسبة لرجوعه عن غلوه في التصوف أو عدم رجوعه فقد قرر بعض العلماء أن الغزالي رجع عن تلك الأقوال الصوفيه إلا أن بعضهم شكك في رجوعه وتوبته ومن هنا يقول عبد الرحمن الوكيل :

« يحاول السبكي في كتابه طبقات الشافعيه تبرأة ساحة الغزالي بزعمه أنه اشتغل في أخريات أيامه بالكتاب والسنة ونحن نسأل الله أن يكون ذلك حقا .

ولكن لابد من تحذير المسلمين جميعا من تراث الغزالي فكل ماله من كتب في أيديهم تراث صوفي ولم يترك لنا في أخريات أيامه كتابا يدل على أنه اشتغل

(١) هذه هى الصوفية ص ٥٦ / ٥٧ .

بالكتاب وبالسنة »[1].

ومن أقوال الغزالي في وحدة الوجود كما جاءت في كتابة إحياء علوم الدين[2].

**للتوحيد أربع مراتب .**

**والثانية** :أن يصدق بمعني اللفظ قلبه كما صدق عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام .

**والثالثة** : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادره عن الواحد القهار .

**والرابعة** : ألا يرى في الوجود إلا واحدا ، وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لايرى إلا واحدًا فلا يرى نفسه أيضا وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده بمعني أنه فني عن رؤية نفسه والخلق .

وفي هذا التعبير أمور تدل على وحدة الوجود وذلك فيما يلي :

١ - وصفه لعموم المسلمين بأنهم عوام في الاعتقاد ويقصد به العقيده السهلة الواضحة التي جاء بها الإسلام .

٢ - في تقريره أن الذى يشاهد تلك الأمور عن طريق الكشف يراها كلها صادره عن فاعل واحد هو الله تعالى على ما فيها من خير وشر .

٣ - قوله لايرى في الوجود إلا واحدا هذا هو عين القول بوحدة الوجود .

وعندما أورد استشكالا قد يرد في الذهن وهو قوله :

---

(١) هذه هي الصوفية ص٥٢.

(٢)إحياء علوم الدين ص ٢٤٥/٢٤٦جـ٤.

فالجيلي هو كل شيء والله هو أيضا كل شيء من خير أو شر من فسق أو فجور الكل هو الله على حسب هذه العقيدة المجوسية .

ومن القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود أبو حامد الغزالي ولقد تأثر الناس به كثيرا لأنه كان في وقته يدارى كل طائفة ويتودد إليها بالموافقة وخفي أمره على كثير من الناس فلم يفطنوا إلى تعلقه بوحدة الوجود وإن كان قد صرح بها كثيرا في كتبه خصوصا إحياء علوم الدين ، وفي هذا يقول عنه عبد الرحمن الوكيل :

« لا تعجب حين ترى الغزالي يجنح في دهاء إلى السلفية في بعض ماكتب فللغزالي وجوه عدة كان يرائي بها صنوف الناس في عصره فهوأشعرى لأن نظام الملك صاحب المدرسه النظامية أراده على ذلك وهوعدو للفلسفة لأن الجماهير على تلك العداوة وهو متكلم ولكنه يتراءى بعداوته للكلاميين اتقاء غضب الحنابلة أما هو في كتبه المضنون بها على غير أهلها فصوفي إشراقي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وفي كتبه « الأخرى تجده أشعريا تارة وسلفيا مشوبا بأشعرية تارة أخرى وهكذا كان يلقي كل فريق بالوجه الذي يعرف أنهم يحبون لا يهمه أكان وجه حق أو وجه باطل » [1].

وأما بالنسبة لرجوعه عن غلوه في التصوف أو عدم رجوعه فقد قرر بعض العلماء أن الغزالي رجع عن تلك الأقوال الصوفيه إلا أن بعضهم شكك في رجوعه وتوبته ومن هنا يقول عبد الرحمن الوكيل :

« يحاول السبكي في كتابه طبقات الشافعيه تبرأة ساحة الغزالي بزعمه أنه اشتغل في أخريات أيامه بالكتاب والسنة ونحن نسأل الله أن يكون ذلك حقا .

ولكن لابد من تحذير المسلمين جميعا من تراث الغزالي فكل ماله من كتب في أيديهم تراث صوفي ولم يترك لنا في أخريات أيامه كتابا يدل على أنه اشتغل

---

(١) هذه هى الصوفية ص ٥٦ / ٥٧ .

ومن عتاة دعاة وحدة الوجود الجيلي صاحب كتاب « الإنسان الكامل » .

وقد ترجم له الشعراني وأطال في ترجمته ابتدأها بقوله :

« ومنهم أبو صالح سيدى عبد القادر الجيلى رضي الله عنه ثم جاء في أخباره بما لا يصدقه عاقل »(١) .

ومما يدل على تعمق الجيلي في القول بوحدة الوجود وأنه لم يعد بينه وبين الله أى فارق ولا بينه وبين كل المخلوقات في هذا الكون أي فارق أيضا ما أورده في كتابه الإنسان الكامل » (٢) .

| | |
|---|---|
| لي الملك في الدارين لم أرفيهما | سواى فأرجو فضله أو فأخشاه |
| وقد حزت أنواع الكمال | جمال جلال الكل ماأنا إلا هو |

* * *

| | |
|---|---|
| لي الملك والملكوت نسجي وصنعتي | لي الغيب والجبروت مني منشاه |

* * *

| | |
|---|---|
| فمهما ترى من معدن ونباته | وحيوانه مع أنسه وسجاياه |
| ومهما ترى من أبحر وقفاره | ومن شجر أو شاهق طال أعلاه |
| ومهما ترى من صورة معنوية | ومن مشهد للعين طاب محياه |
| ومهما ترى من هيئه ملكية | ومن منظر أبليس قد كان معناه |
| ومهما ترى من شهوية بشرية | لطبع وايثار لحق تعاطاه |
| ومهما ترى من عرشه ومحيطه | وكرسيه أو رفرف عز مجلاه |
| فانى ذاك الكل والكل مشهدي | أنا المتجلى في حقيقته لاهو |
| وإني رب للآنام وسيد | جميع الورى اسم وذاتي مسماه(٣) |

(١) انظر طبقات الشعراني من ص ١٢٦ إلى ص ١٣٢ .

(٢) يقول الكشخانلى في شرح وحقيقة الإنسان الكامل « الإنسان الكامل المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى عين الله وعين العالم « جامع الأصول في الأولياء ص ١١١ نقلا عن هذه هي الصوفية ص ٤٤ .

(٣) الإنسان الكامل ص ٢٢ /٢٣ نقلا عن هذه هى الصوفية ج ٤٢ .

فالجيلي هو كل شيء والله هو أيضا كل شيء من خير أو شر من فسق أو فجور الكل هو الله على حسب هذه العقيدة المجوسية .

ومن القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود أبو حامد الغزالي ولقد تأثر الناس به كثيرا لأنه كان في وقته يدارى كل طائفة ويتودد إليها بالموافقة وخفي أمره على كثير من الناس فلم يفطنوا إلى تعلقه بوحدة الوجود وإن كان قد صرح بها كثيرا في كتبه خصوصا إحياء علوم الدين ، وفي هذا يقول عنه عبد الرحمن الوكيل :

« لا تعجب حين ترى الغزالي يجنح في دهاء إلى السلفية في بعض ماكتب فللغزالي وجوه عدة كان يرائي بها صنوف الناس في عصره فهوأشعرى لأن نظام الملك صاحب المدرسه النظامية أراده على ذلك وهوعدو للفلسفة لأن الجماهير على تلك العداوة وهو متكلم ولكنه يتراءى بعداوته للكلاميين اتقاء غضب الحنابلة أما هو في كتبه المضنون بها على غير أهلها فصوفي إشراقي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وفي كتبه « الأخرى تجده أشعريا تارة وسلفيا مشوبا بأشعرية تارة أخرى وهكذا كان يلقي كل فريق بالوجه الذي يعرف أنهم يحبون لا يهمه أكان وجه حق أو وجه باطل »[1].

وأما بالنسبة لرجوعه عن غلوه في التصوف أو عدم رجوعه فقد قرر بعض العلماء أن الغزالي رجع عن تلك الأقوال الصوفيه إلا أن بعضهم شكك في رجوعه وتوبته ومن هنا يقول عبد الرحمن الوكيل :

« يحاول السبكي في كتابه طبقات الشافعيه تبرأة ساحة الغزالي بزعمه أنه اشتغل في أخريات أيامه بالكتاب والسنة ونحن نسأل الله أن يكون ذلك حقا .

ولكن لابد من تحذير المسلمين جميعا من تراث الغزالي فكل ماله من كتب في أيديهم تراث صوفي ولم يترك لنا في أخريات أيامه كتابا يدل على أنه اشتغل

(١) هذه هي الصوفية ص ٥٦ / ٥٧ .

بالكتاب وبالسنة »[1].

ومن أقوال الغزالي في وحدة الوجود كما جاءت في كتابة إحياء علوم الدين[2].

**للتوحيد أربع مراتب .**

**والثانية** :أن يصدق بمعني اللفظ قلبه كما صدق عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام .

**والثالثة** : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادره عن الواحد القهار .

**والرابعة** : ألا يرى في الوجود إلا واحدا ، وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لايرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضا وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده بمعني أنه فني عن رؤية نفسه والخلق .

وفي هذا التعبير أمور تدل على وحدة الوجود وذلك فيما يلي :

١ ـ وصفه لعموم المسلمين بأنهم عوام في الاعتقاد ويقصد به العقيده السهلة الواضحة التي جاء بها الإسلام .

٢ ـ في تقريره أن الذى يشاهد تلك الأمور عن طريق الكشف يراها كلها صادره عن فاعل واحد هو الله تعالى على ما فيها من خير وشر .

٣ ـ قوله لايرى في الوجود إلا واحدا هذا هو عين القول بوحدة الوجود .

وعندما أورد استشكالا قد يرد في الذهن وهو قوله :

---

(١) هذه هي الصوفية ص٥٢.　　(٢)إحياء علوم الدين ص ٢٤٥/٢٤٦جـ٤.

« فإن قلت كيف يتصور إلا يشاهد ألاواحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً ؟

ولاشك أن هذا الاستشكال وارد وهو استشكال قوي جدا ويحتاج إلى جواب شاق فبماذا أجاب الغزالي عن هذا أجاب عن إيراد هذا السؤال بقوله :

« فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون افشاء سر الربوبية كفر » .

وهذا الجواب فيه اتهام لله بالتقصير في بيان أمر التوحيد حيث لم يبينه الله تمام البيان ولا بينه الرسول ﷺ ولا يعرفه أحد إلا أرباب الكشف الصوفي الذين يعرفون كل تفاصيل التوحيد إلا أنهم لا يحبون افشاء سر الربوبية لأنه يؤدى إلى الكفر حسب هذا الزعم والواقع أنه قد صدق فإن هذا التوحيد الذي لا يعرفه إلا أصحاب الكشف هو نفسه التوحيد الذي لا يفرق بين الخالق والمخلوق وهو أمر لا يقربه أحد من المسلمين .

أما الجواب الثاني فهو مثل ضربه يفيد أنه قد يحصل تعدد أشياء في شيء واحد دون فارق بينهما وذلك كالإنسان وأعضائه فهو إنسان واحد ولكن له أعضاء كثيرة روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشاؤه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد أى إنسان وهذا الجواب أرد أمن الذى قبله يريد أن يثبت لنا القول بوحدة الوجود قياسا على الوحدة المتكاملة بين الإنسان وأعضائه وأردء من هذا أيضا جعله هذه الأوصاف هي نفسها الفناء في التوحيد حسب ما أورده عن موقف جرى بين الحلاج والخواص .

حيث رأي الخواص يدور في الأسفار فقال فيماذا أنت ؟ فقال : أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل فقال : الحسين ـ الحلاج ـ قد أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد ؟ فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث فطالبه بالمقام الرابع .

أي أن الحلاج كان في المقام الثالث أو الرتبة الثالثة في التوحيد وهى أنه يرى الأشياء هى نفسها « الله » ولكن بطريق الواسطة والكشف فطالبه الخواص - والغزالي لإقراره كلام الخواص - بأن يرتقي إلى الدرجة الرابعة [1] في تحقيق التوحيد وهي أن لا يرى في الوجود إلا واحدا وهي (الفناء في التوحيد) بدون واسطة ولا كشف وبها يتحقق التوحيد.

وفي كتاب مشكاة الأنوار للغزالي تصريح بوحدة الوجود في أكثر من موضع[2]، وقد فندها الشيخ عبد الرحمن الوكيل وأظهر عوارها[3].

ومن كبار القائلين بوحدة الوجود عامر بن عامر أبو الفضل عز الدين حيث قال محاكيا ابن الفارض في تائيته وفي معتقده أيضا :

تجلى لى المحبوب من كل وجهة ... فشاهدته في كل معنى وصورة
وخاطبني مني بكشف سرائر ... تعالت عن الأغيار لطفا وجلت[4].
فقال أتدرى من أنا قلت أنت يا ... منادى أنا إذ كنت أنت حقيقتى
نظرت فلم أبصر سوى محض وحدة ... بغير شريك قد تغطت بكثرة
تكثرت الأشياء والكل واحد ... صفات وذات ضمنا في هوية
فأنت أنا لا بل أنا أنت وحدة ... منزهة عن كل غير وشركة[5].

وقد اختار نقل هذه الأبيات من تائية ابن عامر الشيخ عبد الرحمن الوكيل

---

(١) انظر إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٢١٢ وانظر تعليقات الشيخ عبد الرحمن الوكيل في كتابه هذه هي الصوفية من ص ٤٧ إلى ص ٥٦ .

(٢) انظر ص ١٢٢ إلى ص ١٢٥ . (٣) انظر ص ٥٤ - ٥٦ .

(٤) أي تعالى الله عن أن يكون له غير إذ هو عين كل شيء والمسلم يقول تعالى الله عن الشريك والمثيل لأنه الخلاق العليم انظر هذه هي الصوفية ص ٥٧ .

(٥) تائية ابن عامر .

وهي صريحة لا لبس فيها على ما يذهب إليه أهل وحدة الوجود الذين يرون أنه لا يكتمل إيمان العبد ولا يصل إلى الله إلا إذا تلاشت « أنا » من نفسه فأصبح في لجة جمع الجمع ورفع الإثنينية .

وقد سلك هذا المسلك في الاعتقاد بوحدة الوجود جماعة أخرى من الصوفيه يمكن إحالة القارئ للاطلاع على كلامهم إلى كتاب الشيخ عبد الرحمن الوكيل حيث ذكر نصوصا كثيرة عنهم نثرا ونظما ومن أولئك محمد ابن إسحاق المشهور بالقونوي[1]،وعبد الغني بن إسماعيل المشهور بالنابلسي[2]. وعبد السلام بن بشيش أو مشيش وهو من كبار شيوخ الشاذلية، ومحمد الدمرداش المحمدي [3].

وأحمد بن عجيبة الإدريسي [4].وحسن رضوان [5].

وكل واحد من هؤلاء قد أدلى بدلوه وخاض فيما ليس له بحق وحاول تثبيت عقيدة وحدة الوجود بكل ما أمكنه من الكلام نثرا ونظما ما قد يطول نقله وتثقل قراءته إذ إنهم لا يختلفون إلا في الألفاظ فقط والمورد واحد .

**٤ ـ وحدة الشهود أو الفناء.**

**وبيان العلاقة بين وحدة الشهود ووحدة الوجود:**

وحدة الشهود هو ما يسمونه في بدء أمره مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق أي لا يصل إلى درجة الحلول والاتحاد في أول الأمر إلا بعد أن يترقى درجات ثم يصبح كما يقول على حرازم ناقلا جواب شيخه التيجاني « اعلم أن سيدنا رضي

---

(١) له كتاب « مواتب الوجود » مخطوط بالظاهريه بدمشق رقم ٥٨٩٥ .

(٢) رسالة اسمها « حكم شطح الولي »مخطوط بالظاهريه بدمشق رقم ٤٠٠٨ .

(٣) له كتاب القول الفريد .

(٤) له كتاب إيقاظ الهمم في شرح الحكم .

(٥) له كتاب روض القلوب المستطاب .

« أرأيت إلى من صنمته [1]، الصوفيه باللقب الفخم الضخم [2]، لتفتن به المسلمين عن هدى الله تعالى ؟ أرأيت إلى الغزالى يدين بوحدة الوجود أو الشهود سمها بما شئت فعند الكفر تلتقي الأسطورتان لا تقل إن وحدة الوجود أنشودة من البداية وحدة الشهود أغرودة عند النهاية فكلتاهما بدعة صوفية بيد أنها غايرت بين الاسمين وخالفت بين اللونين ولكن البصر البصير لا يخدعه اسم الشهد سمي به السم الناقع كلتاهما زعاف الرقطاء غيرأن واحدة منهما فى كأس من زجاج والأخرى فى كأس من ذهب» [3].

فينبغى أن نبتعد عن هذه الكلمة - وحدة - أشد البعد فإن الله تعالى هو الواحد القهار لم يشرك أحدا في خلقه ﴿ **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ ولنا فى العبارات الطيبة التى تربطنا بربنا مجالا واسعا كالإسلام والإيمان والإحسان كما جاء فى حديث جبريل حيث سأله عن تلك الأمور ولم يسأله عن وحدة الشهود ولا وحدة الوجود ولا الحلول ولا الكشف ولا غير هذا مما هو من اختراع الصوفيه تبعا لأفكار ضالة ليس بينها وبين الإسلام أى صلة أو تقارب .

إن وحدة الشهود تؤدى في النهاية إلى القول بالحلول رغم مازخرفوه من الكلام والتدليس .

وقد وضح على حرازم الأمر وجلاه فى بيانه لأقسام مراتب المحبة التى هى محبة الإيمان ، ومحبة الآلاء والنعماء ، ومحبة الصفات، ومحبة الذات ثم بين هذه المراتب إلى أن قال عن القسم الرابع من المحبة :

« ومتى وصل إلى محبة الذات أعني أنه يشم رائحة منها فقط انتقل إلى الفناء مرتبة بعد مرتبة فيكون أمره أولا ذهولا عن الأكوان ثم سكرا ثم غَيْنية وفناءاً مع شعوره بالفناء ثم إلى فناء الفناء وهو أنه لم يحس بشيء شعورا وتهمما

(١) أي جعلته صنما .        (٢) أى لقبه حجة الإسلام .

(٣) هذه هى الصوفية ص ٥٠ .

الله عنه سئل عن حقيقة الشيخ الواصل ما هو ؟ فأجاب رضي الله عنه بقوله : أما حقيقة الشيخ الواصل فهو الذى رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرا عينيا وتحقيقا يقينيا »[1].

وهذه نهاية الفناء في الله ووحدة الشهود فيه .

**وأما العلاقة بين وحدة الوجود ووحدة الشهود**

فإنه يرى بعض العلماء أن بين وحدة الوجود ووحدة الشهود فارقا بعيدا وذلك أن وحدة الوجود هي الحلول والاتحاد وعدم التفرقه بين الله وبين غيره من الموجودات بينما وحدة الشهود عند بعضهم هى بمعنى شده مراقبة الله تعالى بحيث يعبده كأنه يراه .

ومن هنا ظن هذا البعض أن وحدة الشهود لا غبار على من يقول بها ومنهم من يؤكد على أن وحدة الشهود هى الدرجة الأولى إلى وحدة الوجود والواقع أن التفريق بين وحدة الشهود ووحدة الوجود ليس له أساس ثابت بل هو قائم على غير دليل إلا دليلا واحدا هو الذوق الصوفي وذلك أن خير البشر لم يستعمل هذه الحالة ولا نطق باسمها في عبادته لربه ولا كان أصحابه أيضا يقولون بها فكان شأنهم أنهم يعبدون الله وهم على أشد ما يكونون من الوجل والخوف أن ترد عليهم أعمالهم مع وجود أشد الطمع في نفوسهم لعفو ربهم وتجاوزه عنهم يعبدونه بالخوف والرجاء ووحدة الشهود ووحدة الوجود لم تعرف إلا بين الفئات الذين أمتلأت نفوسهم إعجابا وتيها بأعمالهم وقلت هيبة الله تعالى في نفوسهم .

يقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل في أثناء رده على الغزالى وبيان خطر أفكاره على الإسلام والمسلمين ومدى تعلق الغزالى بوحدة الوجود أو الشهود:

(۱) جواهر المعاني جـ ١ ص ١٣٥ .

وحسا واعتبارا وغاب عقله ووهمه وانسحق عدده وكمه فلم يبق إلا الحق بالحق للحق في الحق وهو مقام الفتح والبداية يعني بداية المعرفة وصاحبه إذا أفاق من سكرته يأخذ في الترقي والصعود في المقامات إلى أبد الأبد بلا نهاية »[1].

وقوله أنه لا نهاية لترقية لا يتفق مع ما قدمه مما يدل على نهاية الترقي وهو الوصول إلى وحدة الوجود كما في قوله :

« إلى أن ينتقل إلى المشاهدة وهى الاستهلاك في التوحيد وغاية المشاهدة ينمحق الغير والغيرية ، فليس إلا الحق بالحق للحق عن الحق فلا علم ولا رسم ولا عقل ولا وهم ولا خيال ولا كيفية ولا كمية ولا نسبة انتفت الغيرية كلها»[2].

إلى أن قال عن دخول الحضرة الإلهية :

« فإن من دخلها غاب عن الوجود كله فلم يبق إلا الإلوهية المحضة حتى نفسه تغيب عنه ففي هذا الحال لا نطق للعبد ولا عقل ولا هم ولا حركة ولا سكون ولا رسم ولا كيف ولا أين ولا حدود ولا علم فلو نطق العبد في هذا الحال لقال لا إله إلا أنا سبحاني ما أعظم شأني لأنه مترجم عن الله عز وجل»[3].
هذا هو الحلول والاتحاد ومع ذلك سماه على حرازم « غاية الصفاء » ونسى أو تناسى أو جهل - وهو الصحيح - أن الرسول ﷺ ولا أحد من صحابته قد قال سبحانى ما أعظم شأني أو قال لا إله الا أنا ، لأن قائل هذه الألفاظ لا دين له إلا دين المجوسية ومن هنا استشهد على حرازم بعد الكلام السابق على صحة هذا الصحو فى الله بقول الحلاج سبحاني ما أعظم شأني . ومن حسن الحظ أنه لم يستدل بقول أحد من المسلمين .

وتتضح صورة القول بوحدة الوجود عند التيجانيه كما هى عند سائر أقطاب التصوف الغلاة في قول على حرازم في صراحة تامة وفي مواضع كثيرة

---

(١) جواهر المعاني جـ ١ ص ١٦٥ .
(٢) جواهر المعاني ص ١٣ .
(٣) جواهر المعاني ص ١٧ .

من كتابه جـواهر المعاني نأخذ منها قوله في أثناء بيـانه لمنزلة الخلق من الحق تبارك وتعـالى وأنهم صـور تنبئ عن الله تمامـا فـقـال في ذلك : « ولايكون هذا إلا لمن عرف وحـدة الوجود فـيشـاهد فيـها الوصل والفـصل فإن الوجـود عين واحدة ولاتجزؤ فـيهـا على كثـرة أجناسهـا وأنواعهـا ووحدتهـا لاتخرجـها عن إفـتراق أشـخاصـها بالأحكام والخـواص وهى المعبـر عنهـا عند العارفين آن الكثـرة عين الوحدة والوحدة عين الكثرة »[1].

ومن العجيب أنهم يستـدلون على هذا المسلك بقـول الرسول ﷺ :« إن الله قـال من عادى لي وليـا فقـد آذنته بالحـرب الي آخر الحـديث»[2]، والحديث حسب مفهومهم معناه أن العـبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفي من الكدورات أنه يصير في معنى الحق تعالى الله عن ذلك وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهدأن الله هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه المحب لنفسه وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدما صرفا في شهوده وإن لم تعدم في الخارج[3] ، وينسى العبد نفـسه في الله وأن الله يحل بجـوارحـهم فهـو في سمـعهم وأبصـارهم وأيديهم وأرجلهم قد إتحدت ذاته بذواتهم .

فهل كان الرسول ﷺ يقصد ماذهب إليه زعماء الصوفية؟ والجواب سيكون بالنفى قطعا. وقد أجاب العلماء عن مـعنى هذا الحديث بعدة أجوبه ذكرها كلها ابن حـجر رحـمه الله ومنهـا أن معناه أن الـعبـد يحب طاعة الله ويؤثر خـدمتـه ومحبـته وأنه لا يستعمل هذه الجوارح إلا وفق مـا شرعه الله له فلا يستـعملها إلا في ما أحبه الله ويبعدها عن كل ما يغضب الله تعالى[4]، لا أن الله يحل في تلك الجوارح والرسول ﷺ أعظم وأجل من أن يتصور ربه على هذه الصفات.

وتلك المعانى الباطلة لمعنى الحديث موضحة في جمهرة الأولياء للمنوفي في

---

(١) جواهر المعاني : ج٢ ص٧٣ .
(٢) صحيح البخارى ج ١١ص٣٤١.
(٣) فتح البارى ج ١١ ص٣٤٤ .
(٤) المصدر السابق ج١١ ص٣٤٤ .

مقال تحت عنوان « دور الكمال » ذكر فيه أن الصوفية قد تطورت فشاركت في أبحاث كثيرة فقهية وفلسفية إلى أن قال : « وقد خطا الجنيد في هذا السبيل الخطوات الأولى الفاصلة فانتقل من حال الفناء التي قال بها البسطامي إلى فكرة الاتحاد ، وذهب إلى أن المتصوف قد يصل إلى درجة يتحد فيها الروح اتحادا تاما بخالقه عن طريق الشهود [1].

ثم ذكر بعد ذلك أنه ليس المراد من هذا الاتحاد ماهو معروف في البوذية والمسيحية وإنما هو بمعنى أنه مجرد ملاحظة روحية ولكن يبقى عليه أن الملاحظة الروحية لا يقال فيها بالاتحاد وإنما هي زيادة تعلق القلب بخالقه فقط ومن قال أن ملاحظاته جعلته متحدا مع الله فلا شك في خروجه عن الحق مهما حاول بعد ذلك تغطية معتقده بزخرف القول .

لقد أصبحت وحدة الشهود عند المتصوفة : هى أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية وهى الحال التى يسمونها بالفناء وعين التوحيد وحال الجمع وهى الاتصال بين العبد وبين ربه عن طريق الشهود الصريح فيما يزعمون ، ويصل الإنسان إليها بزعمهم بكثرة الذكر حتى يقع الشهود القلبي ثم يستغنى عن الذكر بمشاهدة المذكور حسب تخيلاتهم السقيمة الإلحادية فاتضح مما سبق أن الفوارق لا تكاد تعرف بين تلك التسميات فهى داخلة في النهاية كلها في دائرة واحدة هى القول بالحلول مهما تعددت صوره . [2]

**٥ ـ وأما اعتقادهم في الرسول ﷺ** فهو ضرب من الخيال والإلحاد فهم يزعمون :

١ ـ أن الله كان في عماء دون تعيين فأراد أن يتعين في صورة فتعين في صورة محمد ﷺ أى أنهم يعتقدون أن محمدا ﷺ هو الله سبحانه وتعالى ذاتا وصفة

---

(١) انظر ص ٢٧٥ ج١ .

(٢) انظر ماكتبه د.صابر طعيمة في كتابه الصوفية معتقدا ومسلكا ص٢٥٧ .

حيث تعينت فيه الذات الإلهية في صورة مادية كما قرر الكشخانلي ومحمد الدمرداش - والجيلي والبيطار والقاشاني والفوتي وعلى حرازم والشعراني[1].

٢ - وأن الذى هاجر من مكة إلى المدينة هو الذات الإلهية متجلية في صورة هى محمد ﷺ كما قرر بن عربي ذلك في قوله : « اللهم أفض صلة صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعينات المفاضة من العماء الرباني وآخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنساني المهاجر من مكة كان الله ولم يكن معه شيء ثان إلى المدينة... الجامع بين العبودية والربوبية الشامل للامكانية والوجودية»[2] .

٣ - أن الرسول محمد ﷺ يحضر كل مجلس أو مكان أراد بجسده وروحه وأنه يتصرف ويسير حيث يشاء في أقطار الأرض إلى اليوم لم يتبدل بعد وفاته[3].

٤ - كل هذه الموجودات إنما وجدت من نور محمد ﷺ ثم تفرقت في الكون[4]، وهكذا فقد أصبح من الأمور المسلمة عند الصوفية أن هذا الكون وكل ما يحصل فيه من خير وفيض إنما يتم عن طريق الرسول محمد ﷺ وفيما قدمنا من النقل عن جواهر المعاني ورماح الفوتي ما يغني عن إعادته هنا وهذا المعتقد مقرر في كتب الصوفيه كلهم من التيجانيه أو من غيرهم ولهذا يقول المنوفي في بيان تلك القضية :

---

(١) انظر النصوص عن هؤلاء في كتاب « هذه هى الصوفية » من ص ٧٣ - ٩٢ .

(٢) هذه هى الصوفية ص ٧٧ .

(٣) انظر ما كتبه الفوتي في رماحه ج١ص٢١٩هامش جواهر المعني وانظر جمهرة الأولياء ج٢ص١٢.

(٤) هنا مربط الفرس في العقيدة الصوفية فقلما يخلوا كتاب من كتبهم عن تقرير هذه العقيدة .

لله در القائل :

| | |
|---|---|
| ما أرسل الرحمن أو يرسل | من رحـمة تصـعـد أو تنزل |
| في ملكوت الله أو مـلكـه | من كل ما يختص أو يشـمل |
| إلا وطه المصطفى عبـده | نبيـه مخـتاره المرسـل |
| واسـطة فيها واصـل لهـا | يعلم هـذا كل مـن يعـقل [1] |

أي أن كل من يعـقل - ولو قـال كلَ من يجـهل لكان أصـوب - يعـرف تمام المعرفه أن هذا الكون وما فيه إنما هو مستمد لبقائه ووجوده من محمد ﷺ الذى هو الرب تعالى في تعينه الثاني .

ويقـرر ابن عطاء الله السكـندرى ذلك بقـوله: «جمـيع الأنبـيـاء خلقـوا من الرحمة ونبينا ﷺ عين الرحمة» . [2]

ومما لايجهله أى مسلم أن الرسول ﷺ عبد بشر مثل سـائر البشر كرمه الله تفضلا ومنة عليه بالرسالة مثل سائر الأنبياء والرسل .

وهو عليه الصـلاة والسلام غني عن مـبالغات الصـوفية وأكـاذيبهم الحمـقاء فكل ما قرره أقطاب الصوفية من أولهم إلى آخرهم حول الحقيقة المحمدية ونشوء الخلق عنهـا فـإنه كـلام خـارج عن عـقـيدة المسـلمين من دان به فـلا حظ له في الإسلام بل هو مجوسى وثني .

٥ - يعتقدون كـمـا قرره ابن عربي أن الرسول ﷺ كان يعرف الـقرآن قبل نزوله بل أنه على حسب زعـمهم هو الذى يعلم جبريل الذى بدوره يـوحيه إلى محمد ﷺ ثانية [3]، ومن الصوفـية مثل أبي يزيد البـسطامي من يزعم أن الرسول كـان جـاهلا لا يصل إلى مـرتبتـهم حيث قـال : « خـضنا بحـرا وقف الأنبـيـاء

---

(١) جمهرة الأولياء ج٢ ص١٠ (٢) لطائف المنن ص٥٥ .

(٣) هذه هى الصوفية ص٨٩ ، ينقله عن كتاب الكبريت الأحمر للشعراني ص ٦ .

بساحله»[1]، وهذه الإفتراءات كلها إلحاد وزندقة وشبهات مظلمة وابطالها مما لا يشق على مسلم عرف شيئا عن تعاليم الإسلام ، فإنّ القرآن منزل من عند الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام وهذه هى عقيدة كل مسلم من لم يؤمن بها أوشك فيها فلا حظ له من الإسلام ولاصلة بينه وبين المسلمين.

### ٦ - الولاية وبيان بعض المصطلحات الصوفية :

تطلق كلمة ولاية في اللغه العربية[2] ، على عدة معان منها التابع المحب والصديق والناصر .

أما معناها في مفهوم الصوفية فهى تنتهى أخيرا في مصب وحدة الوجود فقد عرفها المنوفي[3] تحت عنوان « أولياء الله » بقوله : « اعلم أن الولاية عبارة عن تولي الحق سبحانه وتعالى عبده بظهور أسمائه وصفاته عليه علما وعينا وحالا وأثره لذة وتصرفا » ثم زاد الأمر وضوحا حينما بين التجليات الإلهية والفيوضات التي تقع على السالك وأفعاله وأفعال كل المخلوقات ثم « لا يرى في نظره غير فعل الفاعل الحقيقي وهو الله » .

وعرفها الجرجاني بقوله :

**الولي** : هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات وقال أيضا الولاية : هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه. [4]

وقد ذكر السهروردي الولاية وقسمها إلى أقسام باعتبارات مختلفة ثم ذكر

---

(١) انظر شطحات الصوفية ص ٣١ .

(٢) انظر مادة ولي تهذيب اللغة للأزهرى جـ ١٥ ص ٤٤٧ ونزهة الأعين النواظر ص ٦١٤ والمختار من الصحاح ص ٥٨٣ وغير ذلك من كتب اللغة .

(٣) جمهزة الأولياء للمنوفي جـ ١ ص ٩٨ / ٩٩ .

(٤) كتاب التعريفات ص ٢٥٤ .

بعض الكرامات للأولياء التي لا يخلو من ذكرها كتاب صوفي . وأكثر تلك الكرامات التي يروونها محض خرافات وقصص باطلة . ثم خلص السهروري إلى أن الصالحين الذين يتولاهم الله ويتولونه ليس المراد بهم : « الذى يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب ويقولون فلان صالح وشهيد وولي بل الصلاح هنا المراد به : الذين صلحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليقتة » [1] .

وأما القطب الكبير عند الصوفية وهو القشيري فقد ذكر تعريفات كثيرة للولاية ونقل عن أكابر مشائخهم أراءهم في الولاية وأهميتها وعلاماتها وكيفية الحصول عليها ومسائل أخرى [2]، وهكذا فإن نظرة الصوفية إلى الولي والولاية ليست هى تلك المنزلة الطيبة في مفهوم الإسلام . لأن الولي الصوفي لاحد لصلاحياته في هذا الكون .

وقد جاءت الولاية في القرآن الكريم مرادا بها المدح وأحيانا مرادا بها الذم فهى تستعمل في الخير وفي الشر حسب إطلاقها ، لأن صاحبها أما أن يكون وليا لله تعالى أو وليا للشيطان وبين الولايتين من البعد والانفصال ما يعرفه كل مسلم سليم الفطرة صافي العقيدة .

وجاءت في السنة النبوية مرادا بها وصف من ساروا على سنة رسول الله ﷺ والتزموا طريق الخير ونصروا الدين ووالوه .

ثم توسع الصوفيه والشيعة فى إطلاقها وخرجوا بها عن حقيقتها ومدلولها الصحيح فأطلقت على الرجل المتصوف أو من ينتسب إلى آل البيت ثم اسبغوا على ائمتهم وكبار دعاتهم هذه الكلمة وأنواعا أخرى من التهويلات لمطامع إجتماعيةوسياسية .

ثم أخذها الصوفيون بعد ذلك وأخرجوها في مذاهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود . وهناك صفة ثانية أضيفت إلى مفهوم الولاية عند الشيعة

---

(١) عوارف المعارف ص ٨٤ .    (٢) الرسالة القشيرية ص ٥٢٠ جـ ٢ .

والصوفية وهى صفة العلم اللدني الذى أخذه على بن أبى طالب عن الرسول ﷺ كما زعموا ثم ورثه إياهم ببركة تلك الولاية وبلغ الغلو بالصوفية في أوليائهم إلى أن أتخذوا بين الله وبين خلقه وسطاء على طريقة النصارى واليهود والمشركين تماما .

فكما اتخذ هؤلاء المسيح وعزيز والملائكة أربابا لهم من دون الله اتخذ الصوفية وسطاء إلى الله عز وجل أسموهم القطب والغوث والولي ونسبوا إليهم النفع والضر لأن الله بزعمهم جذبهم إليه واختصم ثم ساووهم مع الله تعالى في كل صفاته بل أصبح من شرط الولي أن يكون متصفا بصفات الله ـ كما يزعمون ـ ومن هنا نشأ تنطعهم وتنقصهم للأنبياء على حد ما ورد عن أبى يزيد البسطامي في قوله :

« خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله » ثم اخترعوا مفهوما كاذبا للولاية فهى عندهم مجرد هبة من الله عز وجل لبعض خلقه دون أن يكون لها سبب بل وبغض النظر عن صلاح الشخص أو فجوره، واستدلوا بقول الله عز وجل: ﴿**يختص برحمته من يشاء**﴾ أى دون سبب حسب مفهومهم ومعنى هذا أنهم يجعلون مفهوم الولايه كمفهوم النبوة الكل بلا سبب ظاهر وهذا خلاف ما قرره الإسلام بالنسبة للولاية التى تنتج عن طاعة الله تعالى والمتابعة لنبيه ﷺ . وقد قسموا الولاية والأولياء إلى أقسام يطول شرحها بدون فائدة فيها.[1] الامانستثنيه مما ذكره المنوفي حين قسمهم إلى :

**١ ـ الملامتية :**

وهم الذين لايظهرون للخلق أعمالا وأسرارا بل يخفون أسرارهم لكمال ذوقهم وقوة شهودهم لربهم .

(١) انظر ما كتبه الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه الفكر الصوفي ص ٢١٩ ، وانظر الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٩٢ وص ١٠١ .

**٢ ـ الغوث الأكبر :**

وهو أكبر الأولياء والأقطاب وهو ذات الحق باعتبار تجريدها من الاسم والصفة » .

**٣ ـ والأوتاد الأربعة :**

وهم حفظة العالم كل واحد منهم في ركن من أركان العالم وهم على قدم بدل من الأبدال ؛ أى أقل رتبة من الأبدال لأن الأبدال يكونون على قدم قطب من الأقطاب .

**٤ ـ والأقطاب السبعة :**

لحفظ القارات السبع ، والقطب هو الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان . والقطبانية الكبرى : هى مرتبة قطب الأقطاب وهو باطن النبوة للرسول ﷺ والأبدال زعموا أنهم أربعون وهم مكلفون بحفظ العالم والكون وقد عرفهم المنوفي بأنهم : « أبدال الأقطاب من الأولياء فإن مات قطب أحل الله محله بدلا منه ومنهم الخلفاء الأربعة .

**٥ ـ النجباء وهم الأربعون القائمون بإصلاح شئون السالكين :**

**٦ ـ والأفراد :**

وهم المفردون والغرباء لتفردهم عن الخلق بشهود الحق وغربتهم فى أهل زمانهم وهم غير منحصرين فى رتبة أو منزلة ولهم كشف خاص وعلوم الهية غريبة على الناس .. وهم على قدم النبي ﷺ (١) .

**٧ ـ وأخيرا وصلوا بالولاية إلى أنها مثل النبوة تماما فلها ختم كما للنبوة**

---

(١) انظر جمهرة الأولياء جـ ١ ص ١٢١ و ٣٠٦ ، ٣١١ .

ختم. فخاتم الأنبياء محمد ﷺ وخاتم الأولياء عند الصوفيه مجموعة من الكذابين مختلفون فيما بينهم على ادعائها .

وأول من ادعى ختم الولاية به هو محمد بن على بن الحسين « ويسمونه الحكيم الترمذى » وقد ظهر فى القرن الثالث الهجرى فى آخره وهو غير الترمذى صاحب السنن.

وحين صنف الحكيم الترمذى كتابه « ختم الولاية مضاهيا بذلك القول بختم النبوة شهدوا عليه بالكفر ثم نفى من ترمذ .

ثم جاء ابن عربي المتوفي سنة ٦٣٨ هـ فادعى أنه هو خاتم الأولياء .

ثم جاء محمد بن عثمان الميرغني السوداني المتوفي سنة ١٢٦٨ هـ فادعى أنه هو خاتم الأولياء ثم جاء أحمد التيجاني من فاس بالمغرب المتوفي سنة ١٢٣٠هـ فادعى أنه هو خاتم الأولياء وأن من سبقه أو يلحقه ممن يدعى ختم الولاية فإنه كاذب مفتر .

وكل واحد ممن يدعيها له مزاعم وادعاءات وكرامات ومزايا لا يصدقها شخص له أدنى معرفة بالدين الإسلامى .

وكلما جاء رجل منهم ادعى أنه هو خاتم الأولياء وأن غيره كذاب - والكل والله يشهد - إنهم كاذبون ثم بلغ بهم الغلو أن فضلوا خاتم الأولياء المزعوم على خاتم النبيين لأمور لا فائدة من التطويل بذكرها . فإنهم مهما تفننوا في الاستدلال على ذلك ومهما زخرفوا القول فيه فهو مردود جملة وتفصيلا .

## الكشف الصوفي

من أصول الدين الإسلامى وقواعد الإيمان فى الشريعة الإسلامية أن الله تعالى وحده هو علام الغيوب . وأن الخلق مهما كانت منزلة أحدهم لا يصل إلى معرفة الغيب إلا من شاء الله أن يطلعه منهم على ما أراد من ذلك سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا .

ولقد تعدى المتصوفه على هذه الصفة لله عز وجل فأقاموا أمرا سموه « الكشف الصوفي » ويعني عندهم رفع الحجب من أمام قلب الصوفي وبصره ليعلم بعد ذلك كل ما يجرى في هذا الكون وبالغوا في هذا الادعاء بما لا يجرؤ على القول به إلا عتاة الزنادقة كما هو مسطر في كتبهم بأقلامهم وكما تبين ذلك من خلال ماقدمنا من الإشارات الكثيرة إلى حقيقة الكشف من خلال نظرتهم إلى أقطابهم في حالة رفع الحجب عنهم واتحادهم بالله ورفع الأنيّة بينهم وبين الله ويبدوا أنهم ترقوا في هذه الدعوى على النحو التالى :

١ - ادعوا أن الصوفى يكشف له عن معان جديدة في القرآن والسنه والآثار والرسوم لا يعلمها علماء الشريعة الذين سموهم علماء الظاهر والقراطيس لأنهم أى علماء الشريعة إنما يعتمدون فى نقل تلك المعانى من القرآن والسنة على موتى وأما هم فإنهم يأخذونها عن الله تعالى مباشرة ومن هنا تجد أقطاب التصوف حين يشرحون بعض الآيات والأحاديث يأتون فيها بمعان من نسج أخيلتهم ويزعمون فيها مزاعم هى عين الأكاذيب التي لا يسندها أيّ دليل لا من الشرع بل ولا من العقل في أكثر ما جاءوا به في شروحاتهم .

٢ - ثم ترقوا فقالوا إن لهم علوما لا توجد في الكتاب ولا في السنة يأخذونها جديدة عن الخضر الذى هو على شريعة الباطن حسب زعمهم .

وهذه الفرية هى التي استباحوا بموجبها كثيرا من الفواحش والمحرمات إذ إن

النصوص التي يفيد ظاهرها التحريم قد يفيد باطنها الإباحة والخضر يؤكد لهم ذلك فإذا بتلك النصوص ظاهرها في واد وباطنها في واد آخر لاصلة بينهما إلا تلك الروايات التي صدرت عن الخضر أو بعض المنامات التي حدثت لأقطابهم الكبار الذين استباحوا كل محرم من الفواحش .

٣ - وهناك فرية أيضا اقترفوها وهي قولهم أنهم يتلقون علومهم عن ملك الإلهام كما تلقى الرسول محمد ﷺ علومه من ملك الوحي مباشرة .

٤ - وآخرون منهم يزعمون أنهم يتلقون علومهم عن الله رأسا وبلا واسطة حيث تنطبع هذه العلوم فى نفوسهم وبموجبها يأتون ما يأتون من أمور .

٥ - وآخرون منهم يدعون أن الرسول ﷺ هو الذى يخبرهم بأذكارهم وعبادتهم يقظة لا مناما .

٦ - ثم زعموا أنهم يعلمون أسرار الحروف المقطعة من القرآن وقصص الأنبياء على حقيقتها وأنهم يجتمعون بالأنبياء ويسألونهم عن تفاصيل قصصهم وخرافات كثيرة ذكرها الجيلي في كتابه « الإنسان الكامل » يمجها السمع وينفر عنها الذوق . وكذا الغزالى حين دخل التصوف ولم يستطع الخروج منه رغم أنه كان من علماء الشريعة فقد ذكر أشياء كثيرة عن الكشف الصوفي وخرافاتهم فيه مؤيدا له .

وعتاة هذه الدعوى ابن عربى وعبد العزيز الدباغ والبسطامي والتيجاني والمرسي وغيرهم [1]، لقد كانت دعوى الكشف هى المقدمة الأولى في نظرى إلى الادعاء بوحدة الوجود والحلول أن دعوى الكشف مبالغة فاحشة ولكنها تعتبر من باب التمهيد لما هو أفحش منها وهو ادعاء الاتصاف بالله والأخذ عنه مباشرة ولذلك ترى كثيرا من المؤلفين من علماء التصوف زعموا أنهم لم يأتوا بما

---

(١) انظر الفكر الصوفي ص ١٤٣ الفصل التاسع .

ذكروه في كتبهم إلا عن طريق الكشف الصريح يتلقونه عن الله مباشرة رغم ما يحمل من كفر وفجور وزندقة إباحية .

كما زعم ابن عربي في فصوصه والجيلي في كتابه الإنسان الكامل الذى يقصد به الرسول ﷺ الذى اتصف حسب تقرير الجيلى بصفات الله تعالى وبصفات أقطاب التصوف أحيانا حيث يظهر في صورة أي شيخ منهم كالشبلى والجبرتي وغيرهما في زمنهم وفي غير زمنهم .

وكتاب الجيلى « الإنسان الكامل » مملوء بالعبارات التى تؤدى إلى إحياء الخرافات والزندقة فقراءة عابرة له تجعلك لا تتوقف في هذا الحكم عليه ولا فيما كتبه عتاة التصوف كالدباغ وتلميذه أحمد بن مبارك والشعراني وعلى حرازم وغير هؤلاء ممن لم يلتزم بالعقيدة الإسلامية الصحيحة ثم دخلوا على عوام المسلمين عن طريق الكشف الإلهي والوصول إلى الحقيقة وصفاء القلب والولاية وغير ذلك من أنواع الشبكات الصوفيه التي يصطادون بها الناس عن طريق دعوى الكشف والتظاهر بالزهد وإكرام الله لهم بمعرفة ما لم يعرفه غيرهم وفي كل ذلك تساعدهم الشياطين وأكثر هؤلاء الذين يخبرون بالمغيبات عن طريق الكشف إنما يستعينون بالسحر والطلاسم .

## الشطحات الصوفية

لقد وصل الصوفية في شطحاتهم إلى حد لا يقدم عليه إلا من تزندق وألحد وخرج عن الدين، ولقد فاضت كتبهم بذلك وتواتر النقل عنهم وهو أمر لا يدع مجالا للشك في الحاد من يعمل ذلك منهم وفي إعراضه عن الخلق الفاضل والعقل السليم فضلا عن الدين.

ومما يلحظه القارئ لكلامهم أنهم بعد أن أوردوا أنفسهم تلك الموارد الوخيمة أرادوا أن يخرجوا منها فلم يجدوا لهم مخرجا فادعوا أنهم إنما قالوا تلك الكلمات الكفرية في حال سكرهم بالله تعالى وغيبوبة عقولهم عن الإحساس بأى شيء غير الله وما أقبح هذا العذر وأسمجه فهل هم أحب لله من الأنبياء ومن كثير من أتباعهم الذين لا يقاس بهم غيرهم ولم يعثر عن أحد منهم أن تلفظ بما تلفظ به هؤلاء الذين امتلأت نفوسهم زندقة وحقدا على الإسلام والمسلمين.

ومما يدركه طالب العلم أن الشطحات الصوفية كثيرة جدا لا يمكن حصرها إلا بدراسة وافية[1]، غير أننا سنعرض هنا بعض الأمثلة لتكون نموذجا لبقية شطحهم وغلوهم ومقدار جرأتهم على اقتحام الأمور العظيمة في الإلحاد.

ونبدأ ببعض ما ذكر عن أبي يزيد البسطامي: طيفور بن عيسى.

١ - قال أبو يزيد عن الله تعالى: « رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك فقلت زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وأرفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك.

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « شطحات الصوفيهة» الجزء الأول « أبو يزيد البسطامي » حيث نقل أقوالا كثيرة في شطحات الصوفية.

ومعناه أنه يطلب أن يصوره الله على صورته عز وجل تماما فإذا شاهده الناس قالوا شاهدنا الله والرواية عنه هى كما تقدم إلا أني أرى أن هذه العبارة « إن خلقي يحبون أن يروك»ليست هكذا - ولم أرى أحدا بين هذا - ولكن لعل الصواب فيها « أن خلقي يحبون أن يروني » ولهذا بين أبو يزيد كيفية الطريقة التي يمكن أن يرى الخلق فيها ربهم وذلك بأن يرقى البسطامي إلى حد النيابة التامة عن الله تعالى صفة وشكلا تعالى الله .

٢ - وقال مرة « سبحاني سبحاني » .

٣ - ضربت خيمتي بإزاء العرش أو عند العرش .

٤ - اجتاز بمقبرة لليهود فقال معذورون ومر بمقبرة للمسلمين فقال «مغرورون».

٥ - قال يخاطب الله كنت لي مرآة فصرت أنا المرآة .

٦ - لأن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة .

٧ - إلهي إن كان في سابق علمك أنك تعذب أحدا من خلقك بالنار فعظم خلقي فيه - أي في النار - حتى لا يسع معي غيرى .

٨ - ما النار ؟ لأستندن إليها غداً وأقول إجعلني لأهلها فداء أولأبلعنها .ما الجنة ؟ لعبة صبيان .

تلك بعض شطحات البسطامي وهناك الكثير يوردها علماء الصوفية عنه بين مستحسن لها وبين مراوغ في معانيها [1].

أما الشبلي فهو الآخر له من الشطحات مانذكر بعضه فيما يلي :

١ - أخذ من يد إنسان كسرة خبز فأكلها ثم قال : « إن نفسي هذه تطلب مني كسرة خبز ولو التفت سرى إلى العرش والكرسي لاحترق » .

---

(١) انظر لتلك الشطحات وغيرها كتاب شطحات الصوفية ص ٣٢/٢٨نقلا عن اللمع،السراج ص ٣٩٤/٣٨٠وعن ماسنيون في مجموع نصوص ابتداء من ص٢٧/ وحلية الأولياء جـ١ص٤١ .

٢ - وقال لو خطر ببالي إن الجحيم نيرانها وسعيرها تحرق مني شعرة لكنت مشركا .

٣ - أيش أعمل بلظى وسقر؟ عندى أن لظي وسقر فيها تسكن - يعني في القطيعة والإعراض - لأن من عذبه الله بالقطيعة فهو أشد عذابا ممن عذبه بلظى وسقر.

٤ - وسمع قارئا يقرأ هذه الآية ﴿ **اخسأوا فيها ولا تكلمون** ﴾ فقال الشبلى ليتني كنت واحداً منهم .

٥ - وقال إن لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفأوها . فصعب ذلك على جماعة ممن كان يسمع ذلك .

٦ - قيل له لم تقول « الله » ولا تقول لا إله إلا الله ؟ فقال أستحى أن أوجه إثباتا بعد نفي..أخشى أن أؤخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار[1].

وقال أبو الحسن النورى وقد سمع المؤذن طعنه وشم الموت وسمع نباح كلب فقال لبيك وسعديك .

وسمع أبو حمزة الصوفي شاة مرغيا فقال : « لبيك يا سيدى » .

وقيل للتلمساني وقد أشاروا له إلى كلب أجرب ميت هو ذات الله أيضا ؟ فقال : «وهل ثم شيء خارج عنها » [2].

وهذه العبارات إنما هى أمثلة قليلة وهناك آلاف الشطحات في حال سكرهم بالله كما يزعمون والحقيقة أنها صادرة عن أناس يدعون الحلول والاتحاد وهم في كامل وعيهم وشيطنتهم وعندهم تمام الجرأة على الكذب على الله لجهلهم به عز وجل وهوانهم عليه.

وإذا رجع القارئ إلى كتاب الطبقات الكبرى للشعراني فسيرى العجائب

(١) انظر المصادر السابقة .

(٢) إلى التصوف ياعباد الله ص ٣٥ .

والغرائب مما ينقله الشعراني عن أسياده الذين ترجم لهم مبتدئا بقوله: « قال سيدى . . - رضى الله عنه - ثم ملاء كتابه بأخبار هؤلاء في شطحاتهم وفي تصرفاتهم بما يستحي الإنسان أن يقرأه أو ينظر فيه ، شطحات تصل إلى عمق الكفر ، وتصرفات من أولئك الأقطاب تصرخ بالعار والفجور » وقد ترجم لعدد كثر فارجع إليه إن أحببت أن ترى مهازل الصوفية وسقطاتهم التي لا تقال .

وقد ترجم الشعراني لعدد كثير منهم وزعم أنهم كلهم أقطاب التصوف ولكن ينبغي الانتباه إلى أنه حشر خيرة الصحابة رضوان الله عليهم بل جعل الخليفة الأول للمسلمين أبا بكر رضي الله عنه هو أول هؤلاء الأقطاب ثم عمر إلى أن ذكر أيضا كثيرا من خيار التابعين وعلماء الأمة الذين لا صلة لهم بخرافات الصوفيه وخزعبلاتها بل إن حشره لهؤلاء مع الحلاج والبسطامي والشاذلي والمرسي وغيرهم من عتاة التصوف يعتبر إهانة لهم .

وقد سار على نفس المنهج كثير من مؤلفي الصوفية كما فعل نفس المسلك الذى سلكه الشعراني المنوفي في جمهرة الأولياء وقبلهم القشيري وكل من جاء بعد هؤلاء سلك نفس ذلك المسلك الخاطيء .

## التكاليف في نظر الصوفية

يعتقد غلاة الصوفية أن الصلاة والصوم والحج والزكاة هي عبادات العوام. وأما هم فيسمون أنفسهم الخاصة أو خاصة الخاصة ولذلك فإن لهم عبادات خاصة ومناهج وطرائق خاصة ومفاهيم تختلف تماما عن مفاهيم العامة خصوصا بعد وصول أحدهم درجة اليقين - كما يزعمون - وقد شرع كل قوم منهم شرائع خاصة بهم . في الذكر والخلوة والأطعمة والملابس المخصوصة والحلقات الخاصة وقد يتفقون في بعضها وقد يختلفون إلا أن كل صاحب طريقة يجعل على أتباعه أغلالا وحواجز شديده بحيث لا يستطيع أحدهم أن يغير طريقته بطريقة أخرى وحتى مجرد الذكر إلا بإذن الشيخ وكل ذلك إنما يفعلونه كما يزعمون من أجل ربط القلب بالله للتلقي عنه مباشرة ولاستمداد العلوم والمعارف عن الله رأسا على يد شيخ خوله الله ومنحه القدرة على ذلك .

وأما بالنسبه للتحريم والتحليل فأهل وحدة الوجود منهم لاشيء يحرم عندهم لأن الكل عين واحدة وفعل الخير وفعل الشر والقبيح والحسن إنما هي أفعال لا فروق بينها لاحتواء الذات لها كلها ولذلك فقد حصل من بعض كبارهم وأئمتهم ما يستقبح الشخص مجرد ذكره إذ كان منهم الزناة واللوطية والملاحدة ثم لا يحق لأي شخص أن يعترض لأن الشيخ لا يفعل شيئًا إلا لحكمة ، وأيضا لا يفعل هذه الأمور التي يعتبرها الناس فواحش بجسمه وروحه بل بجسمه فقط وأما روحه فهي أجل من أن تتدنى إلى فعل هذه الأمور الجسمية وقد وجدوا من الناس الذين هم أضل من البهائم من يصدقهم في كل مايصدر عنهم فصدقوهم في التفرقة بين ما يفعلونه بأجسامهم لحكمة وبين مافي أرواحهم من السمو والتعالي عن ما يفعله سائر الناس ، والعقل من أجل نعم الله على الإنسان .

ثم اخترعوا مفهوما ضالا وهو أنه قد يصل الأمر أحيانا إلى حد أن للولي

شريعته الخاصه وللنبي محمد ﷺ شريعته الخاصة فلا يمنع أن يحصل الخلاف بينهما ويكون الجميع على الصواب فالولى يتلقى شريعته عن الله مباشرة وهى شريعة للخاصة ومحمد ﷺ تلقى شريعته عن الله مباشرة وهى شريعة للعوام ولذلك تجد في حلقات هؤلاء الصوفية الغلاة من الفواحش والخروج عن تعاليم الإسلام مالا يمت إلى الإسلام بصلة لأن هذه الأفعال من الاختلاط والحشيش وأنواع الفساد قد تكون مباحة في شريعة الولي مع حرمتها في شريعة النبي ولكل شريعته وما دام الشيخ الصوفي قد وصل إلى حد التلقي عن الله مباشرة واطلع على كثير من أسرار هذا الكون وعرف الكثير من المغيبات فإنه والحال هذه ليس عنده طمع في جنة ولا خوف من النار ومن هنا تنشأ الاستهانة التامة بجميع التكاليف الشرعية . وقد تبجح الكثير منهم بأنه لا يعبد الله طمعا في الجنة ولا خوفا من النار لأن هذه العبادة معاوضة والصوفي قد اتحد بالله وفني فيه لأجله لا لغرض آخر والخوف من النار أيضا طبع العبيد لا طبع الأحرار كما تبجح البسطامي بقوله السابق :

« ما النار ؟ لأستندن إليها غدا وأقول اجعلني لأهلها فداء أو لأبلعنها ما الجنة؟ لعبة صبيان « وقول الشبلي إن لله ،عباداً لو بزقوا على جهنم لأطفأوها »فهم يزعمون أنهم يعبدون الله حبا فى الله لا كما يعبده الخائفون من النار الطامعون في الجنة فإن عبادتهم إنما هى على سبيل العوض لاحبا في الله - وعلى هذا فإن من سبقهم من صالحي المؤمنين والأولياء من الصحابة وغيرهم بل والأنبياء كانت همتهم قاصرة عن إدراك هذا المعنى الذى اهتدى إليه هؤلاء !! .

ومما يدل على ما تقدم ما نذكره فيما يلى من كلام الصوفية حيث قسم المنوفي الناس بالنسبة لمراتبهم وقربهم وبعدهم عن الله تعالى ثلاثة أقسام تحت عنوان « حقيقة الطريق » فقال :

« إن في هذا الطريق وهو السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى عند قطع

المنازل والترقي في المقامات ينقسم الناس بحسب اختلاف أحوالهم إلى ثلاثة أقسام لكل قسم منها طريقة :

١ - فالقسم الأول ذوو الأمزجة الكثيفة والأفهام الضعيفة الذين يعسر عليهم محاولة التعلم من طريق التعليم فطريقهم يستقيم بالعبادة والتنسك والزهادة والصلاة والصوم وتلاوة القرآن والحج والجهاد وغيرها من الأعمال الظاهرة لأن هذه الطائفة لصلابة أبدانها وقوة أركانها تتحمل مشاق العبادة ... والسالكون بهذا الطريق لا يزالون على هذه المناهج حتى يرقوا لأرفع المعارج ويقربون من مواطن تنزلات المعارف - وإذا وصلوا إلى هذا الحد - » فحينئذ يكشف لهم عن سبحات المحبوب ويرون عجائب الغيوب ويتلقون عرائس الأسرار وهذه الطرق صعبة جدا والواصل بها على خطر عظيم .

٢ - أما الثانية وهي طريقة أهل الخصوص وهم من ذوى الأفهام اللوذعية و الأخلاق الرحبة والهياكل النورانية والنفوس الأبية أولئك الذين قد لا يملكون نفوسهم في حال النزوات فطريقهم المجاهدات .. والسالكون بها لايزالون يرتاضون في قلع ماانطبع في نفوسهم من الأخلاق الذميمة إلى أن تذهب تلك الطباع المكتسبة وترجع إلى فطرتها السليمة .

٣ - والقسم الثالث هم ذوو النفوس الرضية والعقول الزكية والفطرة الصديقية التي أبدان أصحابها في نهاية الاعتدال واللطافة وطريقهم طريق المطلوبين إلى الله والطائرين إليه وهي طريق المحبوبين المخطوبين من رب العالمين وملاك السير بها صفاء القلب وصدق الحب والتحقق ظاهرا وباطنا جهرا وسرا بشعائر التصديق فيخرج عن حوله وقوته وعقله وفطنته إلى حول الله وقوته»[1].

وقال أيضا :

« وبما أن التصوف هو زبدة الديانات ولبها وليس مجرد تقاليد وطقوس

(١) انظر جمهرة الأولياء جـ ١ ص ١٥٧ / ١٥٨ .

وقواعد ظاهرية كان لكل ديانة تصوفها » [1].

وهذا الكلام فيه التصريح بأن التصوف لم يكن نبعه الإسلام فقط وإنما هو زبدة الديانات أى أنه ملفق من ديانات شتى وفيه أيضا التصريح بأنه ليس مجرد تقاليد وطقوس وقواعد ظاهرية .

والإسلام كماهو معلوم فيه بيان شامل لكل مايحتاجه المسلم وهو نظام كامل ولا يجوز تسميته مجرد تقاليد وطقوس علي أن القواعد الظاهرية نسبة إلى الظاهر يقصد بها المنوفي قواعد الشريعة الذين يسميهم الصوفيون أهل الظاهر.

وقد فرق أيضا بين الزاهد والصوفي :

بأن الزاهد هو الذي ينصرف عن الملاذ الدنيوية وينكر على نفسه جميع شهواته وإن أحلها الشرع ويتحمل مرارة الجوع والعطش بصفة مستمرة وصوم دائب .. لا يفعل كل ذلك إلا طمعا في ربح الآخرة والمكافأة بجنات النعيم .

وأما الصوفي فلا يرجو من ذلك شيئا وإنما همه الوقت الحاضر وهدفه أن زهد وأن عبد معرفة الله والاتصال برضوانه » [2].

ومعنى هذا أن الجنه والنار لا قيمة لها في نظر الصوفي .

وقال أبو سليمان الدراني في درجة الأبدال ومنزلتهم في العمل :

« لم يبلغ الأبدال ما بلغوا بصوم ولا صلاة ولكن بالسخاء والشجاعة وذمهم أنفسهم عند أنفسهم » [3]، وهذا الكلام فيه الاستهانة بشرائع الإسلام حيث فضل السخاء والشجاعة وذم النفس على الصوم والصلاة .

وقال أيضا: «إن الله يفتح للعارف وهو على فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلى»[4]، وهذه دعوى صريحة إلى التكاسل في الطاعات وتعريض بفضل الصلاة.

---

(١) ص ١٥٥ .
(٢) ص ١٥٦ .
(٣) جمهوة الأولياء جـ ٢ ص ١٧٥ .
(٤) الرسالة االقشيرية ص ٦٠٦ جـ ٢ .

وتتضح منزلة التكاليف عند بعض أولياء الصوفية عند الشعراني في تراجمه لكثير من أعلامهم بما لا يدع مجالا للشك في إلحاد وزندقة هؤلاء الذين يسميهم أولياء ويترضى عنهم أيضا .

وكمثال على ذلك ما أورده في ترجمته للشريف المجذوب حيث قال :

« وكان أصله جمالا عند بعض الأمراء ثم حصل له الجذب ... وكان له كشف ومشاقلات للناس الذين ينكرون عليه وكان رضي الله عنه يأكل في نهار رمضان ويقول أنا معتوق أعتقني ربي وكان كل من أنكر عليه يعطبه في الحال وكان رضي الله عنه يتظاهر ببلع الحشيش فوجدوها حلاوة وكان قد أعطاه الله تعالى التمييز بين الأشقياء والسعداء في هذه الدار » [1].

ومن أولئك الأولياء أيضا بركات الخياط قال عنه الشعراني :

« ومنهم سيدى بركات الخياط رضي الله عنه كان رضي الله عنه من الملامتية ... وأخبرني الشيخ عبد الواحد رضي الله عنه أحد جماعة سيدى أبي السعود الجارحي رضي الله عنه قال مدحته للشيخ جمال الدين الصائغ مفتي الجامع الأزهر وجماعة فقالوا أمضوا بنا نزوره وكان يوم جمعة فسلم المؤذن على المنارة فقالوا له نصلي الجمعة فقال مالي عادة بذلك فأنكروا عليه فقال نصلى اليوم لأجلكم فخرج إلى جامع المارداني فوجد في الطريق مسقاة كلاب فتطهر منها ثم وقع في مشخة حمير ففارقوه وصاروا يوبخون الشيخ الذى جاء بهم إلى هذا الرجل وصار الشيخ بركات يوبخ عبد الواحد ويقول أيش هؤلاء الحجارة الذين أتيت بهم لايعود لك بالعادة أبدا ... وله وقائع مشهورة رضي الله عنه» [2].

وأمثلة أخرى كثيرة يوردها الشعراني تدل على مدى استهتار هؤلاء الأولياء

---

(١) الطبقات الكبرى بتقديم بعض العبارات انظر جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٢) الطبقات الكبري جـ ٢ ص ١٤٤ .

ـ حسب زعمه ـ بالأخلاق والدين والتكاليف فقد ذكر عن علي وحيش ما يخجل القلم من كتابته وتتلعثم اللسان من النطق به [1].

من الأعمال الفاحشة والزنا وفعله بالبهائم وصاحبها قائم أمامه وإن لم يرض تسمر في مكانه كما يذكر الشعراني ويبدو أن للكشف الصوفي علاقة قوية بترك التكاليف على حد ما أورده عنهم الشيخ سعيد حوى في قوله :

« يربط بعض الصوفية بين الكشف وترك التكاليف فيرون أن الإنسان متى كشف له شيء من أمر الغيب وما أكثر ما يتوهون في هذا الشأن سقط عنه التكليف فلا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [2].

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤٩ .

(٢) تربيتنا الروحية ص ٢٠٠ .

## الأذكار الصوفية

أما الأذكار الصوفية فحدث ولاحرج عن خرافاتهم فيها وقد قدمنا من الأمثلة ما يوضح حال هؤلاء ومدى ما وصلوا إليه من الجهل بربهم والبعد عن هدى خير الأنام هذا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا لقد اخترعوا أذكاراً وشرعوا أورادا ما أنزل الله بها من سلطان بل اشتملت على الكفر والزندقة في كثير منها والكذب على الله وعلى رسوله ﷺ كما اشتملت على كلمات سريانية غير معروفة المعنى وعلى رموز وحروف مقطعة لا يعرف المراد منها وكل صاحب طريقة له أذكار هى أفضل من كل ذكر وأجرها أعظم من كل أجر وماعداه باطل حسب تخرصاتهم في كل ذلك ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء**﴾ فهم متفرقون قد لايجمعهم إلا الاتفاق على الرقص وادعاء الوصول إلى الله ومكالمته ورفع الغير والغيرية بينة وبينهم .

مع أن كل صاحب طريقة يدعي أنه يأخذ تلك الأذكار مباشرة عن الله عز وجل أو عن نبيه ﷺ وأحيانا يقظة لا مناما كما يزعمون وفضلوها تفضيلاعاليا ليرفعوا شأنها في نفوس أتباعهم ومريديهم على القرآن والسنة والأدعية المأثورة ويطول البحث لو أردنا ذكر نماذج من تلك الطرق المختلفة والأذكار المتباينة فيما بينها فمنها الأذكار التيجانية التي سبق ذكرها ومنها أذكار البسطامي والرفاعي والجيلاني والشبلي وأبو العباس المرسي وآخرون كثيرون ومنها أذكار الطريقة الشاذلية التي زعم أصحابها أن الرسول محمد ﷺ والخضر هما اللذان علما الشيخ أحمد الإدريسي حيث ذكر تلميذه صالح محمد الجعفري ذلك في كتابه مفاتيح كنوز السموات والأرض المخزونة التي أعطاها الرسول ﷺ لشيخ الطريقة الإدريسية المصونة[1]،

---

(١) انظر الفكر الصوفي ص ٢٨٤ .

وهي أذكار في غاية الركاكة والكذب على الله ورسوله وعلى رسولَه والاعتداء في الدعـاء على حق الله ورسـوله ولم يكتف هؤلاء بـادعـائهم أنهم يأخـذون أذكارهم عـن الله ورسوله فقـط بل هناك كما يـذكرون بعض الأولياء الـذين قد ماتوا هـم أيضا يلتـقون ببـعض المشائخ الأحـياء ويعلمـونهم أدعيـة وأورادا لاحد لأجر من يقولها. ولو كان الذكر كلامـا لامعنى له في أي لغة من اللغات المعروفة من مثل ما ذكروه عن الدسوقي أنه علمهم هذا الدعاء : « بسم الله الخالق يلجمه بلجام قدرته أحـمي حميثا أطمي طميثا وكان الله قويا عزيزا حم عـسق حمايتنا كهيعص كفايتنا»[1]، إلخ الذكـر الذى يدل على مـدى ضحـالة مـعرفـتـهم بالله ورسوله وعدم التفـاتهم إلى ما شرع الله ورسوله ﷺ من الدعاء الواضح المثـمر في قلب العبد إذا دعا ربه بإخلاص وتوجه .

وقد ذكروا من الأجـر لقائل أذكارهم الجـوفاء مالا يحد ولا يعـد ولا يتصور في الذهن وقد يبـد وعلى تلك الأدعيـة حرارة الإيمان وصدق الالتـجاء إلى الله تعـالى ولكنه في الحقـيـقة ليس مـوجه إلى الله فـقط بل إلى أوليـائهم الأحيـاء أو الأموات أيضا ومـدار أذكارهم على الاثبات كمـا يزعمون فهم يقـتصرون على لفظة « الله » بدلا عـن لا إله إلا الله ويعللون لهـذا المسلك بمالا مـقنع فـيـه حـتى للجهال العامة فضلا عن أهل العلم حيث يقولون إن اقتصارهم على لفظة « الله» وتكرارها خوفـا أن يموت الشخص عند ذكر الـنفي في قوله « لا إله » ولا ندرى كيف يقـرؤنها في القـرآن فاعلم أنه لا إله إلا الله ومـاذا يفعل المؤذن ومـاذا يفعل الداخل في الإسـلام عندما ينطق بالشـهادتين وأمـور أخرى لا يستطيـع العقل أن يتصور مدى التخبط الذى حلّ بهؤلاء .

ومن غـريب أمـر بعض الصـوفـيـة في أذكـارهم أنهـم رتبـوها على طريقـة شيطانيـة من وحي شيـاطنهم حيث جعلوا لكل اسم مـن أسماء الله تعـالى ذكرا

(١) المصدر السابق ص ٢٩٠ نقلا عن الابريز للدباغ .

خاصا به ولطبقة خاصة به فمن ذلك زعمهم أن اسم الله العفو يليق بأذكار العوام لأنه يصلحهم وليس من شأن السالكين إلى الله ذكره .

وأما اسمه تعالى الباعث فإنه يذكره أهل الغفله ولايذكره أهل طلب الفناء وأما اسمه الغافر يلقن لعوام التلاميذ وهم الخائفون من عقوبة الذنب وأما من يصلح للحضرة الإلهية فذكره مغفرة الذنب عندهم يورث الوحشة وأما اسمه تعالى المتين فإن ذكره يضر أرباب الخلوة وينفع أهل الاستهزاء بالدين .

وهكذا استمر السكندرى في وصف أسماء الله وخواصها وكأنما هو طبيب يصف العلاج ومنافعه وقد تقدم ذكر الطريقه التيجانية ونضيف هنا ما استخلصه الشيخ عبد الرحمن الوكيل في بيانه لكيفيات الذكر الصوفي ومراحله فنوجز ذلك فيما يلي :

( بتصرف )

١ - إذا جاء وقت المولد - الأعياد الوثنية - يجتمع الرجال والنساء أو الدراويش والدرويشات كما يحبون تسميتهم بذلك .

٢ - بعد أن يتخموا بطونهم بأنواع المأكولات التي تقدم في هذه المناسبة .

٣ - يقوم الشيخ الكبير ويصفق بيديه اللامعتين من «دسم الحرام إيذاناً ببدأ الذكر » .

٤ - يخرج من شفتيه ومنخريه اسم الله ملحدا في حروفه وفي النطق به .

٥ - يقوم المتغزلون بانشاد قصائد غزلية تلهب المشاعر ويصاحبهم المطبلون وأصحاب الآلات المطربة .

٦ - ثم يهب الشيخ ويهب معه المريدون يتمايلون يمنة ويسرة في حركات مثيرة صاخبة كل ينوح على ليلاه والأهات والزفرات والقبل [illegible]
هى الشعار العام لهم وكل واحد من الحاضرين يبذل أقصى جهده في إظهار أقوى الحركات والحماس ليلفت الأنظار إليه .

---

٧ ـ على الحاضرين أن يستحضر كل واحد منهم صورة شيخه أمامه إن لم يكن موجود أو يستمد منه العون في بدء قيامه بهذا الذكر قائلا مددك يا أستاذى ثم يستأذن أصحاب الطريق والقدم فيقول دستور يا أصحاب الطريق والقدم .

٨ ـ ينبغي على كل واحد أن يلتزم بطريقة الذكر وهى كما يلي :

١ ـ أن يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه .

٢ ـ أن يبدأ بـ « لا » يمينا ويرجع بـ « إله » فيتوسط ثم يختم « إلا الله » يسارا قبلة القلب .

٣ ـ إذا ذكر اسما مفردا مثل الله أو هو « أوحى » لابد أن يضرب بذقنه على صدره .

٤ ـ في كل ذلك يجب أن ينتع الكلمة من سرته إلى قلبه ثم يستمر هكذا في هذه الصور البهلوانية التي هى أقرب إلى الجنون والعربدة منها إلى أقل التفات إلى الله تعالى أو ثوابه وعقابه .

٧ ـ يجب ملاحظة أن المريد لا يدعو بأى اسم لله إلا إذا سمح له به الشيخ وإلا حصل عليه ضرر شديد .

٨ ـ ثبت أن تلك الطريقة الصوفية في الدعاء أخذت بتمامها عن اليهود وحيث جاء ذلك في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة في العهد القديم وهو :

« ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص ، بدف وعود ليرنموا ، هللوا يا ، سبحو الله في قدسه ، سبحوه برباب وعود سبحوه بدف ورقص ، سبحوه بأوتار ومزمار ، سبحوه بصنوع الهتاف » [1].

ولقد ذكر ابن عطاء الله السكندرى أدعية عن مشائخه وأسياده في الطريقة

---

(١) انظر ماكتبه الشيخ عبد الرحمن الوكيل عفا الله عنه ص ١٤١ / ١٤٥ .
وانظر العهد القديم المزامير ص ٦٤١ .

طويلة مملة ممجوجة مملوءة بالتنطع والتعدى في الدعاء والإشعار بكبريائهم وعتوهم وطلبهم الحلول والاتحاد به منه دعاء الشيخ أبو الحسن الشاذلى وفيه :

« يا عزيز يارحيم ... وأسقط البين بيني وبينك حتى لا يكون شيء أقرب إلى منك ... اللهم هب لي من النور الذى رأى به رسولك ﷺ ما كان ويكون، اللهم ارزقني من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة واضربنى بها ضربا تمحق بها من قلبى كل قوة .

باسم المهيمن العزيز القادر أجل كل شيء وهو ناصرى ق . ج ن ص انصرني »[1].

ونفس الدعاء السابق أيضا كان يدعو به القطب الكبير أبو العباس أحمد المرسى بل وزاد عليه أشياء أخرى ومنه :

« اللهم اهدني لنورك ... وهب لى علما يوافق علمك ... وارفع الحجاب فيما بيني وبينك وأسقط البين عنى حتى لا يكون شيء بينى وبينك واكشف لي عن حقيقة الأمر ..» إلى أن قال : « كيف يكون ذنبى عظيما مع عظمتك أم كيف تجيب من لم يسألك وتترك من سألك ؟

إلهي جذبك لي أطمعني فيك ... قاف جيم سران مع سرك هب لي من نورك ما أتحقق به حقائق ذاتك» [2] إلخ .

ثم أورد السكندرى دعاء حزب شيخه الشاذلي وفيه :

« لا إله إلا الله نور عرش الله ، لا إله إلا الله نور لوح الله . لا إله إلا الله نور قلم الله، لا إله إلا الله نور رسول الله » ثم كرر الدعاء على هذه الصفة إلى أن قال :

« وتا الله لئن لم ترعني بعينك وتحفظني بقدرتك لا هلكن نفسي ولأهلكن

(١) لطائف المنن ص ٣٤٢ .

(٢) لطائف المنن ص ٣٤٣ / ٣٥٤ .

أمة من خلقلك .. يا من به ومنه وإليه يعود كل شيء أسألك بحرمة الأستاذ بل بحرمة النبي الهادى بل بحرمة السبعين والثمانية .. اللهم صلنى باسمك العظيم الذى لا يضر معه شيء فى الأرض ولا في السماء وهب لي منه سرا لا تضر معه الذنوب شيئا .. واجعلنى بخزانة الأربعين »[1]. إلى آخر ما ورد من أذكار لا تسمن ولاتغني من جوع بل هي سراب يحسبه الظمآن ماءً ومنهم من يدعو بهذا الدعاء بدلا عن سبحان الله وبحمده لا إله إلا الله بدلا عن ذلك يدعو بهذا الدعاء الذى تقشعر منه الجلود وتشمئز منه النفوس وهو من أدعية الطريقة الشاذلية .

« سقفاطيس ، سقاطيم آمون قاف آدم حم هأآمين كد كد كردد ده بها بهيا بهيا بهيهات لمقفنجل يا أرض خذيهم »[2]، نعم يا أرض خذيهم إنها مأساة حقيقية حين توجد تلك الأذكار الجوفاء ثم يتبعها الوجد والرقص والطبول والزغاريد كما نبينه فيما يلي:

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٥ / ٣٦٥ .

(٢) انظر الفكر الصوفي ص ٢٩٢ ، نقلا عن أبي الحسن الشاذلي لعبد الحليم محمود ص ٢١٠ .

## الوجد والرقص عند الصوفية

لقد كان للغرام العارم والرقص والتمايل عند الصوفية مكانة ثابتة بل هذا النوع صار من أقوى الشبكات التي يصطادون بها من قلت معرفته بالدين الإسلامي الحنيف وحقا إنه نوع من الخلل في السلوك والاضطراب الذهني حين يعبدون الله بالرقص والحركات التي لاتمت إلى عبادة الله بأية صلة إلا كما تمت إليها عبادة اليهود من قبل حين حثتهم التوراة - المحرفة - العهد القديم - المزامير على وجوب التسبيح لله بالدف والمزمار والعود والربابة .

وعند الصوفية في أوقاتهم الخاصة مجالس يجتمعون فيها على الرقص والغناء والتصفيق والصياح بأصوات منكرة يمزقون فيها ثيابهم ويتمايلون حين يأخذ منهم الطرب مأخذه في حركات بهلوانية لا يفهم منها أى إشارة إلى الخوف من النار أو الرغبة في الجنة. وقد أصبح الرقص الصوفي الحديث عند معظم الطرق الصوفية في مناسبات الإحتفال بمولد بعض كبارهم أو في أية مناسبة من مناسباتهم الكثيرة يحضر عازفون وموسيقيون ويختلط بعضهم ببعض رجالا ونساءاً كباراً وصغاراً ويجلس في هذه المناسبة كبار الأتباع يتناولون ألوانا من شرب الدخان وكبار أئمتهم يقرأون عليهم بعض الخرافات المنسوبة لمقبوريهم[1].

والغناء الذى يترنمون به يشتعل حبا وعشقا وغراما وقصائد وجد وحزن فإذا سئلوا عن ذلك زعموا أنها من الطرق التي توصلهم إلى ربهم أو هو الحب الإلهي كما يسمونه لترغيب الناس فيه .

وهذه الصور البهلوانية الرعناء هى صورة الذكر . فهل كان الرسول ﷺ أو أحد من الصحابة يفعلون مثل هذا التنطع المذموم وهل مثل تلك الحركات

(١) انظر الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢٣٠ .

تشير إلى الخشوع لله تعالى والسكينة في العبادة من قريب أو من بعيد وهل ذلك الاختلاط والتمايل يمكن أن يكون بعيدا عن الشيطان إنها مهازل وسخرية بدينهم . ومع ذلك فهم يتلمسون لهم الأدلة التي يجادلون بها مهما كان سقوطها .

**أدلتهم على جواز ذلك والرد عليها :**

وهكذا لم يكتف هؤلاء بتلك المسالك التي غلوا فيها إلى أن أخرجوا بعض عباداتهم في صور غنائيه ورقص بل حاولوا كذلك أن يوجود والتلك الأفعال أدلة لمشروعيتها ومن ذلك :

- زعمهم أن سلمان رضي الله عنه حين نزل قوله تعالى : ﴿ **وإن جهنم لموعدهم أجمعين** ﴾ صاح سلمان الفارسي صيحة ووقع على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة أيام .
- ومن ذلك أيضا احتجاهم بقول الله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿ **اركض برجلك** ﴾.
- ومنها قول الرسول ﷺ لعلي: « أنت مني وأنا منك فحجل وقال لجعفر اشبهت خلقي وخلقي فحجل . وقال : لزيد أنت أخونا ومولانا فحجل » .
- ومنها احتجاجهم لسماع الرسول ﷺ جاريتين تغنيان بحضرة النبي ﷺ وهو مسجى بثوبه فجاء أبو بكر فأنتهرهما فنهاه الرسول ﷺ وقال دعهما فإنها أيام عيد» .
- ومنها أن الحبشة زفنت والنبي ﷺ ينظر إليهم .
- واحتج أبو عبد الرحمن السلمي على جواز الرقص بما روي عن الشافعي أن سعيد بن المسيب مر في بعض أزقة مكة فسمع الأخضر الحداء يتغنى في دار العاص بن وائل بهذين البيتين .

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت      به زينب في نسوة عطرات

فلما رأت ركب النميرى أعرضت وهن من أن يلقينه حذرات

قال فضرب برجله الأرض زمانا وقال هذا مما يلذ سماعه .

- ومنها أن عمر رضي الله عنه كان ربما مر بآية في ورده فتخنقة العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضا » .

- ومنها أن الرسول ﷺ قال في حق أبى موسى: « **لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود** » .

- ومنها استحسان الرسول شعر النابغة حتى قال له لا يفضض الله فاك ووضعه أيضا المنبر لحسان يقول عليه الشعر في هجاء المخالفين للرسول ﷺ .

- ومنها أن بعض الصالحين رأي الخضر وسأله عن السماع الصوفي فقال له ذلك هو الصفاء الزلال .

- ورأى أحدهم الرسول ﷺ في المنام فسأله عن سماع الصوفيه فقال له الرسول: ما أنكره ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختتمون بعده بالقرآن .

- ومنها أن الخضر تواجد حتى سقط على جبهته وصار الدم يقطر منها ولا يقع على الأرض حين سمع أبياتا من الشعر قالها شخص بحضرته ذكرها السهروردي .

- ومن أدلتهم أن بعض الصالحين رأى النبي ﷺ وأبا بكر يقول له كلاما والنبي ﷺ قد وضع يده على صدره كالمتواجد بذلك .

ثم أورد السهروردى أدلة كثيرة عن بعض الصوفيين في حال تواجدهم بعضهم مشى على الماء وبعضهم لم يحترق بالنار وبعضهم يرتفع أذرعا عن الأرض إلى أن ختم السهروردى أدلته وهى كثيرة بزعمه : بهذه القصة :

وهي أن أعرابيا أنشد رسول الله ﷺ :

قد لسعت حية الهوى كبدى فلا طبيب لها ولا راقى

إلا الحبيب الذي شغفت بـه          فعنده رقيتي وترياقي

فتواجد رسول الله ( ﷺ ) وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ثم قسم رداءه بينهم حيث مزقه إلى أربعمائة قطعة [1].

تلك أهم الحجج التي يتمسك بها الصوفيون في مشروعية لهوهم وتواجدهم فما مدى صحة إستدلاهم وهل ماذكروه من تلك الروايات كلها صحيحة أو هل كان فهمهم لها فهما صحيحا .

والجواب عن هذه الاحتجاجات : يحتاج إلى دراسة ووقت ولكن أكتفي هنا بإيجاز الرد عليهم في دفع حججهم وأدلتهم بأنها أحتجاجات واهيه وتلفيق غير مقبول ومزاعم لاصحة لها :

ـ فأما ما رووه عن سلمان فإنه كذب ومحال كذلك . فقد رويت هذه القصة بلا سند . ثم إن الآية نزلت بمكة بالاتفاق كما قال القرطبي وسلمان إنما أسلم بالمدينة كما هو معلوم . ثم إن الرسول ﷺ كان ينهي أشد النهي عن مثل هذه الأمور المنافيه للوقار والخشوع فإنه كان ﷺ يبغض الصياح أو إظهار التخشع عند سماع القرآن أو المواعظ إلا في الحدود المشروعة ومن ذلك مارواه أنس قال :« وعظ رسول الله ﷺ يوما فإذا برجل قد صعق فقال النبي ﷺ: **«من ذا الملبس علينا ديننا إن كان صادقا فقد شهر نفسه وان كان كاذبا فمحقه الله»**[2].

وقد عرف عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يخشعون تمام الخشوع . فتذرف عيونهم وتخاف قلوبهم ولم يصعق أحد منهم وهم أعرف

---

(١) انظر عوارف المعارف ص ١٢٤ ـ ١٤٧ وانظر كتاب حزب الرحيم جـ ١ ص ١٧٩ (هامش جواهر المعاني ) .وانظر الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢٣٠ .

وانظر الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٢٤٦ إلى ص ٢٥٣ .

(٢) تلبيس إبليس . ص ٢٥٢ .

بالله من غيرهم وأتقى له وأكثر انقيادا وقبولا للحق وأشد تمسكا به ولو كان ذلك الوجد والهيام والصعق خيراً لما سبقهم أحد إليه .

- وأما احتجاجهم بقول الله تعالى لأيوب ﴿ **اركض برجلك** ﴾ فهذا احتجاج يدل على جهل صاحبه بحقيقة حال أيوب المبتلى بما لا يصبر عليه أحد إلا من أعانه الله وقوى يقينه فإنه يقال لهذا المحتج إن الله لم يأمر أيوبا بضرب رجله فرحا وطربا وإنما أمر بضرب رجله من باب فعل الأسباب إكراما من الله تعالى له ثم أنه لم يركض برجله أبتداء وإنما تنفيذاً للأمر وكذلك لإشعاره بتغير الحال ولحكم أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى ليس منها جواز الرقص ولم يك حاله يستدعي أن يضرب برجله الأرض تواجدا وطربا إلا عند الجفاة

وأما احتجاجتهم بحجل علي وجعفر وزيد فإن الحجل هو نوع من المشي يفعل عند الفرح وارتياح النفس أحيانا ليعبر الشخص به عن فرحه دون قصد الرقص والتمايل والصحابة « هؤلاء لم يكن منهم رقص ولا تمايل ولا إنشاد قصائد الغزل المهيجة فليس فيه دلالة على ما يريد المتصوفة وما فعله هؤلاء الصحابة إنما كانت حالة عارضة لاقصد لهم فيها لإظهار الطرب والتواجد .

- وأما احتجاجهم بزفن الحبشة فإن الزفن أيضا نوع من المشي مع الرقص ويشير كذلك إلى الاعتداد بالنفس .

وأكثر ما يفعل عند اللقاء في الحرب إظهاراً للشجاعة وعدم المبالاة بالعدو وليس المقصود منه الرقص والطرب كما يرى الصوفية .

وأما ما ذكروه عن سعيد بن المسيب - رحمه الله - فإنه مكذوب عليه وليس هذا شعره وهو أوقر من أن يصل إلى هذا الحد .

وهذه الأبيات فيما يذكره الأدباء قالها محمد بن عبد الله بن نمير الشاعر الثقفي يتغزل فيها بزينب بنت يوسف الثقفي أخت الحجاج . وقد هرب بعد ذلك إلى عبد الملك خوفا من الحجاج فسأله عبد الملك بن مروان عن الركب

ماذا كان؟فقال له كانت أحمرة عجافا حملت عليها قطرانا من الطائف فضحك عبد الملك وأمر الحجاج أن لا يؤذيه .

ثم لو قدرنا أن ابن المسيب ضرب برجله الأرض فليس في ذلك حجة على جواز الرقص ولا أنه ضرب بها وهو يريد الرقص فإن الإنسان قد يضرب برجله الأرض أو يدقها لشيء يسمعه ولا يسمى ذلك رقصا منه بل إن الإنسان قد يضرب برجله الأرض إما فرحا وإما غضبا وغيظا [1].

وأما احتجاجهم بسماع الرسول للجاريتين فهو استدلال غريب منهم على جواز الرقص والتمايل والتواجد ذلك أن الرسول ﷺ كان مسجي بثوبه وهم حينما يتواجدون لا يتدثرون بثيابهم بل تعلو همهمتهم ويشتد عراكهم ويمزقون ثيابهم فأين فعلهم من فعل الرسول ﷺ ؟ .

كذلك فإن الجاريتين كانتا تنشدان كلاما ليس فيه غزل أو تشبيب أو خروج عن حد الوقار والأدب .

وكان الحال يستدعي الترويح عن النفس خصوصا وأنه يوم عيد وعائشة رضي الله عنها كانت جارية شابة .

وأما استدلالهم بما ينسبونه إلى عمر رضى الله عنه من أنه كان يلزم البيت اليوم واليومين حينما يسمع بعض الآيات فى ورده .

فإنه لم يعرف أن الصحابة كانت لهم أوارد يرددونها على طريقة الصوفية بل ولم يعرف عنه أنه يمرض اليوم واليومين بسبب ما يسمعه من بعض الآيات لا هو ولا غيره من الصحابة .

وأما استدلالهم بحسن صوت أبي موسى فليس فيه دليل على الوجد الصوفي وإنما هو إخبار من الرسول ﷺ بتلك النعمة التي أعطيها أبو موسى

---

(١) انظر الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢٣١ .

فهل كان الصحابة يرقصون على سماع قراءته أو يصعقون أو يمزقون ثيابهم ؟ كلا .

وكذلك استحسان الرسول ﷺ لبعض الكلام أو الشعر ليس فيه دلالة للصوفية فإن الرسول ﷺ كان يستحسن أشياء ويستقبح أشياء وهذا أمر طبيعي في النفوس .

وأما ما يحشده أقطاب التصوف من الأدلة بالرؤى المنامية أو بمقابلتهم للخضر فإنها أدلة باطلة حتى ولو كان الرائي ثقة فإنه لا يتعبد برؤياه فما بالك وتلك الرؤى الصوفية عن مجهولين إضافة إلى التكلف الظاهر في رواياتهم .

وزعمهم أن الرسول ﷺ كان يطرب ويتواجد ويضرب بيده على صدره ويمزق ثيابه ويعطيها لأصحابه كله كلام يدل على عدم احترامهم للرسول ﷺ وعدم معرفة قدره العظيم . فهل كان يصل به التواجد إلى حد أن يسقط رداءه عن منكبيه من سماع تلك الأبيات الفارغة . قد لسعت حيّة الهوى كبدى ؟.

وما ذكره السهروري من أن بعض أقطاب التصوف يكاد أن يطير أو يرتفع من الأرض أذرعا أو يدخل الشمعة في عينه أويطأ النار ولا يحس بها أو يمشي على الماء أو غير ذلك من الحركات البهلوانية العشوائية التي يفعلها هؤلاء فلا ريب أنها من أقوى الدلائل على تلاعب الشياطين بهم وإخراجهم عن حد الأعتدال الذى أقل ما يوصف به أنه ينافي الخوف من الله تعالى والرغبة في المغفرة .

## الكرامات وخوارق العادات عند الصوفية

للأولياء الحقيقين كرامات لا تنكر وقد كان للصحابة رضي الله عنهم من الكرامات ما هو جدير بهم وكان لغيرهم من الأولياء والعلماء كرامات كثيرة، وهدفنا هنا من ذكر الكرامات وخوارق العادات هو بيان تلك الكرامات والخوارق التي تتم على أيدى أناس ليسوا من أولياء الله وليس لهم صلاح يؤهلهم لذلك . وبيان أن ذلك من مكائد الشيطان وتلبيسه على الناس بأن يظهر لبعضهم أموراً غيبية تبدو كأنها كرمات من الله للشخص فيتخيل أنه بلغ منزلة عالية فاق فيها غيره من الناس وأنه أصبح يماثل الأنبياء في كراماتهم وقربه من الله. وهذه الحال كثيرة الوقوع لمن يدعون أنهم أولياء لله وأكثرهم في الحقيقة أعداء له وموالين لشياطينهم . ومن تلاعب الشياطين بهؤلاء :

أن يسمع أحدهم صوتا من حجر أو شجر أو صنم يأمره وينهاه بأمور في أولها أحيانا الشرك بالله فيظن المغرور أن الله خاطبه أو الملائكة على سبيل الكرامة ومعلوم أن الله لا يأمر بالفحشاء والملائكة لا تأمر بالشرك بالله وإنما أولئك هم الشياطين يلبسون عليهم أمورهم كما كانوا يفعلون ذلك قبل الإسلام أيضا . وقد يظن هؤلاء أن ذلك وحي من الله عليهم كما حصل لكثير من الذين قلت معرفتهم بالله كالمختار بن أبي عبيد الذى أخبر عنه الرسول ﷺ أنه كذاب ثقيف وغيره ممن استهوتهم الشياطين .

ومنها : أن الشياطين قد تتمثل بصورة المستغاث به من الناس فيظن المشرك بالله أن هذه الصورة هى الشيخ الفلاني أو الولي الفلاني أو أن ملكا جاء على صورته . وإنما هو في الحقيقة شيطان تمثل له ليضله ومنها : أن تخاطب الشياطين بعض العباد الجهال ويوهمونه أنه المهدى المنتظر وصاحب الزمان الذى بشّر به الرسول ﷺ ويغرونه بزخرف القول وشتى الوساوس حتى يصدق نفسه فيدعي

المهدية وغير ذلك. بل يبلغ الحال ببعضهم أن يرى الكعبة تطوف به ويرى عرشا عظيما وعليه صورة عظيمة وأنواراً وأشخاصا تصعد وتنزل فيظنها الملائكة بين يدى الله تعالى وأن الله كشف له النظر إليه .

وهذا يتطلب من المؤمن العاقل التنبه لمثل هذه المكائد الشيطانية بلجوئه إلى الله والاهتداء بهديه وسوء الظن بنفسه الأمارة بالسوء وأن ينظر إلى نفسه من باب الذل والاحتقار والحاجة إلى ربه ويزن أعماله بامتثاله أوامر الله واجتنابه نواهيه فيحكم على نفسه عند ذلك بالتقصير أو القرب من الله تعالى .

ويكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء وأن لا يصدق ما يترأى له من كرامات تنافي الإسلام مثل أنواع الكرامات التي تبجح بها بعض غلاة الصوفية لأنفسهم كما ذكرها المناوى وهى :

١ - إحياء الموتى . وقد مثل بأبي عبيد اليسرى الذى أحيا دابته بعد ما ماتت ومفرج الدماميني الذى أحيا الفراخ المشوية والكيلاني وأبو يوسف الدهماني الذى أحيا لتلميذه ولده بعد ما مات .

٢ - ومن الكرامات التي يزعمونها أن الأولياء من الصوفيه لهم القدره على المشي على الماء وكلام البهائم وطي الأرض . وظهور الشيء في غير موضعه والمشي على السحاب وتحويل التراب إلى خبز وإبراء الأكمه والأبرص .

٣ - ويذكر على حرازم منهم أن الولي يملك كلمة التكوين فإذا أراد شيئا فإنه يقول له كن فيكون . وقد ذكر أمثلة كثيرة في كتابه جواهر المعانى لمثل هذا الخلط والكذب على الله وعلى الناس .

٤ - ومن المعجزات والكرامات التي يملكها الأولياء من الصوفية حسب زعمهم سماع نطق الجمادات كما يزعم ابن عربي الذي ملأ كتبه بأنواع الأكاذيب حول تلك المعجزات والكرامات الصوفية .

٥ ـ ضمانه الجنة لمن أطعم صوفيا أو قضى له حاجة كما ضمن ذلك التيجاني لكل من أحبه أو أطعمه أو أحسن إليه بأى شيء كما يذكر التجانيون في كتبهم افتخاراً بكرامات سيدهم التي منها هذه الكرامة التي أكدها على حرازم والفوتى نقلا عن التيجاني .

وكل تلك الكرامات أشبه ما تكون بأحلام الصبيان أو صرعات المجانين وتكذيبها والسخرية بها لا تحتاج إلى ضياع الوقت في الاشتغال بالردود عليها وبيان سخافتها ودجل من يدعيها ممن جرؤ على الكذب على الله وعلى الناس وضللوا أتباعهم وأخرجوهم عن الإسلام من حيث لا يشعر أولئك الأتباع لأنهم أصبحوا كما قال الله تعالى: ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ .

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة من كلام أقطاب التصوف في الكرامات التي يزعمونها لأنفسهم أو لأوليائهم لترى مدى العقول البعيدة عن الحق والأفكار الرديئة التي انطوت عليها الزعامات الصوفية .

يقول عبد الكريم القشيرى عن كرامات أبي الحسين النورى أنه قال : « كان في نفسي شيء من هذه الكرامات فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ثم قلت وعزتك إن لم تخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقن نفسي قال فخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال »[1].

فهذا جاهل بحق ربه وأراد أن يقتل نفسه وقد صادف أو كان بفعل الشيطان ليغويه أن خرجت له تلك السمكة ولم يكن مسلك الأولياء على هذا النحو وقال عنه :

« وحكي عن النورى أنه خرج ليلة إلى شط دجلة فوجدها وقد التزق الشطان فانصرف وقال وعزتك لا أجوزها إلا في زورق » .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٧٦ جـ ٢ .

وقد فسر ذلك العروسى فقال : « أى التقيا له الشطان بحيث لو مد رجله كان على الشط الآخر فانصرف وقال تأدبا واعترافا بتوالى نعم الله عليه في كل خارق وعزتك لأجوزها إلا في زورق كسائر الناس » [1].

فكيف يكون الأدب مع الله أن ترد مكرمته إلا عند القشيرى والنورى وقال أبو الحارث » الأولاشي مكثت ثلاثين سنة ما يسمع - أى ينطق - لسانى إلا من سرى ثم تغيرت الحال فمكثت ثلاثين سنة لا يسمع سرى إلا من ربي » [2].

« وكان يحيى بن سعيد يتعبد في غرفة ليس إليها سلم ولا درج فكان إذا أراد أن يتطهر يجيء إلى باب الغرفة ويقول لا حول ولا قوة إلا بالله ويمر في الهواء كأنه طير ثم يتطهر فإذا فرغ يقول لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود إلى غرفته»[3].

وقال أبو يعقوب السوسي : « جاءني مريد بمكة فقال يا أستاذ أنا غدا أموت وقت الظهر فخذ هذا الدينار فاحفر لي بنصفه وكفني بنصفه الآخر ثم لما كان الغد جاء وطاف بالبيت ثم تباعد ومات فغسلته وكفنته ووضعته في اللحد ففتح عينيه فقلت أحياة بعد موت؟ فقال أنا حي وكل محب لله حيى » [4].

وأما بالنسبة للخضر فحدث ولاحرج لقد ملأ الصوفيون كتبهم بحكايات عن الخضر لاحد لها ولا حصر إذ لا يخلو كتاب من كتبهم من نسج القصص والأساطير عليه ومفادها أن الخضر يجيب كل من يستغيث به في أي بلد كان .

ويذكر القشيرى أنه حدث ابن أبي عبيد اليسرى عن أبيه أنه غزا سنة من السنين فخرج فى السرية فمات المهر الذى كان تحته وهو فى السرية فقال يارب أعرناه حتى نرجع إلى بسرى يعني قريته فإذا المهر قائم إلخ القصة .

ومثل هذه القصة قصة أخرى وقعت لأحد الأولياء ذكرها أبو سبرة

---

(1) ص ٦٧٨ .
(2) ص ٦٨٢ .
(3) ص ٦٨٥ .
(4) ص ٧٠٠ .

النخعي [1] ، وذكر السكندرى أنواعا من الكرامات التي تحصل للولي فقال :

«ثم إن هذه الكرامات قد تكون طيا للأرض ومشيا على الماء وطيرانا فى الهواء واطلاعا على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة وتكثير الطعام أو الشراب أو إتيانا بثمرة في غير إبّانها وانباع ماء من غير حفر أو تسخير حيوانات عادية أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته أو صبر عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة أو إثمار لشجرة يابسة ماليس عادتها أن تكون مثمرة له»[2].

ونقل عن المرسي قوله:«وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقا بساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين إلخ».[3]

وذكر السكندرى عن الصوفي القرشي أنه جاءه الخضر بزيتونه من نجد وكان به مرض الجذام فقال له كل هذه الزيتونة ففيها شفاؤك فقال له إذهب أنت وزيتونتك لا حاجة لي بها »[4].

ثم شرع السكندرى كغيره من علماء الصوفية في ذكر فضائل الخضر وأفعاله مع الأولياء الصوفية وأورد قصصا في ذلك كثيرة وردعلى الذين ينكرون وجوده بدليل أن إبليس موجودالآن فلا ينبغى جحد وجود الخضر وهذا الدليل من أبعد مايكون عن الصواب لأن وجود إبليس بنص القرآن والسنة ووجود الخضر إلى الآن لادليل عليه لا عقلا ولا نقلا .

وكرامات كثيرة يذكرها السكندرى لمشائخه لا يصدقها عاقل نترك ذكرها هنا ومن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلى كتاب السكندري « لطائف المنن »حيث ملأه بكرامات وبشطحات أولئك المشائخ بما لا يجرؤ أى مسلم يخاف الله أن يتطاول على الله وعلى رسله ولو بأقل من تلك الشطحات الخرقاء من دعوى

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٧١٢ .
(٢) لطائف المنن ص ١٢٣ .
(٣) ص ١٤٦ .
(٤) ص ١٥٣ .

علم الغيب بكل شيء في هذا الكون مهما كان حقيرا في ليل أو نهار ومن دعوى الاتحاد بالله ومجالسته ومن دعوى مصاحبة النبي محمد ﷺ في كل وقت ومن دعوى مشاهدة الجنة دائما وأشياء أخرى حين يقرأها المسلم يقول ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

ومثل ما خاض فيه السكندرى خاض فيه أيضا الشعرانى ولا أرى أن المقام يسمح بذكر نماذج من تلك الكرامات الخيالية التى زعمها الشعرانى لأقطاب التصوف الذين ترجم لكل واحد منهم وجاء في تراجمهم بما لا يقوله إنسان سليم الفطرة سليم العقل عنده أدنى معرفة بالدين الإسلامي . إنها جرائم حشدها الشعراني في طبقاته على أنها كرامات لأولئك الذين زعم كذبا أنهم أولياء أقل ما فيها الاستهانة بجرائم اللواط والزنا والشذوذ الجنسي - كما يسمى في عصرنا - ومن غريب أمره أنه يذكر الشخص منهم ثم يأتي في ترجمته وكراماته بما ينكس الرأس حياء ثم يختمها بقوله عنه - رضي الله عنه - .

ولو أن هؤلاء الصوفيه من أمثال ابن عربي والنوفي والسهروردى والشعراني والسكندري وعلى حرازم والفوتي ذكروا كرامات قليلة وفيها نوع من التعقل لكنت نقلتها هنا ولكن لا حيلة في ذلك وكتبهم كلها مملوءة بكرامات كل واحدة تلعن أختها[1] ، ومن هنا أعرضت عن ذكر ذلك وكنت مثل خراش الذى قال فيه الشاعر :

تكاثرت الضباء على خراش ... فما يدرى خراش ما يصيد

على أن بعض تلك الكرامات لا تستحق أن تذكر لأحد إذ فيها الاستهانة بالأخلاق والآداب العامة وفيها التشجيع على اللهو والفسق .

---

(١) انظر الفتوحات المكية ٤ أجزاء، جمهرة الأولياء جزئين عوارف المعارف مجلد، طبقات الشعراني ٢ جزئين ولطائف المنن ١ مجلد جواهر المعاني ٢ جزئين رماح حزب الرحيم جزئين، هامش جواهر المعاني وغيرها من كتب الصوفية الذين غلوا في دينهم .

## زعماء الصوفية

للصوفية زعماء كثيرون ليس من السهل حصرهم وذكر تراجمهم غير أننا نحيل من أراد التوسع في تراجمهم إلى كتب الصوفية أنفسهم .

وقبل إيراد بعض تلك الكتب أحب التنبيه إلى أن بعض علماء الصوفيه حينما كتبوا تراجم لمشاهيرهم وأسلافهم ارتكبوا جرما في حق الصحابة رضوان الله عليهم وفي حق غيرهم من خيار المسلمين وعلمائهم حيث حشروهم في سلسلة واحدة مع كبار غلاة وفساق الصوفية الذين وصل بهم الاستهتار بالأخلاق وبأمور الدين الشرعية وبالآداب الإسلامية بل والعرفية إلى حد يستحي الإنسان من ذكرها وأعمال لا يتصور وقوعها من جهال المسلمين فما الظن بطلاب العلم بل وما الظن بأولياء الله ؟

وكنت قد جمعت عدة أوراق في تراجم أقطاب التصوف ولكني رأيتها أليق بكتب التاريخ وتطول بها هذه الدراسة فاكتفيت بذكر بعض المراجع التي اهتمت بدراسة شخصيات علماء التصوف ونقل أخبارهم وشطحاتهم وكشوفاتهم ومنزلتهم عند الله وعند الناس وما آل إليه أمر كل واحد منهم ومن أهم تلك الكتب :

١ ـ الرسالة القشيرية : لأبي القاسم عبد الكريم ابن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري النيسابوري الشافعي ٤٧١ ـ٤٦٥هـ و هي مجلدين خصص المجلد الأول من ص ٦١إلى آخره لتراجم مشائخ التصوف أبتدأه بهذا العنوان،(فصل في ذكر مشائخ هذه الطريقة وما يدل من سيرهم وأقوالهم على تعظيم الشريعة»[1] ثم ذكر ترجمة لثلاثة وثمانين شخصا ٨٣ من كبار زعماء التصوف .

---
(١) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٦١ .

٢ ـ الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار تأليف عبدالوهاب بن أحمد بن على الأنصارى الشافعى المصرى المعروف بالشعراني. ظهر في القرن العاشر الهجرى .

والطبقات مجلدين خصصها لتراجم كبار علماء الصوفية من رجال ونساء.

وقد ترجم لأربع مائة وأربعة وعشرين شخصا ٤٢٤ بإضافة مشائخه وعددهم ٨٧ شخصا وقد بدأ تراجم هؤلاء بأبي بكر الصديق رضي الله عنه وختمهم بعلي بن شهاب جده الأدنى ثم ابتدأ بمحمد المغربي الشاذلي وختمهم بالشيخ على العياشي .

٣ ـ جمهرة الأولياء اعلام أهل التصوف ، تأليف محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني. مجلدين خصص الجزء الثاني لترجمة كثير من الأعلام أعلام الصحابة وأهل الصفة ثم ترجم لعدد من أعلام التصوف تحت عنوان « طبقة التابعين وتابعيهم ذكر التابعين من الأولياء » (١).

ثم ترجم لسبعة وثمانين شخصا حشر بعض الفضلاء من أعلام الإسلام مع كبار الغلاة من الصوفية دون تمييز .

٤ ـ كتاب عوارف المعارف لأبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عموية الصديقى القرشي التميمي البكرى الشافعي الملقب بشهاب الدين السهرودى ٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ ، لم يبرز التراجم لرجال الصوفيه في هذا الكتاب إلا أنه ذكر كثيرا من أعلام التصوف في ثنايا أبواب الكتاب .

٥ ـ لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى وطريقته مثل طريقة السهروردى.

٦ ـ جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدى أبي العباس التجاني تأليف/ علي حرازم ابن العربي برادة المغربي .

---

(١) ص ٨٠ جـ ١ .

٧ ـ كتاب رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم تأليف/عمر بن سعيد الفوتي الطوري الكدوى .

وجواهر المعاني مجلدين. وكذا « الرماح » مجلدين بهامش كتاب جواهر المعاني.

اهتم المؤلفان ببيان الطريقة التيجانية وذكر التيجاني وكبار أتباعه بتوسع تام .

٧ ـ وقد ألف بعض العلماء مؤلفات خاصة عن بعض شخصيات الصوفية مثل ابن عربي والبسطامي . والتيجاني ، والنقشبندى وابن سبعين والغزالي وابن الفارض والحلاج والجيلاني .

## بعض المراجع عن الصوفية

### كتب الصوفية


١ - **الرسالة القشيرية .** للقشيرى .

٢ - **عوارف المعارف .** للسهروردى .

٣ - **لطائف المنن .** للسكندرى .

٤ - **جمهرة الأولياء .** للمنوفي .

٥ - **جواهر المعاني .** على حرازم .

٦ - **رماح حزب الرحيم .** الفوتي .

٧ - **الطبقات الكبرى .** الشعراني .

٨ - **الفتوحات الربانية .** ابن عربي .

٩ - **فصوص الحكم .** ابن عربي .

١٠ - **تائية ابن الفارض .** ابن الفارض

١١ - **تخريج الأربعين السلمية في التصوف .** للسخاوى تحقيق على حسن .

١٢ - **الهداية الربابية في فقه الطريقة التجانية.** محمد السيد التجاني .

١٣ - **الغنية لطالبي طريق الحق .** عبد القادر الجيلاني .

١٤ - **رفع الشبهات عما في القادرية والتجانية من الشطحات:** لجنة جماعة الصوفية في ألورن .


****